

كتب قومية

لا رقّ في القرآن

تأليف
إبراهيم هاشم الفلالى



كتب قومية

لا رِقَّ في القرآن

تأليف
إبراهيم هاشم الفلالي

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله مانح الحياة والحرية لآدم وبنيه ،
وأصلي وأسلم على من بعث لتحرير الانسانية
من الرق الذي كانت وما زالت ترسف فيه ،
منقذ البشرية وهاديها محمد بن عبد الله
وعلى آله وأصحابه وتابعيه .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

« الم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك ، وما انزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت ، وقد امروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان ان يضلهم ضلالا بعيدا » .

« واذا قيل لهم تعالوا الى ما انزل الله ، والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » .

« فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله ان اردنا الا احسانا وتوفيقا » .

« أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم ، فاعرض عنهم

وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا » . (صدق الله العظيم) .

إسجدوا لآدم

بهذه التحيه وهذا التمجيد حيا الله آدم حينما فرغ من خلقه- اذ قال لملائكته « اسجدوا لآدم » .

ومن لم يسجد آدم لم يطع الله . ومن لم يطع الله يطرد من ملكوت السماء . وتحل عليه اللعنة الى الابد .

وذلك ما وقع للشيطان .

وما الشيطان ؟؟

انه الكراهية للعلم .

انه الحقد .

انه الحسد .

انه العجب .

انه التعالى .

انه الاستهتار بالقيم .

انه الجحود بالحقوق الممنوحة .

انه الجهل بالكائنات وأسرارها .

انه الكفر بالانسانيه .

انه الأنانية .

انه التمرد على الله .

وان من يكفر بالانسانية ، يكفر بخالقها ، ومن يتمرد على الله يتمرد على من استخلفه الله على أرضه .

ومن خليفة الله فى الارض ؟

انه الانسان .. آدم .

ألم يقل الله لملائكته قبل خلقه «انى جاعل فى الارض خليفة»

ثم خلقه فى أحسن تقويم ، وعلمه بالقلم ، علمه ما لم يعلم ، وعلمه الاسماء كلها ، وكرمه ، وفضله على كثير ممن خلق .

تلك هى نظرة القرآن للانسان ، وذلك وضع الانسان فيه .

أفيتفق ـ مع هذا الوضع الكريم ، وتلك النظرة العالية ـ أن يكون تشريع القرآن مناقضا لذلك ؟

ان القرآن الذى يرتفع بالانسان ارتفاعا يتعدى الملائكة ويدنيه من الخالق لا يمكن أن يشرع له تشريعا يهبط به الى حضيض الاسترقاق ، ويهدر هذه الآدمية الممجدة .

وكيف يحقق الانسان استخلاف الله له على أرضه اذا أثقلت أفكاره القيود ، وأطرافه السلاسل والاغلال ، وأدمى أديمه لفح السياط وعصرت أمعاءه آكف الجوع والحرمان ؟ .

ان القرآن الكريم وحدة متناسقة ، فليس فى تشريعاته تناكر مع مبادئه وأولياته .

ولكن الرجال تتناقض افكارهم ويضرب بعضها وجوه بعض لهوى أو لسوء فهم .

ليس فى القرآن الكريم نص يبيح استرقاق الناس بعضهم بعضا .

وليس فيه نص يحد من حريةالناس ، أو نشاطهم ، أو تعطيل ملكاتهم ، أو الحجر عليهم فيما يضطربون فيه ؛ وليس فيه غير التهذيب ، والتنظيم لما اودع الله فى الانسان من قوى وخصائص وملكات وما فى الارض من أرزاق وخيرات . لئلا تعبث الفوضى بالنعم الكثيرة التى منحهم اياها .

❋ ❋ ❋

ان القرآن الثورة الكبرى ، والتنظيم الرشيد الخالد لتخليص

الانسانية من كل ما أزرى بها ومن كل من طغى عليها . ولتنبذ كل من تمرد على الله وشوه حياة الانسانية بأسفافه ، وحماقته ، واجرامه .

* * *

ان القرآن الذى نزل من خالق الانسان متهم بما هو منه براء .

وعلى المسلمين ، أن يردوا هذا الاتهام . وينشروا صحائف القرآن المشرقة لا بالأقوال ولكن بالتطبيق العملى لتشريف السميح الحكيم . فان ذلك هو الدفاع الصادق عن القرآن .

* * *

ان فى هذا الكتاب محاولة للتذكير ، بما فى القرآن من نظم سهلة التطبيق ، فيما يشغل أذهان الناس فيما يختص بمعاشهم ؛ ووجدانهم ، وافكارهم . مما جرتى اليه البحث الذى من أجله كان تاليف هذا الكتاب، وفيه دفع لبعض التهم التىيتشدق بها الجاهلون بالقرآن والحاقدون عليه ويلصقونها بالقرآن جاءت فى تضاعيف الدراسة والبحث . كما ان فيه تنزيها للقرآن عما يرتكبه من يحملون شعارات الكتاب والسنة وما هم منهما على شى .

فلعل ذلك يكون مثيرا ، وحافزا على اعادةالنظر الى ما تحفل به آيات القرآن من نظم لا تدانيها النظم الوضعية احكاما وتسديدا . ان ما نراه سائدا فى بعض بلاد الاسلام ليس من الاسلام فى شىء. فحاشا لنظم القرآن ، أن تكون متخلفة عن ركب الانسانية . فان القرآن ما كان خاتمة الاديان لولا أن موحيه يعلم أنه تشريع لا يضيق بزمان ولا بمكان ، ولابانسان أينما كان . وهو لا يقر الجمود والرجعية ولا يرضى البغى والعدوان ، وينكر استرقاق الانسان لاخيه الانسان .

وان من يحاول الوقوف أمام الروح التى نفخها الله فى آدم تحطمه روح الله . وقد استطاع الانسان أن يرغم الكائنات على السجود بين يديه كما سجدت الملائكة بين يدى أبيه من قبل .

وذلك ما يريده خالق الانسان ومانح الحياة الله ، وجل جلال الله .

تمهيد

من يزعم أن القرآن الكريم شرع الرق أو ضربه على فئة من الناس ، أو على جنس من الاجناس اما ان يكون جاهــــلا بالقرآن وتشريعاته ، واما أن يكون سيىء الفهم مكابرا ، لانه لا يستطيع ـ مهما جهد ـ أن يأتى بآية من القرآن تؤيد زعمــه ، واما أن يكون مغرضا يهدف الى طمس الحق وتضليل الناس . فآيات القرآن الخاصة بالرقيق انما جاءت لتحريره ، وللقضاء على نظام الرق الذى كان سائدا فى العالم قضاء مبرما . كما سنبين ذلك فى حينه .

والمتدبر لآياته وتشريعاته يرى ـ بوضوح ـ أن القــرآن لم ينظر لمشكلة الرقيق على انها مشكلة قائمة بذاتها منفصلة عن غيرها من المشاكل ، بل نظر اليها على انها مشكلة تضافرت عليها عوامل كثيرة حتى اوجدتها . فهى وليدة عديد من المشــــاكل التى لولا وجودها ما وجدت مشكلة الرقيق .

لذلك تتبع القرآن المشاكل التى تسببت فى وجود نظـــام الاسترقاق ، ووضع الحلول الحاسمة التى تقضى على هــذا النظام القــديم المتوارث من آلاف السنين . وتقتلع جذوره الضـاربة فى اعماق المجتمعات الانسانية من الاســاس .

والقرآن لم يتنزل الا لتخليص الانسانية من شرورها وهدايتها الى ما فيه خيرها وصلاحها واستقامة امورها . لتعيش مشرقة الوجه سليمة من البثور والكدمات التى تشوهها .

واذا أبت الانســانية ـ منذ نزول القــرآن الى الآن ـ الا أن تعيش مشوهة موبوءة فليس ذلك من عمل القرآن ، وانمـا هو من عمل المنحرفين عن هدى القرآن .

فليس من حق أى انسان أن يقول فى اجتراء وقح « ان القرآن قد استنفد أغراضه ولم تعد تشريعاته صالحة للقرن العشرين » .

والقرآن يتحدى بآياته البينات ، وتشريعاته المحكمة كل النظم والتشريعات الحديثة ... ويثبت للباحثين ـ بالخلاص عن الحقيقة ـ أنه اصلح منها مجتمعة لكل زمان ومكان ... وجميع ما نراه من محاسن النظم الحديثة لم تشرق محاسنها على الناس الا بعد نزول القرآن وانتشار اضوائه فى المشرق والمغرب .

أما قبل القرآن فلم يكن فى العالم الا ظلمات دامسة يغشى بعضها بعضا ـ الا ما كان من ومض النبوءات التى كانت تومض بين الحين والحين ـ ولم تعن فلسفة من الفلسفات المجتمعة بتربية الضمير ، لا فى الفرد ، ولا فى الجماعة ، ولم يعنها قط بعث الرحمة والتعاطف والايثار فى القلوب . ولذلك كانت القوانين مجحفة جائرة بالضعفاء الذين لا حول لهم ولا طول . ولما كان سائدا من التمايز العنصرى ، والطبقى ، والدينى ، الذى تسير القوانين على هديه . فأعطت الاقوياء كل شىء ، ومنعت الضعفاء من كل شىء .

اما اذا كان بعض المجتمعات الاسلامية ما زال يرسف فى الاغلال الثقيلة اغلال الجهل والفقر والمرض وغير ذلك . واذا كان بعض المجتمعات المسلمة ـ ما زال حتى الا ن ـ يفتح أسواقه للقراصنة واللصوص والخطافين والنخاسين وسماسرة الرقيق الابيض والاسود لمزاولة تجارتهم تحت حماية السلطان فمن الخطأ الفاضح أن يكون ذلك حجة على القرآن. واذا كان فى تلك المجتمعات المسلمة من يرى أن القرآن يبيح ذلك فانما هم يكذبون على القرآن ، ويفتئتون على الرحمن « ومن اظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام والله لايهدى القوم الظالمين » . وهؤلاء هم الثغرة التى يتسلل منها أعداء القرآن لوصمة بالقسوة والهمجية واذلال الانسانية .

ان أعداء القرآن حينما يصمون القرآن يسوقون أعمال اولئك الذين يحملون شعارات القرآن وهم منحرفون عنه، تأييدا لافتراءاتهم عليه . والقرآن برىء منهم ومما يعملون . ولا بد لدحض حجج المفترين على القرآن . ولبيان ان القرآن لم يشرع الرق بل شرع تحرير الرقيق من سرد موجز لتاريخ الرق فى العالم، وسرد الاوضاع المختلفة التى كانت قائمة ، والفلسفات والنظريات التى كانت سائدة .

ثم سرد لآيات القرآن التى جابهت كل ذلك وتركته انقاضا وركاما . واقامت بدله نظريات جديدة ليقوم عليها بناء سليم منزه من كل ما اصاب الانسانية من بلاء وشقاء فى عصورها الغابرة .

ولعل الذى أوقع المجتمعات الاسلامية فيما هى فيه من اختلال بنائها وتصدعه هو انها لم تنظر الى القرآن كلا لا يتجزأ . بل نظرت اليه أجزاء متفرقة ، واتبعت فى ذلك سنن بنى اسرائيل الذين آمنوا ببعض الكتاب وكفروا بالبعض الآخر . فأوقعها ذلك فى اضطراب الفكر وسوء الفهم . وانحرفت نتيجة لذلك فى مسلكها حتى ابتعدت عن طريق الجادة . ان كل نظام يقوم فى أى مجتمع لا مناص من أن تحيط كلياته وجزئياته التشريعية بالمجتمع كما تحيط الحلقة بالاصبع .

وما دام من المسلم به — بداهة — أنه لا توجدمشكلة مجتمعية قائمة بذاتها مستقلة عما سواها ، وأن جميع المشاكل مترابطة ببعض متوالدة عن بعض . فمن المحتم ايضا أن أى نظام يقوم لحلها لا بد أن تكون تشريعاته متضافرة يدعم بعضها بعضا فى المعنى والروح . لتكون الحلول منتجة فعالة ذات أثر عميق فى اقتلاع المشاكل من جذورها . فكذلك آيات القرآن متضافرة يسند بعضها بعضا ويدعم أولاها أخراها . لانه نظام كامل للحياة الانسانية ، انتظمت تشريعاته جميع شئوننا ومشاكلنا . فعلينا أن نستشف روحه ومقاصده ، من هذا الترابط المعنوى بين الآيات .

وهذا ما أحاول بيانه فى هذا البحث . فاعلى أوفق فى ذلك . وانى أستمد العون من منزل القرآن وممن نزل عليه القرآن . صاحب القبر الاعطر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، كما أستمد العون من صحابته الاكرمين ، وائمة المسلمين الذين فهموا القرآن كما أنزل .

تاريخ الاسترقاق

عرفت البشرية منذ التقدم الرق ، وليس لدينا مرجع يخبرنا عن أول مجتمع ضرب الرق على فرد أو فئة من الناس .

ولكن يوجد في آثار عصور ما قبل التاريخ ما يدل على وجود الرق بصورة ما في تلك المجتمعات البدائية .

ومن المؤكد أن الحرية هي الاصل في حياة الانسان ، ومن البديهي أن الرق لم يوجد الا من تسلط قوي على ضعيف ، وقادر على عاجز ، وحاكم على محكوم ، وكلما تطورت حياة البشر تطورت مستلزماتها ، وتطورت تبعا لذلك أسباب الضعف في جانب ، وأسباب القوة في جانب آخر . وتتعدد روافد الرق ومنابعه وهي لا تتفجر الا في البيئات الضعيفة ، ولا يستفيد من تفجرها الا الاقوياء .

وقد عرفت الامم القديمة في حضاراتها أنواعا من الرق ، فكان لديها الرق الفردي ، والرق الجماعي ، والرق الاقطاعي ، والرق الطبقي ، والرق الكهنوتي .

أما أسباب تفجر منابع الرق في الحضارات القديمة فهي تنحصر في فساد النظم الاقتصادية التي كانت قائمة ، وانغماس الناس في الترف والموبقات ، وفساد العقائد والفلسفات التي كانت سائدة ، وشن الحروب العدوانية بين المجتمعات البشرية ، واعتبار السرقة والقرصنة والخطف من ضمن الحرف التي يحميها السلطان وتنظمها الشرائع والقوانين . كما يتبين لنا ذلك مما سنسرده الآن .

الرق عند الاغريق :

فالامة الاغريقية التي أنجبت سقراط ، وافلاطون ، وارسطو ، وصولون ، وغيرهم ممن تركوا أثرا فكريا ضخما في حياة الاجيال

البشرية كانت لا تتصور الحيـاة بغير رقيق ولو كان ذلك التصـور فكريا محضا لا يتعدى الى واقع الحياة .

فهذا ارسطو يوجب وجود الرق ، ويزعم ان التكوين الخلقى لبعض البشر لا يرقى بهم الى مرتبة السادة لانهم فقـدوا التمييز والفهم فيجب أن يكونوا رقيقا . فهو يقول : « لا يزال فى العـالم اناس مخلوقون للسـيادة وآخـرون مخلوقون للطاعة ، وحكمهم فى ذلك حكم الآلات الحية التى تساق للعمل ، ولا تدرى ما تسـاق اليه » ثم تدركه الرحمة فيقول : « ان للسيد الحق فى تشجيع هذه الآلات حتى تخرج من منزلة الآلة المسخرة الى منزلة الآلة المتصرفة كلمـا بدت فيهـا بوادر الفهم والتمييز » وارسطو حينما يتحدث عن هؤلاء المخلوقين للطاعة والخضـوع كأنما هو يتحدث عن منجم يمد الاغريق بهذه الآلات الحية لا عن اناس لهم ما له من الاحاسيس والمشاعر والافكار .

ولا تدرى لو عاش ارسطو الى الزمن الذى اغار فيه الرومان على بلاده واسترقوا بنى جنسه ، وفيهم كثيرون من امثاله ، أكان يثبت على فلسفته أو كان ينقض آراءه ، ويعرف أن من كان يتحدث عنهم ليسوا آلات وانما هم بشر مثله ؟!

اما أفلاطون ، فان جمهوريته لا يقوم بناؤها ان لم يكن فيهـا رقيق يقوم بالاعمال الشاقة ولذلك يعمد أولا الى خرافة يروجها فى شعب جمهوريته ، فيقول لهم : « كلكم اخوان فى الوطنية ولكن الاله الذى جلبـكم وضع فى طينة بعضـكم ذهبا ليمكنهم من أن يكونوا حكاما فهؤلاء هم الاكثر احتراما ، ووضع فى جبلة المساعدين فضة ، وفى العبيد لان يكونوا زراعا وعمالا ، وضع نحاسا وحديدا » .

وبعد أن يفرض بخرافته هذه نظام الطبقات على النـاس ، لا يحبذ النظام الديموقراطى فى الحكم لانه يخشى أن يتطاول العبيد على حرية أسيادهم فهو يقول : « وأقصى ما يبلغ أهالى هذه الجمهورية من الحرية هو تطاول العبيد على أسيادهم » وعلى ضوء هذه الفلسفة من فلاسفة الاغريق فى أثينا ترتكب جميع الموبقات لتوفير الارقاء فى مجتمعهم ، كما ترتكب جميع أنواع التعسف فى معـاملة الارقاء فكان للسـيد مطلق الحرية فى انزال أى عقاب يريده برقيقـه دون حسيب أو رقيب .

أما اخوانهم في اسبرطة فانهم وان لاحظوا ما فى الفوارق الطبقية من أخطار تهدد كيانهم ومن أضرار تلحق بهم ، حتى عمدوا الى نظام الموائد الجماعيه التى توضع لاطعام الفقراء من الشعب ، الا أنهم كانوا فى نظرتهم الى الرقيق أشد قسوة من الاثينيين .

لقد نظم صولون ـ وهواحد حكام اسبرطة ومشرعيهاالممتازين ـ القرصنة لتوريد الرقيق بالسطو على الموانىء ، وسفن التجار ، وخطف الناس وسرقتهم ، والاتيان بهم الى اسبرطة لاسترقاقهم .

بل انهم كانوا يعتبرون القرصنه والخطف مهنة الاشراف والعظماء . وقد الف « صولون » لتلك العصابات نقابات لتزويدها بما تحتاج اليه من سفن وسلاح ، وكانوا لا ينكرون سرقة النساء والاطفال من القرى والمدن وان كانت يونانيــة ، حتى كثر الرقيق لديهم كثرة فاحشة ، وكلما انتابتهم الخشية من هذه الكثرة عمدوا بين الفينه والفينة الى ابادة جماعات كبيرة من الرقيق بالقتل الجماعى أو الحرق الجماعى ، بحجة أن كثرتهم تهـدد أمن الدولة وقد أقر مشرعوهم استغلال الرقيق فى البغاء ، وانتفاع السادة بالارباح ، وقد أسموا هذا العمل مرفقا من مرافق الدولة النافعة ، لان للدولة جعلا من هذه الارباح . وقد بلغ بالاسبرطيين جنون البغاء عن طريق الرقيق أن جعلوه قربى يتقرب بها الى الآلهة فيدفعون الفتيـات الجميلات الى المعابد ليرتكب زوارها الفاحشة معهن على أن يكون الدخل لصندوق المعبد .

وقد أطرى مؤرخوهم هـذا العمـل واعتبروه من المشروعات الوطنية الجليلة التى تجلب الى بلادهم السياح وتزيد فى الدخـل القومى .

وكان رءوس النـاس وأغنيـاؤهم ينذرون للآلهة حسـناوات الجوارى اذا تحقق مأرب من مآربهم ، حتى غصت المعابد بالنسـاء لارتكاب الفجور فى تلك الاماكن ، وكانوا يسمونه البغاء الدينى .

وكان الى جانب الرقيق الفـردى الرقيق الجمـاعى ، فـكانوا يضربون الرق على مدينة بكاملها أو على شعب بأسره اذا غلبوه فى حربهم .

وكان للدائن استرقاق المدين اذا عجز عن ســـداد دينه ، واسترقاق أسرته معه . وكان القانون يحظر على أى ســيد يريد الاحسان الى أحد عبيده أو اعانته بتحريره الا بشروط معقدة منفرة، واذا أصر السيد على تخطى تلك العقبات القانونية فعليــه أن يدفع للدولة غرامة مالية لان تحرير العبد أو الأمة تضييع لحق من حقوق الدولة ، ومن ناحية أخرى تفرض على المعتوق واجبات وأعباء كثيرة يؤديها للمعتق وأعباء وواجبات أخرى يؤديها للدولة .

هذه معاملة الرقيق عند الاغريق ، وتلك نظرتهم اليهم وهم من بلغوا من الرقى الفكرى المنزلة القصــوى فى العــالم المتحضر قديما .

وقد ذاق الاغريق وفلاسفتهم ذل الرق ، فقد غزاهم الرومان واسترقوا منهم عددا من الفلاسفة من أمثال أرسطو ، وأفلاطون ؛ وطبقوا عليهم نظرياتهم ، وجعلوهم آلات مسخرة تماما كمـا كانوا ينظرون الى الرقيق فى بلادهم ونعتقد ان أرسطو وأفلاطون لو كانا عائشين لأنكرا نظرتهما الى الرقيق وتبرآ منها .

الرق عند الرومانيين :

وتثنى بالرومان وهى امة اشتهرت بالتقنين وما زالت القوانين الحديثة متأثرة بتقنينهم تأثرا بالغا . فلننظر ما صنع هؤلاء بهـذه المشكلة ؟ « كان المبدأ السائد عند الرومان أن الرقيق يعتبر شيئا لا شخصا ، وعلى ذلك فليس له ـ على عكس الحر ـ أسرة ، واتصاله اذن بالنساء لا يعتبر زواجا قانونيا ؛ ولكنه يعتبر صلة واقعية ، وليس له ذمة مالية ، وليس من حقه اذن الامتلاك أو الاستدانة أو التســليف أو الوراثة ولم يكن من حقــه أن يظهر امام القضــاء لان القضاء مفتوح للاحرار دون غيرهم ، فاذا جرح أو أصيب بأضرار فليس من حقــه أن يطالب بتعويض بل كان من حق السيد . شأن الرقيق فى هذا شأن الحيوانات والجمادات التى يمتلكها السيد . ويصح أن يكون موضوعا لملكية فردية أو جماعية يتصرف فيهــا صاحبها بكل حرية بل يصح أن يكون ملكية جزئية مجزأة بين عدة سادة ، وللسيد أن يترك رقيقه كالاشياء تماما فيصبح شيئا لاصاحب له . هذه نظرة روما القديمة للرقيق » .

فلما دخلت المسيحيه في الدولة الرومانية ســـمح للرقيق بالاشتراك فى الطقوس الدينية ، كما كان يحـافظ على قبره كما يحافظ على قبور الاحرار ، وله أن يمثل ســيده فى بعض العقود القانونية باستعارته لشخصية سيده اذا كانت هناك فائدة للسيد، ثم سمح له أن يحل محل سيده فى بعض العقود التجارية ، ثم حصل تطور كبير فى التقنين الرومانى ـ مرده صحه من ســماحة الدين المسيحى ـ فصدر قانون يحرم على السيد قتـل رقيقه بعد ان كان القتل مباحا للسيد يقتل من يشاء من رقيقه وكيف شاء ، وكذلك صدر قانون يحرم القاء الرقيق للحيوانات المفترسة الا اذا كان بحكم قضائى ، وأخذت الامور تتطور فى القانون الرومانى لصلحة الرقيق، فصدر مرسوم يعاقب السيد الذى يقتل رقيقـه بلا سبب للقتـل ، وسمح للقضاء بالزام السيد الذى يعامل رقيقه معاملة فظة ببيعه.

ثم صدر مرسوم يسمح للرقيق أن يحرر نفسه من رق سيده نظير مبلغ من المال اذا كان فى استطاعته تنمية ما بيـده من مال ، ويستطيع ان يتحصل على المال بمجهوده ، وقد كان أهم منبع للرقيق عند الرومانيين حروبهم العدوانية التى كانوا يشنونها على جيرانهم من الغاليين ، وغيرهم .

ويقال ان قيصر زوما عند ما فتح بلاد الغال استولى على مليون أسير وضرب عليهم الرق ، وبذلك نزل سعر الرقيق حتى صـار لا يساوى الواحد منهم عشرة قروش بالعملة الحالية . ولقد تطور امتلاك الرقيق عند الرومانيين فكانوا يتركون الرقيق يعمل فى الارض ثم أخذوا يهبونهم الارض ويورثونها لابنائهم ليشتد تفانى الرقيق فى خدمة الارض وتعلقهم بها ثم حرموا بيع الرقيق الا بالارض التى يملكها وأدى هذا النظام الى نظام الرقيق الاقطاعى ، فللسيد أن يبيع الارض بمن فيها من نساء ورجال وأطفـــال لان كل ذلك ملكه . وانعكست الرحمة فصارت قسوة شائنة وكان القانون الذى صدر لصلحة الرقيق لم يكن الا تمهيدا لارتكاب جرائم أفظع وأشد .

وكان من منابع الرقيق عنـد الرومان أن ابن الرقيقه رقيق بصرف النظر عن أبيه ولو كان حرا ، وللقاضى أن يصـدر حكما باسترقاق من فروا من الجيش،أو فروا من دفع الضرائب الحكومية

واذا لم تتمكن الحكومة من القبض على الفارين فلها أن تسترق اباءهم ، وان تسترق المدينين اذا فر دائنوهم والمسروق منه بالنسبة للسارق ، ومن قوانينهم ان المرأة الحرة اذا اتصلت برقيق لشخص آخر رغم تحذير سيده لها تصبح مسترقة لهذا السيد . واذا رغب السيد أن يستعيد رقيقه الذى حرره فله ذلك اذا أثبت أن رقيقه لم يعترف بجميله أو يسيء الى مولاه الذى حرره .

عاتان أمتان أوربيتان بلغتا القمة ، احداهما فى الفلسفة ، والاخرى فى التقنين ، ومع ذلك لم ترحما تنظران الى الرقيق نظرة انسانية رحيمة ، أو على الاقل تنظران اليه على أنه من الآدميين . بل نرى أحداهمـا وهى الأمة اليونانية تعتبره آلة حية يجب أن تستخدم لمصلحة السادة . والاخرى تنظر اليه على أنه لا شخص . وينتهى بهما الامر الى أن تبيح الارض ومن عليها من أطفال ونساء ورجال حتى لكانهم قطعة من وحلها وطين تربتها . ولقد سمى بعض المؤرخين المدن الرومانية « خلايا الماطلين » أى الفارغين الذين تفرغوا للملاذ والشهوات وحملوا العبيد أعباء معيشتهم .

الرق عند الاسبانيين والطليان :

وكان الاسبانيون والطليان مثلهم مثل غيرهم من شعوب أوربا ينكرون آدمية الأرقاء ولا ينكرون منابع الرق السائدة فى العالم . وليس للرقيق أى حق مدنى أو قانونى . وكان من قوانينهم أن المرأة اذا تزوجت برفيقها تحرق معه وهما على قيد الحياة . اما اذا تزوجت برقيق غيرها فانه يفسخ النكاح ويجلد كل منهما بالسياط .

واذا أجرم العبد فى حق سيده فلسيده الحق فى أن يذهب به الى القاضى أولا ، وحينئذ يصدر القاضى حكمه بحسب جريمته اما جلدا بالسياط ، أو قتلا . ويسلمه لسيده ليقوم بتنفيذ العقوبة على عبده بيده .

الرق عند الانجليز :

وكان الرقيق عند الانجليز ينقسم الى قسمين : الرق الفردى والرق الاقطاعى . فالرقيق الاقطاعى لا يباع بمفرده مجـردا عن الارض بل يباع بالارض كأنه قطعة منها كما هو عند الرومان .

اما الرقيق الفردى ، فهو الذى يباع بمفرده . وكلا الصنفين من الرقيق يعتبر شيئا لا شخصا .

وليس له اى حق من الحقوق الآدمية . فهو كالمتاع والاثاث يفعل به مالكه ما يشاء وكيف شاء دون مؤاخـــذة أو اعتراض من القضاء أو القانون .

وما زالت رواسب الماضى المظلم فى تاريخ الانجليز تتحكم فى أخلاقهم ونفوسهم وتصرفاتهم الى اليوم . ولم تسع بريطانيا لالغاء الرقيق الا بعد أن استعمرت جانبا كبيرا من البلادالافريقيةواستولت على كثير من أراضيها الخصبة اغتصابا من ايدى ملاكها الاصليين . فلم تجد الايدى العاملة الكافية لاستغلال الارض ، فحرمت اصطياد ابناء افريقيا السود لتوفر لنفسها الايدى العـاملة فى مزارعهـا المغتصبة . ولم يكن تحريمها للرقيق الا لمصلحتها الاســتغلالية لا كما يظن بعض الساذجين أنها حرمت الرقيق بدافع منالانسانية او التمدن . ودليلنا على ذلك معاملة البريطانيين للسود فى بلادها، وفى مستعمراتها من البلاد الاصلية للسود . فانها تتبع الآن وفى القرن العشرين فى معاملتها لهم شريعة منو الطاغية البرهمى التى وضعها قبل الوف السنين .

الرق عند الجرمانيين :

كان الرومان واليــونان والبيزنطيون ، يعتبرون الجرمان برابرة . ومع ذلك فان المجون والترف بلغـا بالجرمانيين حدا كبيرا فاسرفوا فى الميسر وأسرف أغنياؤهم فى الربا فاسترق اغنياؤهم فقراءهم وبلغ بهم هوس القمار أن كانوا يقامرون بنسائهمواولادهم، ثم بأنفسهم . فيسترقهم قامروهم ولكن كانت معـاملة الجرمانيين لرقيقهم أخف بكثير من معاملة الرومان واليونان . فكان الســيد الجرمانى لا يكلف رقيقه الا بادارة أعماله ، ويفرض عليه أن يقـدم له قدرا مما ينتفع به مالا ، أو ماشـية ، أو شـيئا من الملابس ، ثم يتركه حرا فى تصرفه .

واذا غضب السـيد على رقيقه عاقبه بما يريد . ولكن لم تبلغ القسوة به مبلغها عند الرومان واليونان ، ولعـل ذلك راجع الى أن السيد والمسترق كلاهما جرمانى الا فى النادر .

الرق عند الغاليين (١)

وكان الغاليون الذين ابتلوا باستعمار الرومانيين لهم ضعفاء امام جبروت روما ، فهم لا يستطيعون لها صدا ، وقد غزاهم قيصر روما وأسر منهم مليون شخص ضرب عليهم الرق حتى بيع الشخص منهم فى أسواق روما بما يعادل عشرة قروش من العملة الحالية كما قدمنا .

وهؤلاء الغاليون على ضعفهم قد عرفوا نظام الرقيق ، وقد بلغ بهم الترفع أنهم كانوا ينظرون الى أعمال الزراعة من حرث وزرع، وحصاد ، بتقزز ويستنكفون من مزاولة الزراعة ، ويحكمون على من يزاولها بالذلة والاحتقار ، فأسندوا هذه الاعمال الى الرقيق .

اما السادة فكانوا يزاولون الحكم أو البطالة ويعيشون على مجهودات الرقيق وعرقهم ، فرأينا ابتلاء الله لهم بالرومان يسترقونهم وينزلون بهم الهوان .

الرق عند الهنود :

واذا تركنا أوربا وانتقلنا الى الشرق نجد الشرقيين مثل الغربيين تماما لم ينظروا الى هذه المشكلة نظرة الذين يريدون لها حلا أو نظرة الذين يريدون أن يتسموا بشيء من الرحمة حيال هذه الفئة المنكوبة . وانما نظروا اليها على أنها نظام متبع يجب أن يبقى ونظروا الى فئة الرقيق على أنها فئة لا تمت الى الآدميين بسبب .

ولنبدأ بالرق عند الهنود من أمم الشرق :

دخل العنصر الآرى الهند فاتحا وتغلب على السكان الاصليين وحكمهم ، وقطع الغزاة الفاتحون صلاتهم بجذورهم الاولى ، واستوطنوا الهند . ولكن اتساع الهند وغزارة سكانها أخافهم ، فان هذه الغزارة فى السكان تهددهم بالابادة ، اما عن طريق الثورة والعنف ، واما عن طريق الذوبان التدريجى فى العنصر الهندى

---

(١) الغاليون : السكان الاصليون لفرنسا ، وسكان ايطالية الشمالية وسكان اسبانيا القديمة .

الاصيل . فاذا ما مضى جيل او جيلان لا يبقى لعنصرهم طابع مميز ويذوب ذوبانا نهائيا وهم وان أرادوا البقاء في الهند الى الأبد فانهم لا يريدون أن يحيوا حياة الامة الهندية ، ولكنهم يريدون أن يحيوا حياة السادة الذين يستأثرون بكل شيء وللاحتفاظ بنقاء دمهم ونماء عنصرهم ، وطابعهم المميز ... يقول « منو » وهو صانع الفلسفة التي رآها كفيلة ببقائهم : « لم تثبت كل بلد يولد فيـــه أولاد من عرق متوالد مفسد لفسادالطبقات أن تتقوض دعائمه وينحط سكانه وأسرة الرجل مهما تكن شريفة ممتازة لابد لهذا الرجل اذا كان وليد طبقات مختلفة مختلطة من ان ينتقل اليه بالارث شيء من ســـجية ابويه وسوء خلقهما ، وما فى الرجل من فقدان المشاعر النبيلة وغلظة الكلام والجلافة ، واهمال الواجبات فموروث من أم جديرة بالاحتقار » .

هذه نظرية « منو » وعلى هذه النظرية وضع فلسفته وجعلها دينا يجب أن يؤمن به الهنود ومن بينهم العنصر الآرى المستوطن فى الهند ، ولقد قسم « منو » الامة الى أربع طبقات :

١ ـ (الكهنة) وهم رجال الدين اى حراس هذه الفلسفة .

٢ ـ (الكشترية) رجال القتال (الجيش) .

٣ ـ (الويشية) وهم الزراع والمرابون والتجار .

٤ـ (الشودرا) وهم العبيد الذين ليس لهم مهنة خاصةبل عملهم خدمة الطبقات الثلاث والطبقات الثـلاث كلها من العنصر الآرى . اما الشعب الهندى فهو من طبقة الشودرا أى أن (منو) ضرب الرق على الشعب الهندى باسره .

وأباحت فلسفته لرجال الطبقة الأولى أن يتزوجوا من نســاء الطبقتين ، ولكنه حرم على رجال الطبقات الثلاث أن يتزوجـوا من نساء طبقة الشودرا ، والذى يتزوج امرأة من طبقة الشودرا يصبح مهتوك الستر ويعيبه الخزى فى الدنيا والآخرة . ولذلك يطرد من طبقته ولا ينتسب اليها وليس أمامه الا طبقة الشودرا .

واذا قرآنا أسلوب (منو) لتقسيم الناس الى طبقات وجدناه

يشبه أسلوب افلاطون فى جمهوريته كلاهما يعمد الى خرافة ويروجها بين الناس لتتسلل فلسفتها الى القلوب والافكار .

وقد رأينا فيما سبق أن خرافة أفلاطون كانت قائمة على ان الله خلق بعض الناس من ذهب وهؤلاء طبقة الحكام الذين يجب طاعتهم واحترامهم ، وبعضهم من فضه وهى طبقةالجنود ، وبعضهم من نحاس وهم طبقة العبيد الذين لا يصلحون الا للاعمال الشاقة .

أما (منو) فيصبغ خرافته بصبغة تتفق مع طريقة الهنود فى تفكيرهم فيقول : « أراد الرب المولى تكاثر الجنس البشرى فخلق من فمه (البراهمة) الذين هم «الكهنة ، ومن ذراعه (الكشترية) وهم الجنود وخلق من فخذه (الويشيه) وهم التجار والزراع والمرابون ، وخلق من رجله (الشودرا) العبيد . وأراد دوام هذا الجنس فجعل لكل واحدة من هذه الطبقات أعمالا خاصة . فعهد الى البراهمه درس أسفار الديانة وتعليمها . وتقريب القرابين وادارة ضحايا الآخرين والعطاء والاخذ .. وفرض على الكشترية حماية الشعب وممارسة الاحسان وتلاوة (الويدا) وعدم الانهماك فى الشهوات .. وخص الويشية بتربية المواشى وايتاء الزكاة والتضحية وتلاوة (الويدا) والتجارة ، والربا والحرث .. وأوجب على الشودرا عملا واحدا فقط وهو خدمة تلك الطبقات من غير أن يحطوا من قدرها » .

ثم يقول مشرعا لهم امر الزواج : « يمكن المرء أن يولد منآب شريف وأم حقيرة (يعنى أمة) أن يكونشريفا بخصاله ، ولكن الذى يولد من أم شريفة (يعنى حرة) وأب حقير (يعنى عبدا) يعد حقيرا كما هو القدر » ويقول : « لا ينجل الشودرى الذى يتزوج بامرأة من طبقة الكهان غير ولد أدنى منه ، وكل واحد من الادنياء يتزوج بواحدة من بنات الطبقات الثلاث لا ينجل الا ولدا أدنى منه .. ونار جهنم هى دار البرهمى الذى يتزوج بامرأة شودرية فاذا ولد له ولد منها طرد من طبقة البراهمة » .

وهذا يبين لنا منابع الرق عند الهنود ، فكل المواليد الذين آباؤهم من الشودريين وامهاتهم من الطبقات الاخرى يضرب عليهم الرق .. وكل ولد يولد من أب برهمى وأم شودرية يضرب عليه

الرق ويلحق بطبقة الشودرا أوتوماتيكيا بحـــكم هـــذا التشريع المنوى .

وبعد ان تضرب هذه الشريعة الرق على كل من يخالف تعاليمها لا تكتفى بهذا الاجحاف الذى يجعل المخالف خالدا فى نار جهنم . بل تجعل من الحياة الدنيا جهنما أخرى يتلقى فيها الشودرا أنواعا من العذاب التى لا يطاق .. وترفع الكهنة الى مقام الالوهيـــة ، وترفق بطبقة الجنود وطبقة التجار والمرابين والزراع . فتشرع هذه التشريعات :

« يؤجر الواهب مرة على هبته المـــال لغير البرهمى ، ويؤجر مرتين على هبته لرجل يزعم أنه برهمى ، ويؤجر مئة ألف مرة على هبته لبرهمى متبحر فى كتب الديانة (الويدا) ويؤجر أجرا لا حد له لبرهمى متبتل الى علم اللاهوت » .

« واذا ولد البرهمى وضع فى الصف الاول من صفوف الدنيا ، والبرهمى اذ كان السيد الحاكم لكل مخلوق وجب أن يحافظ عـلى كنز الشرائع المدنية والدينية ، والبرهمى محل لاحترام الجميـع بسبب نسبه للآلهة وأحكامه حجة فى العالم والـكتاب المقدس هو الذى يمنحه هذا الامتياز ، وكل ما فى هذا العالم ملك للبرهمى ، وللبرهمى حق فى كل موجود بسبب البكرية والنسب . والبرهمى اذا افتقر حق له ان يمتلك مال الشودرا الذى هو عبد له من غـير ان يجازيه على ما فعل فالعبد وما ملك لسيده .

ولن يدنس البرهمى بذنب ولو قتل أهل العوالم الثلاث يعنى الطبقات الثلاث الذين هم دون طبقتـــه ولا ينبغى للملك أن يجنى خراجا من برهمى عالم بالكتب المقدسة ولو مات الملك محتاجا ، ولا يجوز للملك أن يصبر على جوع برهمى فى ولايته ، وليتجنب الملك قتل البرهمى ولو اقترف جميع الجرائم وليطرده اذا أراد من ولايته ، على أن يترك له جميع أمواله والا يصيبه بأذى .

والبرهمى المحصن اذا زنى قص له شعره ، على حين يقتـــل الزناة المحصنون من الطبقات الاخـرى وعلى الملك أن لا يقطع أمرا هاما قبل أن يستشير أكثر البراهمة دراية » .

وعلى الجنود أن يقوموا بأمور الحرب وحدها ، وان « يمارسوا حرفه أخرى ، وأوقات السلم أوقات البطالة وتقول شريعة (منو) : لا فلاح للجنود بغير البراهمة ، ولا ارتقاء للبراهمة بغير الجنود ، ولكن الجنود دون البراهمة بدرجات لأن البرهمى أب للكشترى ولو كان عمر الاول عشر سنوات وعمر الثانى مائة سنة ، فعلى الكشترى احترام البرهمى على هذا الاساس ..

وتأتى المواد الخاصه بالشودرا (العبيد) فتقول :

١ ــ خدمة الشودرى للبراهمة هى افضل عمل يحمد عليه ، ولا أجر للشودرا على أى عمل آخر .

٢ ــ لا يجوز للشودرى أن يجمع ثروات زائدة ولو كان ذلك من القادرين ، فالشودرى اذا جمع مالا يؤذى البراهمة بقحته .

٣ ــ يجب أن ينفى الشودرى الذى تحدثه نفسه بأن يساوى رجلا من طبقة أعلى ، بعد ان يوشم تحت الورك .

٤ ــ تقطع يد الشودرى اذا علا من هو أعلى منه بيده او عصاه ، وتقطع رجله اذا رفس من هو أعلى منه .

٥ ــ اذا دعا الشودرى من ليس من طبقته باسمه وباسم طائفته بلهجه السخرية أدخل فى فمه خنجر محمى مثلوث النصل طوله عشرة قراريط ، ويأمر الملك بصب زيت حار فى فمه وأذنيه اذا بلغ من الوقاحه أن يبدى رأيا للبراهمة فى أمور وظائفهم ..

٦ ــ يجازى بجزاء صارم من آكل شودريا او جالسه على فراش واحد او ركب معه فى مركبة واحدة .

* * *

وطبقه الشودرا هى طبقة المنبوذين ، وما زالت هذه الطبقة باقية حتى الآن ، وما زالت تعامل نفس المعاملة التى كانت تعامل بها منذ (منو) من آلاف السنين ، ولم تفلح صيحات المصلحين والمنصفين فى القضاء على هذا النظام البغيض المنحدر اليهم من عصر الهمجية والظلام . بل ان غاندى قتل حينما أراد أن يحررهم ويعيد اليهم الاعتراف بآدميتهم والاستمتاع بحريتهم كما يستمتع بها بقيه مواطنيهم .

وبينما غاندى يغتال ويذهب صريع هدف انسانى نبيل ، نرى بريطانيا تعتنق شريعة (منو) وتطبقها على سكان البوير فى جنوب شرق افريقيا ·

ونرى أمريكا تطبق شريعة (منو) تطبيقا مخلصا على زنوج أمريكا وهنودها الحمر · فى هذا العصر الذى يسمونه عصر المدنية والنور · ويملأون الفضاء بدعوى حماية الحرية والانسانية ·

الرق عند الفرس :

كان الرقيق عند الفرس ينقسم الى قسمين : الاول للقيام بالاعمال الشاقة وينتقون هؤلاء من ذوى البناء المتين والعضلات القوية ، والثانى للزينة ومظاهر الفخفخة عند الحكام وذوى اليسار وكانت معاملة الفرس لرقيقهم صارمة قاسية شأنهم فى ذلك شأن الرومان والاغريق ثم صدر قانون يخفف عنهم وطأة القسوة عليهم من سادتهم ··

من ذلك أنه : لا يجوز لأى فارس معاقبة عبده على ذنب واحد بعقاب بالغ الشدة والصرامة · ولكن اذا عاود العبد الجرم فمن حق سيده أن يعاقبه بأية عقوبه شاء ولو كانت العقوبة قتلا ·

ثم اصطلح المجتمع الفارسى على ايجاد أوقات فراغ للرقيق يستمتع فيها بالراحة والترفيه عن نفسه · وكأنهم فطنوا الى ما فطن اليه العصر الحديث الى أن أوقات الفراغ ضرورية للرقيق لتجديد نشاطهم وزيادة انتاجهم ، اما الارهاق فانه يقلل من انتاج الرقيق ويقل تبعا لذلك انتفاع السادة بهم · وكانت منابع الرقيق من حروبهم مع أخصامهم ومن توالد الرقيق ·

الرق عند الصينيين :

وكان الصينيون يسترقون أسرى الحرب ، كما يسترقون الذين الجأتهم الفاقة الى بيع أنفسهم وبيع نسائهم وأولادهم وكانوا يستكثرون من الرقيق عن طريق التوالد ويتصرفون فيهم كما يتصرفون فى الاثاث والمتاع ، ولكن العقوبات التى كانوا ينزلونها برقيقهم لم تبلغ من القسوة مبلغها عند غيرهم·ثم أصدر الامبراطور كوانجون ـ وكان رجلا رحيما ـ قانونا بالشفقة على الرقيق ·ومن

اقواله التى تنم عن انسانيه عاليه : (ان الانسان أفضل وأشرف المخلوقات التى فى السماء ، والتى على وجه الارض . فمن قتل رقيقه فليس له من سبيل فى اخفاء جرمه ، ومن أخذت به الجرأة فكوى رقيقه بالنار حوكم على ذلك بمقتضى الشريعة ، ومن كواه سيده بالنار دخل الجنة فى عداد الوطنيين الاحرار) . وانها لنفحة من نفحات النبوة لامست قلب هذا الامبراطور العظيم .

الرق عند المصريين :

وكان الرق عند المصريين على أنواع : الرقيق الاقطاعى وهو الذى يعمل فى الحرث والزراعة والحصاد . والرقيق الفردى . والرقيق الحكومى الذى يقوم بالاعمال والمشروعات الحكومية كاقامة الجسور وشق القنوات وجميع الاعمال الشاقة .

ويشبه الرقيق الفردى عند قدماء المصريين الرقيق عند الفرس فكانوا يتخذون من ذوى الرشاقة والجمال نساء كانوا أو رجالا رقيقا للزينة ومظاهر الابهة والفخفخة والتفاخر . وكانوا يعاملون الرقيق بقسوة الا أنها لا تبلغ حد الصرامة التى كان الرومان واليونان يعاملون بها رقيقهم . ومنابع الرقيق التى كانت تمد المصريين به هى الحروب والتوالد وفرض النظام الطبقى الذى لا يسمح للطبقة الدنيا أن ترتقى الى طبقة أعلى منها .

ولذلك فقد كانوا يحظرون تعلم القراءة والكتابة الا على أبناء الكهنة وأبناء الملوك . ومن يتعلمها من غير أولئك يعاقب عقابا صارما لا يقل عن القتل .

الرق عند اليهود :

واذا تركنا المجتمعات التى لا تدين لنبوة ولا تؤمن بكتاب وتعامل الرقيق على ضوء من مصالحها ، وبوحى من فلسفتها ونظرياتها المنحرفة . وانتقلنا الى اليهود وهم ـ كما تعلم ـ شعب كثرت فيه النبوات . وترددت فى جنباته الوصايا الدينية وتراتيل الكتب المقدسة ، نجدهم منحرفين كغيرهم فى معاملة الرقيق انحرافا شديدا ، بل ان انحرافهم يعتبر أشد وأفظع لانهم أهل كتاب . فلقد كان اليهود اذا انتصروا فى حرب ، واستولوا على مدينة ضربوا الرق

على أهلها جميعا رجالا ونساء وأطفالا .. وكانوا يبيحون الخطف والقرصنة واللصوصية لتزويدهم بالرقيق ، وكانوا يستبيحون استرقاق الاسرة التى تلجئها الفاقة والعوز للاسترقاق . وكانوا يسترقون المدين الذى يعجز عن الوفاء بدينه بل يستبيحون بيعه وبيع ابنائه وبناته وزوجاته لتسديد ديونه ، وكانوا يستغلون رقيقهم استغلالا دنيئا فيدفعون فتياتهم الى البغاء للاستحواذ على أجورهن . ولا شك أن شرائع بنى اسرائيل السماوية تنزهت عن الامر بهذه المنكرات . وانما هم انحرفوا عنها وتعدوا حدودها وحرفوا نصوصها بما يتلاءم مع أهوائهم وشهواتهم . ثم هم بعد ذلك كله مايزوا بين الرقيق فاختصوا من كان من اليهود بميزات لا ينالها الرقيق من غير اليهود وتواصوا بذلك . وقد جاءت فى أسفار علمائهم واحبارهم نصوص توجب هذا التمايز وتفرضه ، من ذلك ما جاء فى سفر الخروج الاصحاح الحادى والعشرين : (اذا اشتريت عبدا عبرانيا فست سنين يخدم ، وفى السابعة يخرج حرا مجانا ، ان دخل وحده فوحده يخرج ، وان كان بعل امرأة فتخرج امرأته معه وان أعطاه سيده امرأة وولدت له بنين وبنات فالمرأة وأولادها يكونون لسيده ويخرج هو وحده ، ولكن اذا قال العبد أحب سيدى وامرأتى وأولادى ، ولا أخرج حرا يقدمه سيده الى باب المدينة ويثقب أذنه بالمثقب فيخدمه الى الابد) .

هذا شأنهم مع الرقيق من اليهود . أما الرقيق من غير اليهود، فلهم شأن غير هذا، وقد جاء فى سفر التثنية فى الاصحاح العشرين: « أمر الرب أن كل محاربة اذا انتصر عليها اليهود يكون جميع اهلها من رجال ونساء وأطفال عبيدا لهم يسخرونهم الى الابد . بدون شرط ولا قيد » وجاء فى الاصحاح التاسع : « ان الله حتم العبودية على أولاد كنعان بن حام » . هذه نظرتهم الى الرقيق من غير اليهود وتلك آراؤهم فيهم (١) .

---

(١) اننى أنزه دين اليهودية من أن يأمر بهذا واعتقد ان هذه الاقاويل موضوعة وملصقة باليهودية الصحيحة وأنا كمسلم لا يتم ايمانى الا اذا آمنت بالكتب المنزلة ولا أعتقد أن الله يأمر بذلك فان الله رحيم وهو مصدر جميع الاديان السماوية

أما معاملتهم للرقيق فلا شيء فيها من قسوة الهنود والرومان واليونان . ولعل قوانين المعاملة التي تقتبس كثيرا مما جاء في التوراة لطفت من غلوائهم فمن ذلك أنهم كانوا يمنحون الرقيق زمنا يستريحون فيه من عناء الاعمال يتراوح بين ستة وسبعة أسابيع ، وليس للسيد أن يضرب عبده ضربا مبرحا فان هو فعل عوقب واذا بتر السيد لعبده عضوا أو كسر له عظما او سنا عوقب على فعله عقابا شديدا وليس للسيد أن يقتص من عنده اذا فعل ما يوجب القصاص الا بعد حكم قضائي . وكانوا يزوجون العبد ابنة سيده ان لم يكن له ذكر يخلفه . ذلك شأن الرق عند اليهود .

الرق عند النصارى :

فاذا تركنا اليهود وذهبنا الى النصارى وجدنا أتباع المسيح أبعد ما يكونون عن الرحمة والتسامح اللذين أوصى بهما المسيح عليه السلام . والدين المسيحي لم يشرع شيئا فيما يختص بالرقيق ولا فيما يختص بغيرهم لأنه لم يكن دين تشريع وانما هو دين تهذيب وحب وتسامح. ولكنا نرى مواعظ القسس والرهبان والباباوات ، ليس فيها غير حض العبيد على طاعة أسيادهم وترغيبهم في ذلك باصرار واستمرار . فهذا القديس بولس يوصى الرقيق بأن يطيعوا مواليهم مع الخوف والرعب«منهم كما يطيعون المسيح عليه السلام ، وعليهم أن يعتبروا سادتهم اهلا لكل تشريف وتبجيل ، وأن يبالغوا في خدمتهم اذا كانوا من اتباع المسيح » ولكن لا نجد وصية واحدة تحض السادة على تحرير رقيقهم .

واما مفكرو النصارى ومشرعوهم فانهم قد اقروا الرق . جاء في كتاب « الاسترقاق عند الأمم النصرانية » لمؤلفه باتريس لاروك « ان الديانة المسيحية لم تحرم الاسترقاق نصا ، ولم تلغه عملا » وهذا صحيح لانه كما قلنا ان الدين المسيحي لم يكن دين تشريع وانما هو دين تهذيب ورحمة وتسامح . فاتخذ باتريس لاروك من ذلك حجة لاقرار الرق مع أن روح المحبة والتسامح يقضي بغير ذلك ـ وجاء في كتاب (في تعاليم الديانة المسيحية) لغوردنييه « ان الاسترقاق من النظم المسيحية المشروعة » وهذا القول يناقض ما قاله باتريس لاروك الذي تقدم قوله (ان الديانة

المسيحية لم تحرم الاسترقاق نصا ولم تلغه عملا) ولم يذكر لنا دنيه نصا من الانجيل يؤيد قوله بمشروعية الرق فى الدين المسيحى . الا اذا أراد بسكوت الدين المسيحى عن الرقيق اقرارا بمشروعيته مع أن روح المسيحية وسماحتها تقتضيان غير ذلك .

وقد اقرت الكنائس الثلاث الكاثوليكية واليونانية والبروتستانية الرق ونصحت الرقيق بأن يرضى بما هو فيه وتواطأ رجال الكنائس مع رجال الحكم والقانون على اقرار الرق. ومن الغريب ان تقر المجتمعات المتدينة الرق مع أن جميع الديانات السماوية تحرم السرقة والعدوان وتفرض العقوبات الرادعة على المعتدين وهى تعلم فى الوقت نفسه أن من أهم منابع الرق اللصوصية والقرصنة والعدوان والخطف (١) . وان تعجب فاعجب للمتدينين الذين يشددون عقوبة سارق المتاع والأثاث والمال والماشية . ولا يعاقبون سارق الانسان .. ابلغ الهوان ان يكون الانسان اقل قيمة من المتاع والأثاث ؟!!

ومن المؤسف المضنى لذوى القلوب والضمائر ان يكون فى المجتمعات الاسلامية اناس يصنعون ما كان يصنع اليهود والنصارى منذ القدم . فيشددون العقوبة على سارق الأثاث والمتاع ولا يعاقبون سارق الانسان .. بل هم يشتركون فى هذه السرقة ، ويشجعون عليها . ويتهافتون على شراء المسروقين من الآدميين .

الرق عند العرب :

اما الرق عند عرب الجزيرة فكان شأنه شأن الرقيق فى سائر الامم .. اقرار له وعدم انكار لمنابعه . فكانت الغارات التى يشنونها على بعضهم تزودهم بالأسرى والسبايا ، وكان الخطف والقرصنة واللصوصية والاعتداء على قوافل التجار من الموارد التى تزودهم بالرقيق . وكان الرقيق لديهم من جميع الألوان والأجناس . وكانت النعرة الجاهلية تجعلهم يحتقرون الأجناس غير العربية ، ولعل ذلك من الأسباب التى تجعلهم يشتدون ويقسون فى معاملة الرقيق من غير العرب .

---

(١) انى انزه الدين المسيحى من أن يسمح باسترقاق الآدميين .

وكانوا يتركون الارقاء للاعمال الشاقة ، من زراعة وحرث وحصاد ورعى ماشية . وكان العربى يانف من مزاولة الحرف الصناعية لذلك فهم يتركون مزاولتها لمواليهم ، وكانوا يستغلونهم شر استغلال ، فالى جانب استغلالهم للحرف التى يزاولها الارقاء كان بعضهم يدفع بفتياته للبغاء للاستحواذ على الارباح • واذا غضب السادة على عبيدهم عاقبوهم باشد انواع العقوبات دون اى وادع من ضمير او قانون . ويتحكمون فيهم كما يتحكم الانسان فى ماشيته واثاثه . وكان السيد يستنكف بنوة ابنه من امته فيلحقه برقيقه . ولكنهم كانوا لا يبيعون ابناءهم اذا اصابتهم مخمصة او نزل بهم املاق أنفة ، بل كانوا يفضلون قتلهم على أن يدخلوهم فى نطاق الرقيق •

***

هذا شان الرق والرقيق فى العالم باسره . فمن ابتلى بالرق اصبح مسلوب الحرية مهدور الانسانية غير معترف بآدميته بله حقوقه ، ولم تصنع البشرية شيئا لهذا النظام الجائر .. واذا كانت المجتمعات المختلفة فى معاملتها للرقيق تصيبنا بفجيعة فى ضمير الانسانية فان الافجع من ذلك ما نراه من الفلاسفة والمفكرين ورجال القانون الذين هم منارات الامم والشعوب من مواطاتهم لمجتمعاتهم والانحراف بفلسفاتهم الى تبرير هذا النظام البغيض والسكوت على القسوة والوحشية والصرامة التى يعامل بها الرقيق وعدم استنكارهم لموارده او التعرض لبحث الاسباب التى تقذف بفئات كثيرة الى محرقة الرق • واذا كان التفسير المادى للتاريخ يؤكد ان نظام الاقتصاد يعين المذهب الفكرى . أو ان النظام الاقتصادى يسخر الافكار والشرائع لخدمته . فانذلك يؤكد لنا ان الانسانية عاجزة عن التخلص من أوضار طينتها مالم تلمسها قبسة من روح الله تضىء لها الطريق . وأن العالم فى حاجة ملحة الى نفحة من السماء يشرق بها وجه الحياة .

قبسة من السماء :

وها هى قبسة من روح الله تشرق فى الارض متمثلة فى القرآن الكريم وآياته الخالدة التى تهدى للتى هى اقوم . تتنزل

تباعا على من ارسله الله رحمة للعالمين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . لقد نزل القرآن الكريم وهو خاتمة الكتب السماوية لحل جميع المشاكل الانسانية . ولهداية الناس الى الصراط المستقيم الذى ان ساروا عليه حققوا لأنفسهم الحياة الجميلة الفاضلة ، وقد وجه عنايته الى أم المشاكل وهى الشرك بالله ، ليتفرد البارىء بالعبادة فلا يشرك الناس معه الها آخر حجرا كان او بشرا . فليس فى الأرض آلهة تعبد وليس فى البشر ابناء للاله الواحد الأحد ، فانه لم يلد ابناء ولا بنات والذين يسومون الناس الخسف والعسف ويستحوذون على الأرزاق ويستبدون بغيرهم من امثالهم بدعوى انهم ابناء الاله يفترون على الله وليس لله سدنة ولا كهنة يحجبون رحمة الله عن خلقه الا اذا كانت عن طريقهم ، فيسوغون لانفسهم بذلك اكل اموال الناس بالباطل . ويقذفون من يمتنع عليهم الى جهنم التى صنعوها بالبغى والعدوان فى هذه الحياة الدنيا ويدعونه فريسة فيها للفقر والحرمان والعبودية والشقاء .

وبعد ان دك القرآن هذه الأسوار العاتية التى كانت تحجب أنوار السماء عن اهل الأرض ، ودمر الحواجز المصطنعة التى كانت تقف عائقا عن اتصال المخلوق بخالقه بدون وسيط ولا حاجب ولا سادن ولا كاهن حيث يقول الله تعالى : « واذا سالك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعانى فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى » واستجابتنا لله هى التحرر الاول الذى يحرر عقولنا وأرواحنا وافكارنا من الاغلال التى كانت ترسف فيها ، فلا خوف من أحد الا من الله ، وليس للناس على الناس سلطان الا فيما يرضى الله ، وقد ورد عن النبى أنه قال : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » وتلك هى الاستجابة لله لانه ما لم تتحرر عقولنا وأرواحنا من التراث السخيف الذى ورثناه عن عصور الظلمة لا نستطيع رؤية النور الذى يجعلنا دعاة للحرية وانصارا لها .

بعد هذا اخذ القرآن يصعد بنا الى معارج الكمال . وللقرآن اسلوب حكيم فى التدرج بالانسانية من مرحلة فاضلة الى مرحلة افضل . فهو لا يسير بها سيرا مرهقا فى مراقى الكمال ولكنه

يسير بها الهوينى حتى تصل الى المراتب العليا فى الكمال الانسانى دون ان يدركها وصب أو ونى ، ودون أن تصدمها فيما الفت بما لم تألف دون تمهيد أو اعداد رحمة بها وحفظا لها من الانتكاس .

لذلك فان القرآن الكريم لم يحرم الاسترقاق ولم يحرم الرقيق الا بعد أن مهد الطريق لتحريمه وأعد نفوس السادة والأرقاء لمرحلة التحريم ، والتحرير . ونظر الى المشكلة من جذورها فتعقبها بحلوله الحكيمة وأسلوبه القويم ليكون قضاؤه على المشكلة قضاء مبرما لا رجعة لها من بعده .

***

وقد تبين لنا فى ثنايا ما سردناه من تاريخ الرق أن هناك منابع للرقيق وأسبابا تتفجر منها تلك المنابع ، أما المنابع فتتلخص فى :

اولا : الحروب العدوانية .
ثانيا : القرصنة واللصوصية والخطف .
ثالثا : الربا والميسر .
رابعا : توالد الرقيق .

وتتلخص اسباب تفجر هذه المنابع فى :

اولا : التمايز بالوانه . العنصرى ، والقبلى . والطبقى ، والدينى .

ثانيا : فساد النظام الاقتصادى .
ثالثا : انعدام روح الرحمة والتعاطف بين الناس .

فكيف عالج القرآن ذلك ؟؟ هذا ما سنراه فى الفصول الآتية :

المساواة فى خلق الانسانية :

ان المتدبر فى آيات الله يرى ان الروح التى تنتظم القرآن من أوله الى آخره روح خيرة رشيدة تدعو الى العلم والعمل

والحرية والمساواة والعدل ، والرحمة ، والهدى ، والحق ، والاحسان ، والايثار والانفاق . الى غير ذلك من الفضائل الانسانية . وتنهى عن الظلم والقسوة والضلال والجهل والأثرة والشح والبغى والطغيان والتمايز والتعالى والتطاول وغير ذلك من المساوىء ، وتقتضى الدعوة الى كل هذه الفضائل ، أن تكون التشريعات التى تصدر عنها متمشية مع هذه الروح العالية الجميلة ، والا كانت مناقضة لنفسها مخالفة لمبادئها الأولية فيها. والمساواة فى خلق الانسانية ، واضحة فى القرآن . يقول الله تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء . واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا » والأرحام هى وشائج القربى بين الناس ، والاقرباء يتراحمون ويتعاطفون ويشدون ازر بعض . وهذا ما يأمر الله به الناس لأن كل الناس من رحم واحدة ومن أصل واحد . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلكم لآدم وآدم من تراب » فليس هناك أناس مخلوقون للسيادة وأناس مخلوقون للطاعة والخضوع كما يقول أرسطو وليس هناك فريق من الناس خلق من الذهب والفضة وآخرون خلقوا من الحديد والنحاس . كما يقول أفلاطون . وليس هناك اناس خلقوا من فم الرب وآخرون من قدمه . كما يقول منو . وليس هناك أناس خلقوا للسيادة وآخرون حتمت عليهم العبودية كما يزعم اليهود ، والنصارى ، فكل الناس خلقوا من نفس واحدة وكلهم أقرباء بعض . ووشائج الرحم بينهم قوية أصيلة .

وقد قضت هذه الآية الكريمة على كل الخرافات والمزاعم التى كانت قائمة فى الأذهان وعلى كل الفلسفات المنحرفة التى كانت سائدة فى المجتمعات والتى كانت البؤرة التى تنبع منها التعصبات الطبقية والتمايز العنصرى ولا شك ان هذا هو أقوم منطق تخاطب به العقول والأفكار لأنه منطق الحقيقة ، والقرآن دائما يهدى النفوس الى أقوم طريق كما يقول الله تعالى : « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » .

تكريم الانسان :

والله الذى خلق البشر من طينة واحدة لم يخلقهم لاهانتهم، ولامتهان فريق وتكريم فريق آخر ، بل كرمهم وفضلهم جميعا ، فلم يختص بتكريمه وتفضيله امة على امة ، ولا عنصرا على عنصر، ولا عربيا على أعجمى ، ولا اسود على ابيض بل شملهم جميعا بالتفضيل والتكريم فقال تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

والى جانب التفضيل والتكريم اللذين منحهما الله للجميع، منح الرزق الطيب للجميع ايضا ، فليس لأى انسان ان يحتكر شيئا من ذلك لنفسه او لأسرته او لعنصره دون غيره من الناس ، والا عد ذلك بغيا منه على اخوانه واجتراء كبيرا على خالقه ، وكما أوضحت لنا الآية السالفة الحقيقة فى خلق الآدميين لننظر الى بعضنا بعين التساوى لأننا مخلوقون من نفس واحدة . فقد وضعت لنا هذه الآية مبدا كريما يجب الا نغفله فى صلاتنا ببعض، لأن تكريم الله لنا يشملنا جميعا على السواء . فكل ابن آدم كريم عندالله . وليس من حقنا أن نعتبر اى انسان شيئا لا شخصا عندما نجلس مجالس التشريع والتقنين ــ كما كان يفعل الرومان مثلا فى اعتبارهم الرقيق شيئا لا شخصا امام القانون . وكذلك ليس لنا أن نحظر على أى انسان طلب الرزق الطيب أو نقفل ابواب الرزق فى وجهه ، فان الرزق للجميع . وكل الناس فى طلبه سواء . لا كما يقول « منو » فى حظره طلب الرزق على طبقة الشودرا ــ الرقيق حينما يقول : (ان الشودرى اذا جمع مالا فانه يؤذى البراهمة بقحته)

المعايير الصحيحة للتمايز بين الناس :

لقد قرر القرآن الكريم ان الناس متساوون فى أصل الخلقة فكلهم من نفس واحدة ، وعلى هذا فكل الناس لديهم ملكة الفهم والتمييز وليس هم كما يقول ارسطو : ان بعض الناس آلات حية لا فهم ولا تمييز لديها . ولكن اذا كانت المجتمعات تأبى الا

ان يكون بينها الكريم والاكرم . فان القرآن يبقى للناس عرفهم الذى ألفوه ولكنه يلغى المعايير الفاسدة التى كانوا يزنون بها بعضهم فيقول الله تعالى : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » . فليس الاكرم عند الله صاحب السلطان ولا المقرب عند السلطان وليس الأكرم الأغنى مالا ولا الأعز نفرا انما الاكرم عند الله الأتقى . فعلى من يريد أن يكون اكرم من غيره فليتق الله فان التقوى هى المعيار الصحيح الذى يتمايز به الناس . فالتقى يرعى الله فى حقوق عباده فلا يظلمهم ولا يعدل عن الحق فى قوله وعمله ولا يؤثر نفسه على من سواه . ولذلك يقول الرسول الكريم: (لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى) فالأتقى أولى بأن يكون اكرم من غيره لانه أنفع للناس من غيره ، فلا ميزة فى القرآن للون على لون ولا لجنس على جنس ، ولا لغنى على فقير ، ولا لحاكم على محكوم الا بالتقوى .

واذا كان للناس صفات اخرى لا حيلة لهم فيها تجعلهم يتمايزون فيما بينهم بموجبها كالذكاء والغباء والكسل والنشاط والعى واللسن ويتمايزون نتيجة لذلك ضعة ورفعة وغنى وفقرا وعلما وجهلا . فان القرآن لا ينكر ذلك وموقفه واضح من هذه الاعتبارات . فيقول تعالى : (قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور) ويقول تعالى : (أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم) لا يستوى عند الله الاعمى والبصير ولا يستوى عند الله المهتدى والضال . وكذلك لا يستوون عند الناس ولذلك يقول الله تعالى : (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون) .

ويقول الله تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) ويقول : (نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم) ويقول (والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق) ففى هذه الآيات وأشباهها اعتراف بالمواهب الانسانية . لأن الله الذى وهبها لأصحابها لا يمكن أن يجحدها . فهو وهبها لهم ، وجعل اصحابها محل اختباره ليرى اى طريق يسلكون بها ، ولذلك قال

الله تعالى : (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ان ربك سريع العقاب ، وانه لغفور رحيم) .

فمن وهبها قادر على سلبها وهو سريع العقاب . فليس لمن وهبه الله شيئا من قوة نال بها حكما او مالا ، او علما ، او جاها، او نفوذا ان يحتقر الغير ، او يظلمه ، او يؤذيه ، او يستبد به ، أو يعتدى عليه ، أو ينحرف عن طريق الصلاح ، فليس معنى هذه الآيات أن تحتكر مصادر الثروات لفريق من الناس أو تحتكر الوظائف الكبرى فى الدولة لأسرة او لعشيرة او لقبيلة أو لأبناء طائفة أو اقليم دون غيرهم او تحتكر الفرص فيتاح للوصوليين والانتهازيين ويترك من عداهم فلا يجدون الفرصة متاحة لهم كما يحلو للبعض تفسيرها بذلك واتهام الناقمين على الاوضاع الفاسدة بالحسد وبشتى التهم الملفقة - كلا فان ذلك ظلم - ولذلك يقول الله تعالى : (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) .

ولن يستوى عند الله الغنى الخير والغنى الشرير ولا الحاكم العادل والحاكم الظالم . ولا العالم الذى يعمل لخير الانسانية بالعالم الذى يعمل لايقاع الناس فى الشرور . ولا يتساوى المنافقون بالمخلصين . يقول الله تعالى (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين) .

فالمسجد الحرام الذى هو قبلة المسلمين كافة وهو أول بيت وضع للناس وعمارته واجبة على المؤمنين جميعا ، وسقاية الحاج الذين هم ضيوف الله وزوار بيته من اعظم العبادات عند الله ومع ذلك فان هذه الأعمال اذا صدرت من كافر أو من ظالم يأكل أموال الناس بالباطل ويهدر دماء الابرياء ؛ ويسوم الناس الخسف والعسف ، ويقيم الحدود على الضعفاء ويعفى الأقوياء منها ، ولا يصغى الى دعوة الحق ، ويحقد على المصلحين ولا يصغى الى ارشادهم ، ولا يفىء الى الله فى أمر من أموره ، ويؤله نفسه حتى لكأنه شريك لله فى ذاته وصفاته فيفرض على الناس أن

يدعوه بما يدعون به الله . ان هذا وأمثاله لا تغنيهم عمارتهم للمسجد الحرام وسقاية الحاج . لأن الله لا يهدى الظالمين وهو يحبط عمل الطغاة الباغين (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على انفسهم بالكفر اولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى اولئك أن يكونوا من المهتدين) فعمارة المساجد تكون حسنة اذا كانت ممن يؤمن بالله واليوم الآخر ويقيم الصلاة لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، ويؤتى الزكاة ولا يمنعها عن اصحابها ولم يخش الا الله . وخشية الله لا تتحقق الا فى رعاية حقوق الناس والحفاظ عليها . فالحاكم الذى لا يرعى العدل فى الأحكام ولا يتحرى العدالة فى الأموال لا يخشى الله وان صلى وصام والغنى الذى لا يؤدى الزكاة وما عليه من تبعات الثروة لا يخشى الله ولا تنفعه صلاته ولا صيامه . والعالم الذى لا يقول الحق ولا يقف علمه لمصلحة الناس لا يخشى الله وان تقوس ظهره من الركوع والسجود .. فالخشية من الله لا تتمثل بأجلى ما تتمثل به الا فيما يصدر من الانسان حيال معاملته لغيره من الناس . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الدين المعاملة) .

لقد كان من الضرورى لمصلحة الانسانية ونفعها اتجاه القرآن الى تصحيح المفاهيم واصلاح المعايير البشرية التى توزن بها اقدار الناس . ليكون تحرير الرقيق نابعا من قلوب المؤمنين وما قيمة تحرير الرقيق بفرض القوانين . وهل تصلح القوانين المفروضة المفاهيم المعوجة والاوضاع الفاسدة التى كانت قائمة . وكيف تم الغاء الرق من اساسه وينابيعه ما زالت غزيرة متفجرة واسباب تفجرها ما زالت قائمة كرءوس الشياطين ، فى كل ذلك مضافا اليه النظام الاقتصادى السائد فى المجتمعات البشرية على اختلافها ، وما زال هذا النظام الفاسد يرتكز على الرقيق ارتكازا شديدا وعميقا فالغاؤه يحدث هزة عنيفة ثم لا تأتى بالنتائج المنشودة .

وهناك غير هذا أسباب سيكولوجية جديرة بالعناية عند

اتخاذ هـذه الخطوة .. خطوة تحرير الرقيق وابطال الرق . وقـد علمنا الله التدرج فى معالجة المشـاكل بما أرانا من أسلوبه الحكيم فى قرآنه عند معالجة مشـاكلنا وعلينا أن نتـدبر آياته ونستشف الروح الذى ينتظم القرآن فى كل تشريعاته .

فآياته لا تتناكر ولا تتجزا وانما هى موحدة فى اهدافهاتعنى بالروح وبالجسد وبالتفكير وبالسلوك . ليقوم عليها نظام متكامل منسجم لا تتنافر فيه اوجه النشـاط الانسـانى . ولا تختلف اتجاهاتها فى السر وفى العلن وقد نهانا الله أن نكون كبنى اسرائيل نؤمن ببعض الكتاب ونكفر بالبعض الاخر ..

ومشكلة الرقيق مشكلة تتصل بمشـاكل كثيرة . ولم تنشأ الا عن الفساد والانحراف اللذين شملا التفكير والمسلك . فلذلك كان اصلاح ما فسد من كل ذلك أمرا محتما . وكان من المحتم ايضا علينا فى هذا البحث أن نلم بكل ذلك ؛ لاعطاء صورة واضحة كأتم ما يكون الوضوح لازالة الفرية المفتراة على القرآن فى اتهامه بضرب الرق على افراد او جماعات او أجناس .

وبعد أن أبنا تصحيح القرآن للافهام واقامة المعايير الصحيحة لوزن اقدار النـاس وتمـايزهم وتطهير البؤرة التى تنبع منها المفاسد الاجتماعية . بما سردناه من الآيات الخاصة بذلك علينا سرد الآيات التى أراد منهـا القرآن الـكريم اشـاعة روح الرحمـة والتعاطف بين الناس ، لان هـذا الروح الـكريم كان منعدما ، وانعدامه طبع المجتمعات بطابع القسـوة التى تسبب فى كثير من المآسى والموبقات . وهل أقسى من ان تبيح المجتمعات للدائن اذا عجز المـدين عن الوفاء بدينه استرقاقه واسترقاق آله وذويه او بيعه وبيع أبنـائه وبناته وزوجاته كما تبـاع الماشية ؟ لو أن روح الرحمة والتعاطف شائع بين النـــاس اكان يحدث هذا العمل الوحشى تحت حماية السلطان واقرار القانون ، ورضاء المجتمع؟

احياء روح الرحمة والتعاطف بين الناس :

حب الانسان للمـال وتكالبه على جمعه ثم حرصـه عليه وشـحه به أدى الى كثير من الفجـائع ، وطبع المجتمعـات بطابع

القسوة والغلظة . لان حب المال اذا تمكن من انسان سلبه معانى الانسانية والرجولة . فكثيرا ما رأينا عباد المال لا يعرفون للرجولة معنى . فيفرطون حتى فى اعراضهم لان القيم الانسانية حينذاك تذوب فى نفوسهم . ولا يبقى قائما أمام أعينهم الا قيمة المال . فهم لا يبالون ما يرتكبون فى سبيل الحصول عليه . يطففون فى الكيل ، وينقصون فى الميزان . ويغشون ويخدعون ويبخسون الناس أشياءهم ، ويغدرون بالعهد ، ولا يعرفون للصداقة معنى، الا اذا كانوا يتقاضون ثمنها ، ويفرطون فى الاعراض ولا يحفلون بمروءة ، أو نجدة ، أو اغاثة ملهوف ، ويسرقون ويختلسون ويقتلون ، ويرتشون ، ويرابون ، ويقامرون ، ويقسون على من يعولون فيبخلون على انفسهم وأولادهم وآبائهم وامهاتهم وزوجاتهم ويقفلون قلوبهم ، ويصمون آذانهم ، ويعمون عيونهم ، فلا يفقهون الا لغة المال ولا يسمعون الا رنين المال ، ولا ينظرون الا الى وهج المال وبريقه . ويسخرون بكل شيء الا بالمال وصاحب المال. وقد توعد الله من كانت هذه حالهم بقوله تعالى : « ويل لكل همزة لمزة الذى جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلده كلا لينبذن فى الحطمة وما ادراك ما الحطمة نار الله الموقدة التى تطلع على الافئدة انها عليهم مؤصدة فى عمد ممدة » وقوله : « فأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وما يغنى عنه ماله اذا تردى » وقوله : « ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون الا يظن اولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين كلا ان كتاب الفجار لفى سجين وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين وما يكذب به الا كل معتد اثيم اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون كلا أنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم انهم لصالوا الجحيم ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون » .

وعيد شديد للذين ران على قلوبهم حب المال حتى كفروا بالله ، وبالبعث وبرسالة الرسول . وقالوا ان هذا الا أساطير الاولين . لقد حجبهم ظلام المال عن الحقيقة فضلوا الطريق ، وحادوا عن الجادة وهؤلاء أحط الناس واقذرهم لانهم باعوا كل

شيء بالمال . وارتكبوا كل منكر لاكتسابه حتى الكفر بالله وبالبعث وبالنشور وبالحساب فى اليوم الآخر .

وفريق آخر من الناس يجمعون المال ويشتدون فى طلبه وجمعه ، ثم يشتدون فى الشح والحرص عليه الا لنزوة من نزوات نفوسهم المظلمة ، فهم يبذلون المال لطلب الشهرة الزائفة والمجد الرخيص ويسخون به فى هذا السبيل ، ولكنهم يبخلون به أشد البخل اذا طلب منهم الانفاق فى سبيل الخير ومساعدة المحتاجين . وقد سمى الله هذه النزعة عقبة وحضهم على اقتحامها فقال تعالى « لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد ، ووالد وماولد ، لقد خلقنا الانسان فى كبد أيحسب أن لن يقدر عليه احد . يقول أهلكت مالا لبدا . أيحسب أن لم يره أحد الم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين . فلا اقتحم العقبة ومأادراك ما العقبة فك رقبة أو اطعام فى يوم ذى مسبغة ، يتيما ذا مقربة او مسكينا ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة اولئك اصحاب الميمنة ، والذين كفروا بآياتنا هم اصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة » .

فالذين ينفقون المال المتلبد الكثير فى سبيل الشهرة والمجد الرخيص لا ينفعهم انفاقهم . لان هذا المال لا يصل الا الى ايدى الانتهازيين والوصوليين والمنافقين والمتملقين ، وهؤلاء لا يتواصون بالمرحمة ولا ينفقون المال فى سبيل الله ولكنهم ينفقونه فى سبيل الشيطان .. أما الذين ينفقون الاموال لليتامى وللمساكين وللجياع ولفك الارقاء من ذل الرق اولئك هم اصحاب الميمنة ، لانهم يتواصون باعمالهم واقوالهم بالرحمة بين الناس . وذلك ما يريده الله ويرضاه . والآيات التى تهدف الى شيوع الرحمة والتعاطف والاحسان كثيرة فى القرآن منها قوله تعالى : « وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كماربيانى صغيرا » .

فالاحسان بالوالدين يأتى فى المرتبة الاولى لانهم أحق بعطف

الابن واحسانه من غيرهما بل ان ذلك فرض انسانى محتم على كل ابن لأبويه .

واذا وسع مال الابن ابويه احسانا وفاض فلمن عداهما من الناس الأقرب فالأقرب يؤيد ذلك قوله تعالى « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا » فالله تعالى يامر بالاحسان الى كل الناس فهو يذكر الاقرب فالاقرب حتى اذا انتهى منهم امر بالاحسان الى ابن السبيل والارقاء . على أن يكون المحسن فى احسانه الى كل أولئك متواضعا مهذبا . لا مختالا ولا مفتخرا لان الله لا يحب من كان الاختيال والافتخار من خصاله .. يقول الله تعالى : « لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة ، أو معروف أو اصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه اجرا عظيما » ويقول : « ومن أحسن دينا ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا » . فالخير كل الخير عند من يامرون بالصدقة على الفقراء ، والمعروف للناس اغنياء كانوا أو فقراء والاصلاح بين الناس على ان يكون ذلك لا لشهرة ولا لجاه ولا لنوال نزوة أو شهوة وانما هو لوجه الله يعمل الخير للخير ولا شىء الا الخير . وليس احسن دينا ممن يسلم وجهه لله ويحسن للناس . ويبشر الله بهذه البشرى الذين يؤمنون به وبرسله ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويقرضون الناس قرضا حسنا ويعدهم كانما هم يقرضونه تعالى فيقول جل جلاله : « وقال الله انى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ، وآمنتم برسلى وعزرتموهم واقرضتم الله قرضا حسنا لاكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الانهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل » .

وانها لبشرى تهش لها قلوب المؤمنين بالله واى مؤمن لايطير فرحا اذا كان الله معه فى هذه الدنيا يحفظه ويرعاه ويكلؤه . ثم يدخله جنات تجرى من تحتها الانهار ، وما ثمن كل ذلك ؟ ايمان بالله برسله وتعزيز لهم واقامة الصلوات واداء الزكاة لأصحابها .

واقراض المحتاجين قرضا حسنا لا يبتغى بذلك ربحا ولا مغنما الا ما وعده الله من الربح والمغنم اللذين هما عون الله له فى الدنيا وادخاله الجنة فى الآخرة .

ويحث الله على الاحسان بشتى أنواعه فان كان لديك ما تعطيه للسائل والمحروم والفقير فبها ، وان لم يكن لديك شيء فالكلمة الحسنة ، والمخالقة الحسنة يعدها الله احسانا ويثبت فاعلها . وينهى جل جلاله عن الاساءة لأحد فيقول جل وعلا : « فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث » وأما من بلغوا المراتب العليا فى توقى الشح والايثار بالموجود ولو كان بهم خصاصة فأولئك هم المفلحون يقول الله تعالى : « والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

ويزف الله البشرى لمن يجاهد بماله ونفسه فى سبيل الله بأسلوب مشوق فيقول : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم » ذلك أكبر فوز وأعظمه عند المؤمنين ولكن الله يقول لهم : « وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين » .

فالجهاد بالنفس والمال فى سبيل الله ، واطعام الطعام ، ودفع المجاعة عن الناس ، وفك الرقاب ، والاحسان الى الوالدين والأقرباء والاصحاب ، والقرض الحسن ، والتواصى بالمرحمة كل ذلك يحبه الله ويحث عليه . أما البخل والشح والاختيال والافتخار ، وانفاق المال فى سبيل الشهرة والمجد الكاذبين فذلك مما يكرهه الله . تلك هى دعوة القرآن الى التعاطف واشاعة روح الرحمة حتى تزول أشباح الخوف والذل التى تهدد المجتمعات وتهدد آدمية الآدميين . والقرآن الكريم مشحون بدعوة الناس الى البر بعضهم والشفقة على بعضهم . ومن روح الآيات الكريمة الداعية

الى الرحمة قول رسول الرحمة : « ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء . والراحمون يرحمهم الرحمن » .

فاستشعار روح الرحمة يجعل الانسان لا يتكالب على جمع المال ، ولا يتدنى في سبيل الحصول عليه ، كما أنه لا يضن به على المحتاجين . اليس كل ذلك اعدادا للنفوس حتى تفعل الخير ، وتتجه الى طريقه وتنتهى عن فعل الشر ولا تسلك سبيله ؟

ان من يستشعر الايمان يستشعر هذه المعانى الجليلة والقيم العالية في نفسه فلا يقسو على عبد ، ولا يبخل على فقير ، ولا ينهر سائلا ، ولا يقهر يتيما . وبذلك تزول المباينة التي يحس بها الأرقاء وترتفع معنوياتهم فيتنسمون نسيم الراحة من الكابوس الخانق الذى كان يكبس على انفاسهم اجيالا طويلة . وتهيأ انفسهم للمرحلة التى تنتظرهم مرحلة التحررمن الرق ، والتحاقهم بطبقة الاحرار . كما تطمئن نفوس الفقراء فيزول من اذهانهم شبح الخوف الذى كان يهددهم دائما بالرق والذل والهوان ، لأنهم يحسون بأن الحياة التى يحيونها بعد نزول القرآن تختلف عن حياة الجاهلية ، فلقد كانوا يعيشون في مجتمع لا يعرف الرحمة ولا يعرف شيئا اسمه القيم الروحية . مجتمع قاس غليظ . لكنهم الآن يعيشون في مجتمع رحيم كريم لا يبخل ولا يقسو ولكنه ينفق ويبذل ويتصدق ويحسن والناس فيه متعاطفون متعاونون يرحمون الفقير ويطعمون الجائع ولا ينهرون السائل ولا يبتغون على ما ينفقون أجرا ولا ربحا ولا عوضا وانما هم يريدون الأجر من الله .

مجرد الاحساس بهذه المعانى هو انقاذ كبير للنفوس المعذبة باحساسها المخيف المزعج الذى كان مهيمنا عليها من قبل .

وانها لدعوة كريمة من القرآن الكريم . وهو يحث على الخير تارة بالترهيب وتارة أخرى بالترغيب . ولم نجد مثل هذه الدعوة في فلسفة من الفلسفات التى كانت سائدة قبل القرآن في شتى اقطار الارض .

اصلاح الفساد الاقتصادى :

ان القرآن الكريم لم يقتصر على الدعوة الى البر بالفقراء والأرقاء واليتامى والمحتاجين بالترغيب فى ثواب الله تارة ، وبالترهيب من عقاب الله تارة أخرى مكتفيا بذلك تاركا الشئون الاقتصادية على ما كانت عليه من فساد واجحاف . ! بل وجه القرآن عنايته الى اصلاح النظام الاقتصادى الفاسد الذى كان قائما . ووضع للناس نظاما اقتصاديا عادلا والزم دولة المؤمنين بالقرآن بتنفيذه . والا اعتبرهم مارقين عن هدى القرآن تجب محاربتهم وانتزاع السلطان من أيديهم .

نظام الحكم فى القرآن :

ولذلك فالقرآن لا يحبذ النظام الملكى فلم يختر رسول الله حينما خيره الله بين ان يكون نبيا ملكا او نبيا عبدا لله كسائر الناس فاختار صلى الله عليه وسلم ان يكون نبيا عبدا لله كسائر الخلق وسار بسيرته الخلفاء الراشدون فلم يجنح أحد منهم الى النظام الملكى ٠ لان النظام الملكى - كما دلت التجارب الطويلة التى مرت بأجيال الأمم فى شتى الأقطار - نظام وراثى يدع السلطة بطبيعة الوراثة تتركز فى اسرة أو عشيرة . وبتركز السلطة تتركز القوة وأسبابها فى أيد قليلة . ويعود ذلك بالناس الى نظام الطبقات ، ونظام الطبقات يجر الى الاستبداد والاستغلال ، فالترف ، فالاستخفاف بالحقوق والواجبات وينشأ عن ذلك النظام الكهنوتى فى الدين اذ تنشأ طبقة من العلماء تفتى بحل كل مايضمن مصلحة السلطات ويفسد شئون الامة . ويرتاح الحكام لهؤلاء المدلسين فيضحكون على الجماهير ويتلاعبون بحقوقها مستندين الى الفتاوى المنحرفة . ويخترعون لهم وظائف دينية يسندونها اليهم ثم لا يؤخذ الا برايهم ويمعن هؤلاء وهؤلاء فى التضليل والتقرير فيلغى الدين ويحل محله آراء هؤلاء المتفيهقين فكلامهم يستحيل الى دين يجب أن يتبع ، وأشخاصهم تستحيل الى آلهة يجب ان تقدس . ويضاف الى الاسترقاق المادى الذى يحاربه القرآن الاسترقاق الروحى الذى لا يقره القرآن بوجه من الوجوه . ويؤدى ذلك حتما الى حقد الطبقات الفقيرة وتشيع روح العداوة

والبغضاء بين الحاكم والمحكوم . ويؤدى ذلك الى ضعف الدولة وتوثب اعدائها عليها . او يجر الى الحروب الاهلية اذ تنجم المذاهب الغريبة التى يتذرع بها المغلوبون على أمرهم فى ثوراتهم .

وقد اعتنقت أمتنا فى القديم شتى المذاهب وقامت عدة ثورات بعضها نجح وبعضها فشل ولكن الكارثة هى وحدها التى نجحت على طول الخط . فحل بنا الضعف والتأخر فى شتى الميادين وغزانا الصليبيون والتتار وهدموا مساجدنا ومعابدنا ، ودمروا حضارتنا واحرقوا مؤلفاتنا التى كانت تحوى علومنا ومعارفنا ثم وثب علينا الاستعمار التركى ثم الاستعمار الغربى . وأعطيت فلسطين لليهود وغير ذلك من المآسى التى حلت بنا . وبذلك تبين لنا فساد النظام الملكى الذى لم يؤد بنا الا الى هذه النتائج ، وتجلت لنا حكمة حبيبنا ورسولنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فى عدم اختيار الملك وتفضيل العبودية لله على صولجان الملك وتاجه . وكذلك تجلى لنا عمق التفكير ومنتهى الاخلاص للأمة اللذان امتاز بهما الخلفاء الراشدون فى عدم توريثهم الحكم من بعدهم لأبنائهم .

لقد ارتضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما امره الله به اذ قال له : « وشاورهم فى الامر » وارتضى أصحابه ان تكون الشورى هى السلطان المهيمن كما قال الله تعالى : « وامرهم شورى بينهم » اذ فى ظل الشورى لا تستطيع طبقة ولا حفنة من الرجال ولا حفنة من العائلات ان تستبد بالأمة وامورها واموالها وما منحها الله من خيرات الى الأبد واذا استبدت فما أسرع ازالتها . ونظام الخلافة قديما هو نظام الجمهورية حديثا . الا ما كان من تحديد مدة رئيس الجمهورية فى النظم الحديثة . اما الخليفة فان مدته لا تنتهى الا بموته ما استقام على تنفيذ ما امر الله به ورضاء الجماعة عن سيرته واحكامه ولكن تطور الزمن ادى الى تحديد المدة التى يحكم فيها رئيس الجمهورية وما دام ذلك للمصلحة العامة فان الاسلام لا يعارضه . لأن الرسول يقول : « ما يراه المؤمنون حسنا فهو عند الله حسن » .

وقد ذم الله النظام الملكى بقوله تعالى : « ان الملوك اذا دخلوا

قرية افسدوها وجعلوا اعزة أهلها اذلة وكذلك يفعلون » على مدى الأزمان .

وقال تعالى : « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » فالافساد واذلال الأعزة من لزوميات النظام الملكى ــ وكل الناس اعزة مكرمون ــ لأن الله يقول : « ولقد كرمنا بنى آدم » والمكرم عند الله عزيز عليه . فالظلم والغصب وغير ذلك مما فى هذا المعنى أسنده الله الى الملوك . وفى هــــذا كفاية لان تنتبه أذهاننا الى ما فى النظام الملكى من اضرار تحيق بالناس ، ومفاسد تحيط بهم .

وكذلك ذم الله المترفين وجعلهم اشارة لحلول غضب الله ونقمته قال تعالى : « واذا أردنا أن نهلك قــرية أمرنا مترفيهــا ففسقوا فيهــا فحق عليها القول فــدمرناها تدميرا » وفى بعض القراءات أمرنا بتشديد الميم فاذا ولى الامارة المترفون يفسقون فيحق على من امروا عليهم القول فيــدمرهم الله تدميرا . نعوذ بالله من سخطه وتدميره .

وهــل رأى الناس من ملوكهم الا الترف ! وترف المــلوك والامراء هو داعية الســخط ومجلبة النقمة لان ترفهم لم يكن الا من اجترائهم على حقوق الناس واســـتنفادهم لخـــزائن الدولة ومواردها . وماكنا لنعرض لنظام الحكم فى بحثنا هذا لولا انه شديد الصلة عميق الاثر فى التأثير على النظام الاقتصادى . ولايتسرب الخلل الى الاقتصـــــاد الا من قيام هذا النظــــام . فلذلك حذرنا القرآن الكريم منه . لان خلل النظام الاقتصادى هو الذى يوقع الناس فى الرق عن طريق الفقر والحرمان الناتجين من استبداد الملوك وأعوانهم .

***

لقد كان يسود المجتمعات نظم اقتصادية فاسدة تحميهــا نظم الحــكم الملكية او الشــبيهة بالملكية حيث يتوارث الســلطان الارستوقراطيون أو من كانوا يســـمونهم بالاشراف والنبلاء ــ وهم لم يكونوا شرفاء ولا نبلاء ــ بالمعنى الصحيح لهاتين الكلمتين وانما هى مجرد اسماء كانوا ينحلونها أنفسهم مثل لقب جلالة ، وباشا ،

وبك ، ومركيز ، وكونت ، ولورد ، وبرنس ، وامر وغير ذلك من الاسماء التى مسميات لها (١) .

وكان هؤلاء اقطاعيين يحتكرون الارزاق ومصادرها ويبسطون حمايتهم على أراض شاسعة ، ويستغلون حاجة الناس اليهـا والى ما فيها من خيرات ، ومن اهمها الماء والكلأ والملح والوقود فلا ينال انسان منها شيئا الا بالثمن الذى يفرضونه .

وكانت اغـارتهم على بعضهم البعض ـ ظلما وعـدوانا ـ ديدنهـم ، لانهـا من أهم مصـــادر الثروة لديهـم . ولم يكن ذلك مقصوراً على العـرب وحـدهم ، وانمـا كان يماثلهم فى ذلك كل الشعوب ، ويستولى الغالبون على اموال المغلوبين ، ويسترقون الرجال والنساء والاطفال ، ويعهدون اليهم بالأعمال فى شتى المهن اما الغـالبون ، فيعتبرون أنفسـهم السـادة المالكين . فينصرفون الى اللهو واللعب بالاموال والدماء والاعــراض . وتلك هى مهنــة الفارغين المترفين .

وكانوا يكتنزون الفائض من الذهب والفضـة . وكان القمار من مصادر الرزق بالاضافة الى انه لعبة محببة الى نفوسـهم . وكان الربا اساس التعـامل بين الدائن والمدين ، وكانوا يحظرون طلب الرزق الحلال على طبقة مخصوصة من الناس ـ كما فعل البراهمة مع الشودرا ـ واذا جمع الشودرى مـالا ، استولى عليه البرهمى دون أن يكون للشودرى حق الاعتراض او حق المقاضاة ، وكانت اللصوصية والقرصنة وخطف النـاس الآمنين لاسترقاقهم يعتبر عمل الاشراف والعظماء كما كان يفعل الاسبرطيون . ومع كل ذلك فقد كانوا لايعرفون الزكاة او حقوق الفقـراء فى اموال الاغنياء .

الى غـير ذلك من النظـم المجحفة التى كانت سـائدة قبـل القرآن وسواء فى ذلك الشرق والغرب والعرب والعجم . فلا بدع

---

(١) ان القضاء على هذه الالقاب مشروع واجب الاتباع . وقد فطنت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ لذلك فقضت عليها واقتدت بها بعض الشعوب العربية السائرة فى الطريق الصحيح .

اذا اجتاح الاملاق والمسغبة الضعفاء ، فيقتلون أبناءهم أو يبيعونهم ليدخلوا فى زمرة الارقاء . ولابدع اذا عاشت المجتمعات فى قلق مستمر لاتعرف للاستقرار معنى .

فاذا نهى الله عن قتل الاولاد خشية الامـلاق حينما يقول تعـالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشـية املاق نحن نرزقكم واياهم » فان الله لاينهى عن شيء ويترك اسبابه قائمة لاحلول لها .

وقد سن الله نظاما اقتصاديا عادلا لم تعرف البشرية نظاما مثله يستطيع البشر بواسطته الحصول على الرزق فى امن وطمانينة وحرية وكرامة .

وقد رأينا فيما تقدم كيف عمل القرآن على اشـاعة روح الرحمة والتعاطف فى المجتمعات .

ونتحدث الآن عن النظام الاقتصـــــادى الذى فرضه القرآن للقضاء على كل ماكان قائمـا من النظم الاقتصادية الفاسـدة ، ليأخـذ كل ذى حق حقــه من رزق الله الذى وسـع الجميع ، فلا يسترق انسان انسانا مثله لانه جائع ، أو لانه فقير ، أو لانه عجز عن الوفاء بدينه ان كان مدينا .

نظرة القرآن الى الارض :

ولما كانت الارض هى المصدر الاول لكل ارزاق الناس بل هى المصدر الاول لكل أسباب الحياة فقد احتفل القرآن بها فجاء ذكرها (فى ثلاثة وستين وثلثمائة موضع) .

والاستشهاد فى هذا البحث لايقتضى ذكر الآيات الخاصـة بالارض جميعها . فنكتفى بما ينير لنا الطريق ويرشدنا الى مايجوز من امتلاك الارض وما لايجوز ، ولمن يكون حق الامتـلاك ، ومتى يمتلك وكيف يمتلك ؟؟

ان الارض فى القرآن ليست ملكا لاحد ، وانما هى ملك الله والآيات الدالة على ذلك كثيرة منها هذه الآيات :

« ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض »
« ولله ملك السموات والارض وما بينهما واليه المصير »
« لله ملك السموات والارض يخلق ما يشاء »
« يا عبادى الذين آمنوا ان أرضى واسعة فاياى فاعبدون »
« ولله خزائن السموات والارض ولكن المنافقين لا يفقهون »
« له مقاليد السموات والأرض »

الى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الارض ملك الله وفى الحديث الشريف « أن الخلق عيال الله » وقد وضع مالك الارض ارضه لعياله . وجعل كل مافيها لهم فقال تعالى : « والارض وضعها للانام » وقال : « هو الذى خلق لكم مافى الارض جميعا » وقال : « كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الارض مفسدين » وهو اذ نهانا عن الافساد فيها طلب الينا عمارتها فقال : « هو انشاكم من الارض واستعمركم فيها » وجعلنا سبحانه خلائف الارض ليبلونا فيما آتانا فقال : « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم » .

وترك لنا أمر الولاية عليها وتوعدنا أن نحن أفسدنا ، ووصف المفسدين بالصم العمى المقفلة قلوبهم الملعونين فقال تعالى : « فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ، أولئك الذين لعنهم الله فاصمهم واعمى ابصارهم ، أفلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها » .

وواضح من هذه الآيات البينات ان الله هو مالك الارض وقد وهبها للناس جميعا ، لم يختص بها ناسا دون آخرين . وأباح لهم الانتفاع بكل ما فيها وجعلهم خلائف عليها ، وأمرهم الا يفسدوا فيها ويقطعوا ارحامهم والناس كلهم ذوو قربى فكلهم لآدم وآدم من تراب . فطلب منهم عمارتها .. وولاهم أمرها وأمر تدبيرها بتدبير القرآن ووهب لهم الاسماع والابصار والقلوب لئلا تكون لهم حجة يحتجون بها على الله بل له الحجة البالغة عليهم . وقال لنا سبحانه : « ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » وقد بين لنا الرسول ما نأخذ وما ندع فقال صلى الله عليه وسلم :

« الناس شركاء في ثلاث : الماء ، والكلأ ، والنار » وسأل أحد الصحابة الرسول عما لايحل بيعه فأجابه عليه السلام « الماء والملح » .

فأصبح لدينا أربعة أشياء لا يجوز لاحد احتجازها لنفسه وصد غيره عنها .

اولا : ـ منابت الكلا وهي تشمل الجبال والاحراش وبطون الاودية (والكلأ) ماتأكله الانعام من عشب وحشائش ، يقول الله تعالى : « والارض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها متاعا لكم ولانعامكم » . ويقول : « الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا انعامكم ان في ذلك لآيات لأولى النهى » ويقول : « أو لم يروا أنا نسوق الماء الى الارض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه انعامهم وانفسهم أفلا يبصرون » والارض الجرز التي لانبات فيها . فهو جل شأنه الذى يرسل اليها الماء من السماء وينبتها بقدرته نباتا فيه متاع لنا ولأنعامنا ولم يبذل انسان جهدا في ذلك فالناس فيها شركاء ومن احتجزها لنفسه واستغل حاجة الناس اليها ، يعد معتديا على حقوق الله التى وهبها لعباده .

ثانيا : ـ منابع المياه وهى تشمل البحار ، والانهار ، والآبار ، والعيون . يقول الله تعالى : « وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بامره وسخر لكم الانهار » ويقول جل وعلا : « وهو الذى سخر لكم البحر لتاكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون والقى في الارض رواسى أن تميد بكم وانهارا وسبلا لعلكم تهتدون» ويقول : « الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره » ويقول : « وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج » ويقول : « وارسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما انتم له بخازنين » ويقول : « وجعلنا الانهار تجرى من تحتهم » ، ويقول « وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وأنهارا » يقول : « أمن جعل الارض قرارا وجعل خلالها انهارا » ويقول : « أفرايتم الماء الذى تشربون أأنتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه اجاجا فلولا تشكرون »

ويقول : « وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على امر قد قــدر »
ويقول : « هو الذى انزل من السماء مــاء لكم منه شراب ومنــه شجر فيه تسيمون » ويقول : « الم تر أن الله انزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الارض ، الى غير ذلك من الآيات ٠

فينابيع الميــاه وما فيها من اسماك ولؤلؤ ومرجان وعنبر وأصداف وغير ذلك من خيرات البحار والانهار وما فى الجبــــال من معادن كل ذلك للناس جميعا ليس لاحد على احد فضل فيها يأخذ منــه الناس كما شــاءوا وليس لاحــد أن يمنع أحدا منهــا ٠
وليس لذلك قيمة الا قيمة الجهد المبذول من فرد أو جماعة لان من حصل على شيء من هذه الاشياء لم يتحصل عليه الا بيــذل الجهد والعمل فان ملكه فانما يملكه لما بذل من جهد لا لأنبا وقف عليه ، وما ينطبق على ذلك ينطبق على الكلأ والاخشــاب وماشاكل ذلك ، كما سيأتى :

ثالثا : ـ مصادرالوقود وتشمل : الشجر ، والفحم الحجرى والنفط ، والقوة الكهربائية ، يقول الله تعالى : « أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحــــن المنشئون نحن جعلناهــــا تذكرة ومتاعا للمقوين » ٠

و « المقوون » الحاضرون والمســـافرون من غنى أو فقير ، فان الجميع محتاجون اليها للطبخ والتدفئة والاضــــاءة وغير ذلك من المنافع ، كذا قال المفسرون فيمايختص بالشجر عند تفسيرهم « للمقوين » . أفلا يحق لنا والحالة هذه أن نقول : وحكم الفحم ، والنفط ، والقوة الكهربائية كحكم الشجر ؟ وان كان فى استخراج الفحم والقوة الكهربائية والنفط جهد انسانى مبذول ، ولابد لهذا الجهد من ثمن ٠ فعلى الدولة أن تشرف على استخراج هذه الأشياء وتقدمها للناس بثمن لا يبهظهم ولا يرهقهم ، ثمنــــا يستطيع دفعه الفقير قبل الغنى وان لم يكن للدولة حاجة الى الثمن فعليها ان تمنحهم ذلك مجانا ، لا أن يكون لفرد أو لشركة تستغل حاجــة الناس الى هذه الاشياء استغلالا فظيعا ، يرهق الناس ويكبدهم مالا طاقة لهم به ، ثم تتسرب الاثمان الباهظة الى حفنة قليلة من المستغلين والمحتكرين لخيرات الله التى وهبها لعباده » ٠

اما مافاض عن حاجة الناس فترجع اثمانه للجماعة ، تصرف على مرافقها واحتياجاتها من تعليم وتصنيع وعلاج وتنمية لموارد رزقها ، كالزراعة وتمهيد الطرق وتنظيفها ، واعانة المحتاجين ، ورفع المستوى المعيشى والثقافى والصحى للحـــاضرة البادية على السـواء ، حتى لايبقى فى الجماعة محتاج او محروم ، أو من تدفعه المسغبة والفاقة الى أن يدخل نفسه أو أبنـــاء فى حظيرة الرق من أى نوع كان . وذلك ماصنعه ويصنعه المنصفون من الناس . فما بالك بمن يدين بالقرآن ويحتكم اليه ويحميه . ان اتباع القرآن أولى من غيرهم باتبـاع كتاب الله الـذى لا يأتيه البـاطل . بل ان الواجب أن يكونوا هم قدوة الناس حتى لا يدعوا الجاهلىّ بالقرآن والمنتسبين اليه يستوردون المـذاهب الاقتصادية والاجتماعيـة من الشرق او الغرب . فان فى قرآننا من النظم مالو اتبعناه لكنا قبلة الناس ومحل اقتباسهم وتقليدهم والأخذ منا والتقى عنـا لان ذلك حكم الله . وحكم الله ليس فيه اجحاف على احد « ومن لم يحـكم بما انزل الله فاولئـك هم الفاسقون » والقرآن ونبى القرآن يحثاننا على النظر والتبصر وتحـرى العدل فى الاحـكام والعدالة فى الارزاق ، ولم يأمرانا بتجميد افكارنا وتعطيل أذهاننـا عن اعمالها وتوخى المصلحة العامة والقرآن مشحون بالآيات التى تحثنا على التبصر والتفكير والتدبر ونبى القرآن يعـــد الاجتهاد فى توخى المصلحة العامة توفيقا من الله . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبـل حينما بعثه قاضيا على اليمن : « بم تقضى يامعاذ ؟ فقال : بما قضى به الله تعالى . قال الرسول فان لم يكن . فقال : بما قضى رسول الله صـــلى الله عليه وســلم . قال الرسول : فان لم يكن . قال : أجتهد ولا آلو . فقال : الحمد لله الذى وفق رســـــول الله الى مـا يرضى الله ، فالاجتهـــاد فى تحرى العدل والعدالة والمصلحة العامة توفيق من الله . أما ترجيح مصلحة فرد على مصلحة الجماعة فذلك زيغ وانحراف عن كتــاب الله وسنة رسوله . وبخاصة فيما يمس ارزاقهم ومعايشهم . وحريتهم وكرامتهم . لأن الله كرم الجميع ، ولم يختص أحـــــدا بميزة الا ميزة التقوى والتقى لا بالتعدى على الحقوق والواجبات .

رابعا : ـ مناجم الملح ويشمل ما فى البحار وما فى الجبال .

وقد ورد فى الاثر ان النبى صـلى الله عليـه وسلم منع بيع الماء والملح .

فهذه الاشـياء الاربعة ضروريات اولية للحياة ، الناس كلهم فيها سواء . اذ هى رزق الله من صنع يديه وهبها لخلقه . وقال الله تعالى فى شأنها : « والارض مددناهاوألقينا فيها رواسى وانبتنا فيها من كل شىء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ومن لـستم له برازقين » وقال المفسرون : « ان الحسن وعكرمة وابن زيد قالوا فى تفسير « من كل شىء موزون » انه عنى به الشىءالموزون كالذهب والفضة والرصاص والكحل والحديد ونحو ذلك . وادخل بعضهم الزعفران . فالله تعالى هو الذى أنبت لنا هذه النعم ، وجعلهـا معايش لنا ولعيالنا ومن لم نرزقهم ممن لم يكلفنا برزقهم فان لهم حق الارتزاق منها وليس لاحد أن يمنعهم عن الارتزاق لان الله يقول : « ومن لستم له برازقين »

لقد كان الطغاة والظلمة يحمون منازل القطر ومنابت الكلا قديما وما زال الطغاة والظلمة يحمون موارد الرزق ومناجم الكنوز والخيرات حديثا ، ويستغلونهـا لانفسهم ولمن يواليهم والاسـلام يمنع ذلك اذ يقول الرسول الكريم : « لاحمى الا لله ولرسوله » وما كان لله ولرسوله فهو للناس جميعا وليس للدولة أن تحمى شيئا الا اذا كانت المصلحة العامة تقتضى ذلك . كأن تكون الجماعة فى حالة حرب مع غيرها . فلابد أن تحمى كل مايكفل النصر على الأعداء والحماية تفرض على ماكان مشاعا بين كل النـاس وما كان ملكا وذلك مافعله عمر بن الخطاب والحاكم لايحمى لنفسه ولكنه يحمى لنفع الجماعة . ولايمنع الضعفاء وأصحاب الملك أن حمى ملكا لاحـد . فقد قال عمـر بن الخطاب حينما حمى (الشرف والربذة) لمن وكل اليه الحماية : « أضمم جناحـك عن المسلمين واتق دعوة المظلوم فان دعوة المظلوم مجابة وادخل رب الصريمة ، ورب الغنيمة ، واياك وتعم بن عوف ونعم بن عفان فانهمـا أن تهلك ماشيتهما يرجعان الى نخل وزرع . وان رب الصريمة ورب الغنيمة ان تهلك ماشيتهما ياتيانى ببينة يقـول يا امير المؤمنين أفتاركهم انا ؟ لا أبالك فالمـاء والكلأ أيسر على من الذهب والورق وأيم الله انهم يرون انى ظلمتهم وانها لبلادهم قاتلوا عليها فى الجاهلية

وأسلموا عليها في الاسلام ، والذي نفسي بيده لولا المال الذي أحمل عليه في سبيل الله ماحميت على الناس بلادهم » . وهذا صريح في أن الحاكم ليس له أن يحمي لنفسه ولا لعشيرته وماحمى عمر الارض المشاعة الا لمصلحة المسلمين . وتقوية المجاهدين في سبيل الله . ولكنه في نفس الوقت لم يمنع من لديه ماشية من أن يرعاها وبخاصة اذا كان صاحب الماشية أبا لعيــــال لأن منعه من رعي ماشيته . يفرض على عمــر اعطاءه مالا لئــلا يموتوا جوعا فعلى الحـــاكم الذي يريد أن يحمي للمسلمين الا يضر أحدا بمـــا حمى وهذا عين مانفعله الامم الحديثة في زمن الحــرب . فانهــا تضع يدها على جميع مرافق البلاد لضمان الانتصار على الاعداء »

اما تمليك الارض المستثناة من كل ما قدمنا فلا يكون الا لمن عمل . فالله سبحانه اعدل من ان يحرم العامل ثمرة عمله ، يقول الله تعالى : « وآية لهم الارض الميتة احييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل واعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم افلا يشكرون » .

فعمل اليد هنا هو زرع الارض وحرثها وحصادها وغرس الاشجار ونصبها وكل شيء يبذل الانسان فيه مجهــودا كتلقيح الاشجار وتوبير النخيل - ورعاية كل ذلك وتعهده حتى يبلغ الثمر منتهاه . فمن يعمل كل ذلك لايمكن ان يذهب عمله سدى ، أو يتساوى مع غيره فيه ممن لم يعمل ولم يبذل جهدا . ولذلك ضمن القرآن جزاء العمل فقال : « ولن يتركم أعمالكم » أي لن يسلبكم اياها بل يوفيكم ثوابها . ولاينقصكم منها شيئا ويقول تعالى : « اني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو انثى » فحقوق العمل محفوظة للذكر والانثى على السواء .. ولايمكن ان يتساوى العامل المجد بالمهمل الكسول .

فاذا وضع الله الارض للانام ، وجعــل لنا كل مافيهـــا من خيرات ظاهرة ومخزونة ، فقد أبان الله ورسوله لنــا سبيل الملكية فيها . فكل مالا يحتاج الى بذل الجهود الانسانية في ايجاده فالناس كلهم فيه سواء . ومن رحمة الله بعباده أن الضروريات الاولية لاتحتاج الى جهــد للحصول عليها ، كالارض ،والمــاء ، والهواء ، والملح ، والكلأ ، والنار . فعلى الارض نحيا ، وفي جوفها ندفــن

موتانا ، ومنها نتحصل على أقواتنـــا ومعايشنا · ويقاس على ذلك كل شيء تحتاج اليه حياة البشر فى كل مراحلها ان كانوا بدائيين ، او متحضرين ، اما ماكان يأتى من ضروريات حياتنـا فى المرتبـة الثانية فان ذلك سبيله الجهد والعمل ومن هنا كان التفضيل فى الرزق وذلك قوله تعالى : « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فمن جهد أكثر نال رزقا أكثر فاذا اردنا الكساء فسبيله الغزل والنسيج ، واذا اردنا المأوى فسبيله التعمير ، وكل المواد الصالحة لذلك موفورة (مجـانا) لمن يعمل ـ واذا اردنا الخبز فسـبيله الزراعة واذا اردنا اللحم فسبيله الصيد فى البر والبحر . فمن عمل فله ثمرة عمله حقا شرعيا يمتلكه . وقد أحل الله لنا الصيد فقال : « أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة ، وقال : « فاذا حللتم فاصطادوا » وقال : « أحلت لكم بهيمة الانعام » .

وأحل لنا الزراعة فقال : « وآية لهم الارض الميتة أحييناها واخرجنا منها حبا فمنه يأكلون · وجعلنـا فيها جنات من نخيـل واعناب وفجرنا فيها من العيون · ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون » .

وطلب الينا عمارة الارض « واستعمركم فيها » .

فمن اصطاد او زرع او عمر فله ان يمتلك صيده او زرعه او عمارته وحثنا على العمل فقـال : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » .

وهو اذ يحل لنا كل ذلك ويحضنا عليـه يامرنا ان نأكل من طيبات مارزقنا وينهانا عن الطغيان فيه فيقول « كلوا من طيبات مارزقناكم ولاتطغوا فيه فيحل عليكم غضبى » اما العمل المشروع الذى لاطغيان فيه فهو مجلبة لرضاء الله علينا .

والتمليك نتيجة العمل المشروع امر مشروع فى القرآن وقد قال من لاينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى : « من أحيا أرضا ميتة فهى له » وقال : « من عمر أرضا ليست لاحد فهو أحق بها » وقضى عمر بن الخطاب بذلك فى خلافته . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم « من احاط حائطا على أرض فهى له » ·

ومن اقطعته الجماعة متمثلة فى حكومتها ارضا فهى له على شرط احيائها فان مضت عليه ثلاث سنين دون أن يحييها او يعمرها فللجماعة متمثلة فى حكومتها انتزاعها منه . فان احيا جانبا منها فله بقدر ما احيا أو عمر : وينتزع مابقى ويقسم على غيره من افراد المحتاجين لأن القصد من الاقطاع التعمير والاحياء والانتفاع وافادة المجتمع من ذلك . وليس المراد منه الاحتكار والاستغلال . أما ترك الارض مواتا فذلك نقص فى كفاية المجتمع ودليل على انه مجتمع مجدب من الجهود الانسانية والايدى العاملة والاذهان المتفطنة . وما جدب الارض الا دليل على جدب النفوس من الحركة وحب العمل ، وما من مجتمع نشيط عامل مجد ، الا وهو فى خصب ورخاء . ونماء مطرد ، وما من مجتمع كسول خامل الا وهو فى جدب وجوع وذل وخنوع . والحكومة الرشيدة هى التى تتفطن لذلك ولاتدع الجمود يقف بها وبمجتمعها موقفا جامدا غير متحرك .

وهذا مافطن اليه عمر بن الخطاب فقد انتزع الارض من مالكها حينما عجز عن تعميرها واحيائها . وقصة ذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم اقطع بلالا بن الحارث المزنى (العقيق) اجمع فلم يستطع تعميره . فلما تولى عمر بن الخطاب الخلافة دعا بلالا اليه وقال له : « يابلال انك استقطعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ارضا طويلة عريضة ، وأن رسول الله لم يكن يمنع شيئا يسأله ، وانت لاتطيق ماقى يديك . فقال بلال : اجل . فقال عمر : فانظر ماقويت عليه منها فأمسكه ، ومالم تطق فادفعه الينا نقسمه بين المسلمين . فقال بلال : لا أفعل شيئا اقطعنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال عمر : « والله لتفعلن » ثم اخذ ماعجز عن عمارته وقسمه بين المسلمين » هذا فعل عمر رضى الله عنه فى ارض أقطعها الرسول لرجل من اصحابه .. وماكان لعمر أن يفعل لولا تفطنه للهدف الذى يهدف اليه الرسول من هذا الاقطاع وهو الاحياء والتعمير . فلما لم يحقق الرجل اهداف الرسول انتزع عمر منه الارض الزائدة عن حاجته . واعطاها للمسلمين ليتحقق هدف النبى صلى الله عليه وسلم والنبى يقول : « عادى الارض لله ولرسوله ثم لكم من بعد فمن أحيا أرضا ميتة فهى له ، وليس

لمحتجز حق بعد ثلاث سنين ، رواه ابو يوسف فى كتاب الخــراج عن ليث بن طاووس .

وهذا التصرف من جانب عمر تصرف سليم لفهم صحيح مستقيم ، يتمشى مع روح القرآن الكريم ، واهــداف الرســول الاصلاحية . والرسول يقول : « الحق يدور كيفما دار عمر » .

واذا كان الحاكم لا يمثل الجماعة كأن يكون حكمه لهم دون رضاهم وانمــا حكمه لهم بقوة الحديد والنار ، والسيوف المصلتة والسجون المطبقة فلا حرمة لما يقطع من ارض ، وما يهب من مال ، لان مثل هذا الحاكم لا يرعى الله فى خلقه . فان وهب من مال الدولة او اقطع شيئا من اراضيها فهو رد . لانه انما يقطع ويهب الاهل والاشــياع ومن ليسوا فى حاجــة . ورائده من وراء ذلك تقوية مركزه لا المصلحة العــامة ، وعلى القضــاء الحـكم برد الحقوق لاصحابها ولو بعد زمن طويل ، وتلك هى شريعة القرآن التى حكم بها الخلفاء الراشدون والقضاة العادلون .

فهذا عمر بن عبد العزيز — وقد اجمعت الامة والاجيــال المتعاقبة على انه خامس الخلفاء الراشــدين — ينزل على حــكم القضــاء العادل ويرد ارضا ورثها عن ابيه ، لان امتلاكهــا كان فى الاساس بطريقة غير مشروعة . وقصة ذلك ان عبد الملك بن مروان اهدى لاخيه عبد العزيز ارضا بحلوان مصر . فاخذ عبد العزيز ينفق عليهــا ويستثمرها ، فلما مات آلت لعمر ، فلمــا ولى عمر الخلافة جاءه صاحب الارض واخبره ان عبد الملك اغتصب ارضه واهداها لاخيه عبد العزيز وقد آلت اليك — يا امــير المؤمنين — فاعد الى ارضى ، هذا ماقاله المصرى لعمر . فأجابه عمر بقوله : « نحتكم الى قاض من قضاة المسلمين ليحكم بيننا بما انزل الله ، فان لى شركاء أخوة وأخوات ، لا يرضون ان اقضى فيها بغير قضــاء قاض » .

ووقف الخليفة مع المصرى فى ساحة القضاء موقف الانداد ، وتكلم كل منهما بحجته ، فقضى القاضى برد الأرض لصــاحبها . فقال عمر : قد انفقنا عليها الف الف درهم . فقال القاضى : « لقد اكلتم من غلتها بقدر هذا » فاطمأنت نفس عمر واعــاد الأرض

لصاحبها ، وقال للقاضي : « لو حكمت لي لما وليت لي عملا ، وهل القضاء الا عدلا ؟ »

فهاتان حادثتان ترينا احداهما انتزاع الارض ممن لم يستطع اصلاحها وتقسيمها على المسلمين ، كما فعل عمر بن الخطاب مع صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بلال بن الحارث المزني.

وترينا الثانية انتزاع الارض مع القدرة على اصلاحها لانها اخذت غصبا ، وردها لاصحابها كما فعل عمر بن عبد العزيز عند نزوله على حكم الله الذى نطق به قاض من المسلمين .

فالقرآن الكريم يحرص على المصلحة العامة حرصه على مصلحة الفرد ، وكل ملكية فيها بغى على العامل ، أو فيها بغى على مصلحة الجماعة لايقرها القرآن . فالقرآن لايحرم العامل من عمله . وكذلك لايقر العاجز على امتلاك ماعجزت عنه قدرته ، ويقف في وجه التعدى اين كان وممن كان . والحاكم في القرآن امين على المحكومين ، حريص على حقوقهم ، يعمل لمصلحتهم ، ويرد عدوان المعتدين عنهم . اما اذا كان الحاكم هو المعتدى فانه برىء من القرآن ، وممن نزل عليه القرآن ، وممن يدينون بالقرآن لان اعتداء الحاكم ومنافقة القضاء له يصيبان المجتمع بكثير من المآسي المفجعة ، وافجع مآسيه احالة المجتمع الى قطيع من البهائم او جماعات من الرقيق المستعبد تسوقها طبقة الحكام والقضاة الى مايزرى بالانسانية ، وحينئذ يستحيل المجتمع الانسانى الى شيء لاشخصية له ، وذلك يتنافى مع تكريم الله لخلقه .

والمجتمع الذى يرضى بذلك يكون مسئولا عن تفريطه فيما اكرمه الله به لانه لم يثب للدفاع عن كرامته ، وللاحتفاظ بما منحه الله من حرية وتفضيل وبما انعم الله عليه من خيرات الارض الظاهرة والمخزونة ، وبما اعطاه الله من حق المشاركة في الحكم والمشاورة في تدبير الأمور . وهو مسئول عن سكوته على عبث العابثين ، وافساد المفسدين لاموره .

ومادام الفرد يابى الا ان يدافع عن ماله وعرضه ودمه ــ والشرع يقره على ذلك ــ افلا يكون دفاع المجتمع عن الانفس

والأموال والاعراض والدماء مشروعا ! بلى ! بل انه أكثر مشروعية واشد حتمية ...

ونعود الى حديثنا عن الارض . فلقد تبين لنـــا مما تقدم أن من احيا أرضا او عمرها او أحاطها بحائط فهى ملك له . على أن لاتطغى هذه الملكية على حقوق الجماعة ، ولاتجحف بمصلحتها ، ولرسول القرآن هدى فى ذلك لابد من بيانه لنرى الى أى مدى بلغ الحرص على المصلحة العامة فى الاسلام .

جاء فى الجزء الثـالث من صحيح البخارى « حدثنـا محمد بن مقاتل أخبرنا عبد الله أخبرنا الاوزاعى عن أبى النجاشى مولى رافع بن خديج : سـمعت رافع بن خديج بن رافـع عن عمه ظهـير بن رافع قال ظهير : لقد نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمر كان بنا رافقا . قلت : ماقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو حق قال : دعانى رسول الله صلى الله عليه وســلم قال : « ماتصنعون بمحافلكم ؟ .. (المحافل : حقـول الزراعة) قلت : نؤجرها على الربع ، وعلى الاوسق من التمر والشعير . قال : لاتفعلوا ، ازرعوها او أمسكوها ، قال رافع قلت : (سمعا وطاعة) .

وجـاء ايضــا فى صحيح البخـارى فى نفس الجزء الثالث (حدثنا عبيد الله بن موسى ، أخبرنا الاوزاعى عن عطاء بن جابر ــ رضى الله عنه ــ قال : كانوا يزرعونها بالثلث ، والربع ، والنصف) فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « من كانت له أرض فليزرعها ، او ليمنحها ، فان لم يفعل فليمسك أرضه » .

وجاء ايضا فى صحيح البخـارى « قال الربيع بن نافع ابو توبة : حدثنا معـــاوية عن يحيى عن أبى سلمة عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كانت له ارض فليزرعها أو ليمنحها اخاه ، فان أبى فليمســـــك ارضه » .

هذا هو هدى الرسول صلى الله عليه وسلم فى شأن الارض المملوكة الصالحة للزراعة الفائضة عن حاجة صاحبهـا ، اما أن يزرعها بنفســه ، واما ان يمنحها لاخيه ممن لايملك ارضا ليزرعها

وينتفع بها ، واما ان يمسك ارضه ، فاذا امسكها انعدم نفعه بملكيتها ، وحينئذ تكون المنحة اولى من اهمالها . وحينما علم عبد الله بن عمر نهى الرسول عن كراء المزارع ترك كراء مزارعه . وقال : كنا نكرى أرضنا ، ثم تركنا ذلك حينما سمعنا حديث رافع ابن خديج .

وجاء في المحلى لابن حزم بالجزء الثامن (ومن طريق أبى داود والسجستاني ، قرات على سعيد بن يعقوب الطالقاني قلت احدثكم : عبد الله بن المبارك عن سعيد ابى شجاع ، حدثنى عيسى ابن سهل بن رافع قال : انى يتيم في حجر جدى رافع بن خديج وحججت معه فجاء اخى عمران بن سهل قال : « اكرينا أرضنا فلانة بمائتى درهم » فقال : دعه فان النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن كراء الارض ، وعن عمى نافع نحوه » ولقد كان السلف الصالح يأتمرون بأمر النبى وينتهون عما ينهى عنه ، وكان عطاء ومكحول ومجاهد والحسن البصرى ـ وهم من ائمة السلف ـ يقولون : لاتصلح الارض البيضاء بالدراهم ولا بالدنانير ولا معاملة الا أن يزرع الرجل ارضه أو يمنحها ، وقال الشعبى : فذلك الذى منعنى ، ولقد كنت من اكثر أهل السواد ضيعة » .

والحكمة واضحة في هدى الرسول صلى الله عليه وسلم . فمالك الارض لايملك انباتها ، انما الذى يملك ذلك الله تعالى ، وقد جعل الله الجهد الانسانى سبب الانبات ، فاذا بذل انسان مجهوده فى انبات الارض فبأى حق يشاركه انسان آخر فى ثمرة جهده وعرقه ؟ ان أساس الملكية العمل ، فلابد لمالك الارض أن يشارك بمجهوده لتحق له المشاركة في ثمرات الارض ونتاجها ، فاذا دفع ثمن البذور الزراعية ، او اسهم مع العامل في الارض بمجهوده ، أو في احضار ماتتطلبه الزراعة من أدوات كان له نصيبه مما تنتج الارض ، من ثمر ونبات ، بحسب الشروط المشترطة بينهما .

ويقول السيد عبد الحميد الخطيب في كتابه « اسمى الرسالات » : (ولقد اثبتت الايام ، ودلتنا التجارب على ان تاجير الارض بالمزارعة سبب تكاسل ملاكها عن العمل باستثمارها

بأنفسهم مما تدره الزراعة على المزارعين من أموال وخيرات كثيرة وادى الامر الى وجود طبقة عاطلة من العمل تعيش فى الحياة على مجهود غيرها من الايدى العاملة . لعلها هى المعنيـة بقول بعض الحكماء : رجال الاعمال فى الدنيا ثلاثة : التاجر فى متجره ، والزارع فى مزرعته ، والصانع فى مصنعه . ومن عداهم عالة عليهم كشجر اللبلاب) .

وحكمة أخرى تشرق على الاذهان من هدى الرسول الكريم فالله ارسل رسوله رحمة للعالمين اذ يقول تعالى : (وما ارسلناك الا رحمـة للعـالمين) وجاء الاسـلام لمحـاربة الرق فى كل الوانه واشكاله ، فاذا كان لمالك الارض ان يؤجر أرضه : فانه يستكثر من الارض بما يتضخم لديه من محصولاتها مما يزيد عن حاجته ، ويؤدى ذلك الى نجوم الاقطاعيات الكبيرة حيث يتضخم الثراء فى ايدى فئة قليلة ، وتطل علينا نتيجة لذلك مأساة الرقيق الاقطاعى الذى تأباه روح القرآن العادلة الرحيمة .

اما اذا لم يستطع مالك الارض زراعتها عجزا أو استغناء ، وفى نفس الوقت لايستطيع تأجيرها لانه ممنوع شرعا عن ذلك ، فليس امامه الا منحها لمن لا ارض له ، أو امسـاكها ، فان امسكها ومرت ثلاث سنوات على ذلك فللجماعة بوساطة ممثليهـا الحق فى انتزاعها منه ـ كما فعل عمر رضى الله عنه حينما انتزع ارض بلال كما رأينا آنفا ـ واعطائها لمن هو فى حاجة اليها لان تركهـا بدون احياء ليس من مصلحة الجماعة فى شىء بل هو ضار بالمجتمع اذ تصيبه بالجدب ، وتقف حائلا بينه وبين النماء والرخاء .

اما الذين يستدلون على جواز تأجير الارض بأن النبى صلى الله عليه وسـلم اتفق مع يهود خيبر عـلى اعطائهم الارض على أن يقوموا بسقى النخيل ولهم نصف الثمر ، فانهم يخلطون بين النهى عن المزارعة من جهة ، وبين اقرارها من جهة أخرى ، ويقولون : ان هذا العمل نسخ اقوال النهى ، ويثيرون مشاكل هم ونحن فى غنى عن اثارتها لانها نتيجة لسوء الفهم .

لقـد آلت خيبر الى رسول الله صلى الله عليه وسـلم عن طريق الجهاد فى سبيل الله فقسمها فيئا بين المجاهدين ، اما الخمس

الذى هو لله ولرسوله فقد اقر رسول الله صلى الله عليه وسـلم يهود خيبر على خدمته بنصف التمر ، لانه للجماعة ، وليس لفرد من الافراد فحكمها حكم الثروة المؤممة التي تنفق على المصالح العامة ، ومنها الانفاق على المجاهدين فى سبيل الله ، والمجاهدون هم الذين يردون اغارة المغيرين وعدوان المعادين . ولم يخرج هؤلاء اليهود عن اعتبارهم مواطنين اعفوا من الجهـاد ليقوموا بواجب الزراعة ، فان أخذ الرسول نصف مجهود المزارعين فانما يأخذه فى مقابل مجهود الحماية ، وبعكس المزارع المسـلم ، فان عليه أن يخرج للجهاد ويترك زراعته لانه لم يعف من التجنيد للجهـاد ، ويؤيد هذا ماقاله عمر بن الخطاب « لولا آخر المسلمين مافتحت قرية الا قسمتها بين اهليها ــ أى المجاهدين ــ كما قسم النبى صـلى الله عليه وسلم خيبر » لان عمـر ارتأى تاميم أرض الفىء حينما فتح العراق والشام وحينما روجع من بعض فقهاءالصحابة رضوان الله عليهم قال مامعناه : انى ان قسمتها على المجـاهدين فماذا يجد أبناء المسلمين ممن يأتون بعدنا ؟ .

وهذا الرأى يتمشى مع قوله تعالى (لئـلا يكون دولة بين الاغنياء منكم) لقد رأى عمر المسلمين فى ازدياد ودولتهم فى اتساع وسـيزداد توالد المسلمين عـلى الايام ، فان قسـم الارض على المجاهدين توارثها أبناؤهم من بعدهم . وبذلك يصبح فى الامـة فئة قليلة تملك الارض . والأكثرية لا أرض لهـا ، فيختل توازن المجتمع . وهدى القرآن ورسول القرآن يهدفان الى تعادله لاالى اختلاله ، ولقد استشف عمر روح التشريع الاسلامى ، ورأى على ضوئه رأيا صائبا فامضاه ، وعمر هذا كان ينزل القرآن موافقـا لرأيه فى حياة الرسول ولقـد حسبت له سبع عشرة آيـة كانت موافقة لما ارتآه عمر . ثم ان عمر لم يستبد برأيه وانمـا أجمع الصحابة على امضاء فعله والاجماع من أمثال هؤلاء الذين لا يلتوون ولا تأخذهم فى الحق لومة لائم ، تشريع واجب الاتباع ، وهـذه هى القصة ننقلها بنصها : قال عمر ــ لمـا فتح الله على المسلمين العراق والشام ردا على من أرادوا قسـمة الارض بين فاتحيها ، والاحتفاظ بالخمس فقط للمصـالح العامة ــ فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الارض بعلوجهـا قد اقتسمت . وورثت عن

الآباء ؟ ماهذا برای ! » فقال له عبد الرحمن بن عوف : (فما الرای ما الارض والعلوج الا ما أفاء الله عليهم) فقال عمر : (ما هو الا كما تقول ، ولست ارى ذلك ، والله لايفتح بعدى فتح فيكون فيه كبير نيل بل عسى ان يكون كلا على المسلمين ، فاذا قسمت ارض العراق بعلوجها ، وأرض الشام بعلوجها ، فما يسد بها الثغور ؟ ومايكون للذرية والارامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق ؟) فاكثروا على عمر ، وقالوا : تقف ما افاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ؟! ولابناء قوم ولابناء أبنائهم لم يحضروا . فكان عمر لايزيد على ان يقول : هذا رأيى ، قالوا : فاستشر ، فاستشار المهاجرين الاولين فاختلفوا ، فاما عبدالرحمن ابن عوف فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم ، وكان رأى عثمان ، وعلى ، وطلحة ، وابن عمر ، رأى عمر ، فارسل الى عشرة من الأنصار خمسة من الاوس وخمسة من الخزرج من كبرائهم واشرافهم فلما اجتمعوا قال : انى لم ازعجكم الا لان تشتركوا فى أمانتى فيما حملت من أموركم ، فانى واحد كأحدكم ، وانتم اليوم تقرون بالحق خالفنى من خالفنى ، ووافقنى من وافقنى ولست أريد أن تتبعوا هذا الذى هو هواى ، معكم من الله كتاب ينطق بالحق فوالله لان كنت نقطت بأمر اريده ما أريد به الا الحق . قالوا : قل تسمع يا امير المؤمنين .

فذكر لهم وجه الخلاف فأبدوا رايه . فقرر ابقاء الارض بأيدى أهلها وضرب الخراج عليها ، وسكت المخالفون اتباعا للرأى الغالب .

ويقول الاستاذ عبد الرحمن عزام الامين السابق للجامعة العربية فى كتابه (الرسالة الخالدة) تعليقا على هذا : « هذا مثل من تصرف تلميذ الرسول وخليفته فى أمر جاء به نص وهو نفسه يسلم بهذا النص . غلب عمر رضى الله عنه الراى الذى قضت به المصلحة العامة التى رآها وراتها الاغلبية من عقلاء المسلمين اهل الشورى .

فالشريعة المحمدية لاتقف مكتوفة اليدين متى بانت المصلحة العامة بل هذه المصلحة والعدل هما غرض الشريعة الذى لن

تتجاوزه . فاقامة توازن اجتماعي يرفع به شر الحاجة عن المحتاج ويستقيم معه العدل والتأمين الاجتماعي هو أكبر مهام الدولة الاسلامية ، ومسئولية الامام واهل الشورى فى ذلك واضحة .

والدعوة التى لايتردد صاحبها واتباعه فى اقامة ميزان العدل الاجتماعي على أساس المصلحة العامة لايمكن ان تقوم الخصومة بين انصارها على اساس المصالح الطائفية الدنيوية ، فالمصلحة لاتتجزأ ، والطوائف لا وجود لها حتى كان الكل عبيدا لله متساوين وكانت مصلحة الكل فوق مصلحة الفرد والطائفة .

انتهى ماقاله الدكتور عبد الرحمن عزام ، وتعليقنا عليه ان عمر لم يخالف نصا ، وانما هو فقيه يعرف روح التشريع القرآنى فالقرآن الكريم يكره أن يكون المـــال دولة بين الأغنياء ، وتوزيع الأرض على المقاتلين فقط يجعلها دولة بينهم ، ولم يبق لأجيـــال المسلمين المقبلة غير الحاجة والعوز • فهو ابى الا أن يؤمم الأرض ليحقق مايريـده القـرآن ، الا تراه يقول : للعشرة الذين طلبهم لاستشارتهم فى الامر « ولست أريد ان تتبعوا هذا الذى هو هواى معكم من الله كتاب ينطق بالحق » •

اذن فالرسول لم يزارع اليهود الا فى القسم الخاص بالدولة فى مزارع خيبر ، فالذين يقولون : ان هذا التصرف من الرسول ينسخ قوله بالنهى عن المزارعة اخطاهم الصواب ، والقاعدة الفقهية أن الأخذ بقول الرسول مقدم على الأخذ بفعله ، لأن من افعـــاله ما كان خاصا به لا للتشريع • والأمثلة على ذلك كثيرة •

لقد كان لعمر بن الخطاب أرض خيبر أصـابها من الفيء . فجاء للرسول صلى الله عليه وسلم يستأمره فيها ، فقال يارسول الله : انى اصبت أرضـا بخيبر لم أصب مالا قط هو أنفس عنـدى منه • فقال الرسول : « ان شئت حبست اصلها وتصدقت بهـا ، قيل : فتصدق بها عمر على أنه لا يبـاع أصلها ، ولا يورث ، ولا يوهب ، فتصدق بها على الفقراء ، وذى القربى ، وفى الرقاب ، وفى سبيل الله وابن السبيل ، ولا جناح على من وليها أن يأكل بالمعروف او يطعم صديقا غير متمول مالا » •

ارايت كيف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يامر عمر بأن يقف ارضه لله ، لينفق نتاجها فيما تنفق فيه اخماس الغنائم .

وهذه الرواية تؤكد لنـــا أن النبى لم يزارع اليهود الا على الخمس الخاص بالدولة ، وعلى الارض التى أخذت بدون حـــرب ، والتى مآلها لله ولرسوله ومانحوز الدولة . لاتجوز سريانه على معاملة الأفراد بعضهم لبعض لأن المصلحة هنا فردية .

***

ان هدى الرسول لايتناكر ولايضرب بعضه بعضا ، ولكن الفقهاء يتناكرون وتضطرب آراؤهم ، فيحدثون بذلك جدلا فيما لايحتاج الى جدل .

لقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم ـ وهم حضور بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ هديه على صحته ، فقال رافع ابن خديج حينما نهـــاه الرسول عن المزارعة : « ســمعا وطاعة » وحينما بلغ عبد الله بن عمر نهى الرسول عن كراء الارض انتهى عما نهى عنه الرسول ، ولم يقم منهم أحد يقول للرسول : كيف تصنع ما تنهانا عنه ؟ ولم يكن الرسول يمنعهم من المناقشـــة والاعتراض مادام رائدهم الاقتناع .

فلو كانت مزارعة النبى لليهود تشريعا لمزارعة الأفراد بعضهم لبعض لما جاء عمر بن الخطاب يستامر النبى صلى الله عليه وسلم فى ارضه التى اصابها فى البلد التى حصلت فيه مزارعة الرسول لليهود فى خيبر ، ولوسعه أن يصنع بارضه ماصنع الرسول فى الخمس الذى مآله للجماعة ، ولكن من أين للفقهاء فقه عمر وفهمه؟ ومن أين لهم فهم رافع بن خديج وعبد الله بن عمر ؟؟

اللهم ان الحكمة بينة ، والحجة واضحة ، وذلك ما يتمشى مع الروح العامة للقرآن .

* * *

وحصادنا من كل ما تقدم ان الاسلام يقر الملكيات الصغيرة ، ولا يقر الملكيات الكبيرة ، فهو فى تشريعاته يحرص على عدم تمكين

الفرد من امتلاك ما يزيد عن طاقته ، ويفيض عن حاجته ، ويقف سدا منيعا أمام ملاك الأرض حتى لا يمكنهم من استغلال جهود من لا أرض لهم ، وبذلك يترك العــامل فى الأرض مطمئنا على جهده سيعود عليه وحده دون ان يشاركه فيه أحد الا من أسهم معه فى الجهد المبذول ٠

وبذلك يرضى نزعة التملك ، ولكنه يضع حدا لهذه النزعــة ، لا تتعداه ٠ ليكون المجتمع متوازنا ، والناس متقاربين ٠ ومجتمع هذا تشريعه لا يمكن أن تتضخم الثروة فيه عند فريق من الناس ، ويتضخم الفقر والاملاق عند فريق آخر كما هو الحال فى النظــام الراسمالى السائد فى الغرب ، وليس فيه اجحاف بحقوق الفرد وكبت نزعاته كما هو الواقع فى النظام الشيوعى ، وانما هو نظام وسط تنزه عن مساوىء الشيوعية والرأسمالية ، وحقيقة انه نظام وسط ، يصلح للأمة التى جعلها الله وسطا بين المشرق والمغرب كما يقول الله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » وفى هــذا النظام لا يذوب الفرد ذوبانا نهائيا لمصلحة الجماعة ، ولا تذوب الجمــاهير ذوبانا نهائيا لمصلحة الافراد ، ولو أن المسلمين ساروا فى حيــاتهم على هدى رسولهم لما تسللت الينا المذاهب الأجنبية ٠ لأن القرآن أقام لنا بتشريعاته حصنا منيعا يرد عنا عاديات الأفكار المنحرفة والنظم المجحفة ، ولو أننا طبقنا هدى القرآن تطبيقا عمليــا فانى لست بشاطح فى الخيال اذا قلت : لكنا قبلة أهل الارض جميعا فى الأخذ منا والاقتباس من نظامنــــا وشريعتنا ، ولكنا تركنا القرآن وراء ظهورنا حتى ساءت حالنا ٠ وأخذ الشباب وغير الشباب يتلمسون المخرج فى نفايات الأفكار وسواقط النظريات ٠

ان الناس فى البلاد الشيوعية رقيق لنظريات يريد الحكام تطبيقها ، وتلك النظريات تتنافى مع الميــول والنزعات التى تزخر بها النفس البشرية من حب للتملك ، وشعور بالكرامة ، واعتداد بالنفس ، وتكوين للأسرة ، عدا ما فيها من حنين خفى الى المثــل والأشواق الروحية ٠

والشيوعية تلغى كل ذلك من حسابها ، وهى تستطيع الغــاء

ذلك لو أنها تستطيع خلق البشر خلقـــا جديدا مجردا من هذه المشاعر التى جبل الله البشر عليها ٠

أما فى الغرب فان الشعوب رقيـــق لحفنة من المســـتغلين والاحتكاريين ٠ يفرضون الاحتكار والاســـتغلال بالعدوان المسلح واراقة الدماء الزكية البريئة ٠

والشيوعية والراسمالية كلتاهما مجردتان من الايمان بالله ٠ فهم يرتكبون ما يرتكبون لأنهم لا يؤمنون ببعث ولا نشور ولا حساب ولا عقاب ٠ فأى رادع يردعهم عن ارتكاب ما يرتكبون ؟

والشيوعيون يصارحون العالم بالحـــادهم ٠ أما دول الغرب فانها تخادع وتنافق فى الحادها ، تغريرا للنـــاس ، وابقاء على المصالح ٠ ليتكتل المغفلون حولها فى صراعها مع الشيوعية ٠

***

اننا لسنا شيوعيين ، ولا نحب ان نكون شيوعيين ، وكذلك نحن لسنا راسماليين ، ولا نحب أن نكون راسماليين كالغربيين ، ولكننا قرآنيون ، ونحب أن نطبـــق النظريات القرآنية الخاصة بالاقتصاد فى القرآن ، لئلا نكون رقيقا لحفنة من النـــاس ، ولئلا نكون رقيقا لنظرية منحرفة لا تعترف بما جبل عليه الناس ٠

الدفائن والمعادن :

لقد مر بنا فيما تقدم قول الله تعـــالى : « والأرض مددناها والقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل شئ موزون » وقلنا ان المفسرين قالوا : « ان الحسن وعكرمة وابن زيد قالوا فى تفسير كل شئ موزون : انه عنى الشئ الموزون كالـــذهب والفضـــة والرصاص والكحل والحديد » والله يقول فى تمام الآية : «وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين » وما دامت فيهـــا معايش للنـــاس فليس لأحد الحق فى احتجازها عنهم وجاء فى صحيح البخارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العجماء جبار ، والبئر جبار ، والمعـــدن جبار ، وفى الركاز الخمس » وجبار يعنى

عدر (١) . فكما أنه لا يجوز لأحد أن يحتجز ماء البئر فليس لأحد أن يحتجز المعادن يعنى مناجم المعـــادن . أما الركاز وهو الذهب المدفون ، أو الفضة المدفونة ، أو ما فى حكمها مما يماثلها مما دفن فى زمن الجاهلية أى فى العصــــور الغابرة ففيه الخمس وأربعة أخماسها لمن وجدها . وقد كانت الدفائن التى وجدت على عهـــد الرسول قليلة محدودة وليست هى كدفائن الفراعنة ضخمة كثيرة بدليل ما جاء فى الجزء السادس من المحلى لابن حزم « بعث على بن ابى طالب الى رســـــول الله صلى الله عليه وسلم بذهيبة فى أديم مقروظ لم تحصل من ترابهـا فقسمها بين أربعة نفر : عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس . وزيد الخيل ، وذكر رابعا وهو علقمة ابن علاثة ، فهذا دليل على أن الدفينة كانت شيئا قليلا محدودا حتى أن الرسول قسمها بين أربعة نفر . أما الدفينة التى تحتوى على

---

(١) ان السياق فى الحديث يوضح فساد الرأى الذى ذهب اليه بعض الفقهاء حينما قالوا : معناه أن من سقط فى بئر او انهال عليه معدن فمات فدمه هدر . لأن آخر الحـــــديث « وفى الركاز الخمس » يوضح أن المسألة لم تكن مسألة تشريع جنائى ، وانما هى مسألة تشريع اقتصـــــادى ، اذ أن الموضوع موضوع ضريبة الركاز وليس هو موضوع جريمة وعقاب . فالعجماء هى البهيمة الضالة ، والبئر ماء ، والمعدن ثروة ، فالبهيمة الضالة والماء والمعدن لا حق لأحد فيها فهى جبار أى ملك للجميع وربما كان اختيار النبى صلى الله عليه وسلم للفظة جبـــار وعدوله عن لفظة هدر لحكمة . فلو وجد صاحب العجماء الضالة بعد التصرف فيها ، ووجد المعدن فى أرض مملوكة لشخص معين ، ووجد الماء كذلك فى أرض مملوكة لأحد فيجبرون بشىء يجبر كسر نفوسهم لأن الامام مالك يقـــول : من وجد فى أرض معدنا سقطت ملكيته عنه . ولـكن هذا لا يعنى أن لا يأخذ قيمة أرضه فان المعدن لا حق لاحد فيه وهو ملك الجماعة . ولكن صاحب الارض يجبر بدفع قيمتها أى يعوض وكذلك صاحب العجماء الضالة اذا عرف ، ومثله صاحب الارض التى وجد بها الماء فجبار مأخوذة من مادة جبر ، والجبر اصـــــلاح الكسر معنويا أو ماديا . ومنه جبر الفقير أى اغناه .

ثروة ضخمة فيكون حكمها حكم المعدن . وقد روى مالك رضى الله عنه : « ان من ظهر فى أرضه معدن فانه يسقط ملكه عنه ويصير للسلطان » أى للجماعة مثل ماء البئر تماما . ورأى مالك هـــذا لا يتناكر مع قوله تعالى : « وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين » وقول الرسول : « المعدن جبار » كالعجماء والبئر ، بل هو يتفق مع الروح السائدة فى تشريعات القرآن من عدم الاكتناز، وعدم الاحتكار ، والنهى عن الترف لتتقارب الطبقــات ، وتتحقق العدالة الاجتماعية ، وهل يتحقـــق كل ذلك لو ان القرآن يبيح احتكار المناجم لفرد أو لافراد من الناس ؟ لقد رأينـــا المحتكرين وأصحاب الامتيازات يستغلون كل ذلك اســـتغلالا مرهقا وبدون مبالاة ما داموا يحققون لأنفسهم مصالحهم وقدرتهم على الانفـــاق للاذهم وشهواتهم وحياتهم المترفة التى ينهى عنهـــا القرآن . ان بعض الفقهاء ـ عفا الله عنهم ـ لا يستشفون روح القرآن وأقـوال الرســـول فيقعون فى الأخطاء ، وبعض المسلمين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون بالبعض الآخر . فيقعون فى أخطاء أشد . وليت الأخطاء يقتصر ضررها عليهم وحدهم اذن لهان الأمر . ولكن أخطاءهم تصيب المجتمـع بأضرار مميتة ، وبذلك يدعون الفرصة للجاهلين بالاسلام ولأعداء الاسلام متاحة لطعن الاسلام واتهـــامه بالجمود والرجعية . وبانه دين قد استنفد أغراضه ، وأنه لا يصلح للقرن العشرين . وما بعـــد القرن العشرين . كبرت كلمـــة تخرج من أفواههم ، ان قول مالك رضى الله عنه حينما يرى : « ان من ظهر فى أرضه معدن يسقط ملـكه عنه ، ويصير للسلطان » انمـا يعنى بذلك التأميم بلغة العصر الحديث ، لأنه يفترض فى السلطـــــان حرصه على حقوق الجماعة ، لا كما هو واقـــع السلاطين والملوك والأمراء اليوم . وان كنا نفخر بشىء فليس أعظم ولا أجدر بالفخر من القرآن الكريم ، لأنه شرع لنا تأميم الثروات العامة ومصادرها منذ أربعة عشر قرنا تقريبـــــا ، بينما الأمم الاخرى لم تشرعه الا متأخرة جدا . فهى لم تشرعه الا فى أواســـط القرن الذى نعيش فيه .

وانه لمما يحز فى النفس أن يكون للمسلمين مثل هذه الآيات البينات ، ومثل هذه التشريعات المحكمة العـــادلة الرحيمة منذ

اربعة عشر قرنا من الزمان • فيهملها المسئولون عنا والقابضون على أزمة أمورنا ، ويتتبعون ـ قديما وحديثا ـ سير الملوك فى عصور الجاهلية ويعيشون عيشة ملوك فارس ومهراجات الهند وفراعنة مصر ، ويعيدون سيره المناذرة والتبابعة ، ويبددون ثروات بلادهم فى الملاذ والمهازل ، ويجعلون بلاد المسلمين عزبة ، وتاريخ المسلمين وصمة ، ويدعون كل ذلك يوصم به الاسلام • والاسلام برىء منهم ومما يعملون • ثم تنخلع قلوبهم فزعا لقولة الحق اذا جهر أو همس بها قائلها • وهم على ما هم فيه من انحراف عن الحق ، واغراق فى الباطل ، وانغماس فى الترف ، واعتداء على الحقوق يحملون شعارات الاسلام ، ويزعمون التمسك بالقرآن والسنة ، ولا يتلون قول الله وهو يخاطب أحد أنبيائه « يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » ولا ينصتون لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته الا حرم الله عليه الجنة » وفى رواية « لم يحطها بنصحه لم يجد رائحة الجنة » وقوله صلى الله عليه وسلم « اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولى من امر أمتى فرفق بهم فارفق به » وقوله صلى الله عليه وسلم « من ولاه الله شيئا من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة» •

هذه شعارات الاسلام الصحيحة فهل هم يسيرون فى الناس بسيرتها ؟

ان الشعارات القرآنية ليست لحى مسبلة ، وعمائم منصوبة كشواهد القبور على رءوسهم وليست المساويك والمسابح • ولكنها العمل لصلحة المسلمين ورخائهم ، والعدل فى احكامهم والعدالة فى أرزاقهم •• بحيث يصبح المجتمع الاسلامى مجتمعا قويا ، غنيا ، صحيحا ، سليما نظيفا ، وعالما ، مستنيرا ، متمدينا ، لا مجتمعا تهزأ المجتمعات الانسانية من جموده وتأخره ، وفقره ، وجهله ، ومرضه ، وضعفه • ويستهين به أعداؤه ويسطون على حوزته ،

وينتقصون من أطرافه ، ويشردون أبناءه ، ويحتلون منـــازلهم وديارهم ويسكنون بها مشردى العالم • فيهددون أمننا ومقدساتنا. ويشرفون على تخومنا اشراف الذئب على الغنم الضالة • كما هــو موقفنا الآن مع اسرائيل وبريطانيا وفرنسا وأمريكا وغيرهم •

***

الحروب وغنائمها :

أمرنا الله تعالى بترك الناس احرارا فى معتقداتهم وأديانهم . فليس لنا ان نكره احدا على اعتقاد معتقداتنا او التدين بديننا • فحرية الناس مكفولة مقدسة واجبة الاحترام • فى القرآن الكريم يقول تعالى : «لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى» ويقول: « قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى ســـبيلا » ويقول : « فذكر انمـــا أنت مذكر لست عليهم بمصيطر ، الا من تولى وكفر » •

هذه الآيات البينات فيما يختص بالحرية واضـــحة مبسطة لاتعقيد ولا التواء ولا لبس فيها • وامرنا جل جلاله بالوفاء بالعهود والعقود فقال تعالى : «وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا» فيجب ان لا ننكث بعهودنا مع من تعـــاهدنا معهم أيا كانت الوانهم أو اديانهم ، أو اجناسهم • وآية ذلك قوله تعالى : « الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين » وقوله : « الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ان الله يحب المتقين » •

ونهانا الله عن سفك الدماء ، وقتـــل النفوس البريئة ، قال تعالى : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ومن قتـــل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فـــلا يسرف فى القتل انه كان منصورا » وأمرنا الله بعدم العدوان على أحد فقال تعالى : «ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » وقوله : « ولا تعتدوا ان الله لايحب المعتدين » الى غير ذلك من الآيات التى تنهى عن العدوان • هــذا

عدى قرآننا فى صـــلاتنا ببعض وسواء أكانت الصلات فردية أم دولية فان الحكم فيها واحد ، لنعيش مع العالم فى أمن واستقرار وسلام ، ونقيم تعاملنا مع الناس على اســـاس من الشرف والأمانة والحب والصداقة ، واحترام المشاعر الانسانية ، وتطبيق المثـل العليا لأن الله خلقنا شـــعوبا وقبائل لنتعارف لا لنتناكر ويضرب بعضنا وجوه بعض ·

ولذلك امرنا الله أن ندعو الى خير الانسانية بالحكمة واللطف قال تعالى : « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » وأن تجنح الى السلم يقول تعالى : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها » ·

وعلينا ان لا نجادل اهل الكتاب الا بالحسنى « ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » ·

ولكن الله الذى جبل البشر قد علم أن البشرية تأبى الحيـاة ترفرف عليها اعلام الأمن والاستقرار والمحبة والتعاون ، لأنهـــا لا تخلو من ذوى النفـوس الشريرة الذين لا يسرهم الا أن يغرقوا البشرية فى بحر من الدماء والدمار والخراب فيثيروا الاحقـــاد والبغض والطمع والجشـــع فى القلوب · ويؤدى ذلك الى العدوان والحروب · فقال لنا الله فى محـــكم كتابه : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » وأمرنا سبحانه باعداد العدة لرد العدوان فى كل عصر بما يلائمه فقال تعالى : « وأعدوا لهـــم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » ·

فاذا كان هذا العصر يقتضى أن تكون عدة الحرب الطـــاقة الذرية والهيدروجينية والأقمار الصناعية فعلينا أن نعدها ·

ولكن الكهنوت الدينى الذى قام فى مجتمعاتنا منذ أمد طويل حرم علينا تعلم كثير من الفنون والعلوم حتى أصبحنا فى مؤخرة الناس ·

ان الله الذى يقول لنا : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » لا يمكن أن يحرم علينا تعلم أى علم نصل به الى القوة والمنعة لحفظ كياننا ورد العدوان عنا · ولعل ما وصلت اليه حالتنا يكون عظة

لنا . فلانتبع الجامدين والرجعيين ممن يقال لهم – زورا وبهتانا – علماء الدين .

ان الدفاع عن النفس يقتضينا الحرب لحفظ كياننا والاحتفاظ بمقدساتنا ودمائنا واعراضنا . ولذلك شرعه الله لنا فقال : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل : قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فاولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة واولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » نعم لا بد لنا أن نقاتل من يقاتلنا ما دام المعتدى يكرهنا على خوض حروب ما اشعلناها ولم نرد اشعالها ذلك حكم الله وحكمته لنعيش فى ديارنا أعزة أحرارا ، نشعر بآدميتنا ونستمتع بنعم الله التى أفاضها علينا ، اما من أراد استلابها منا . فليس له عندنا غير القتال . فلنعد للقتال عدته ان كنا مؤمنين بكتاب الله . ومن عدة القتال أن نتكتل وأن نتحد ، ونقف صفا واحدا أمام أعدائنا ، ولذلك ينهانا الله عن الفرقة بقوله تعالى : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » ويقول : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » .

فالذين يدعون الى الفرقة ، والذين لا ينضوون تحت لواء الوحدة يكونون كالذين عناهم الله بقوله : « كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم» وزيادة على العذاب يفشلون وتذهب ريحهم .

فاذا جعلنا أعداؤنا بعدوانهم علينا مضطرين لخوض غمار الحرب ضدهم ، خضناها دفاعا عن آدميتنا وحقوقنا ومقدساتنا . فمن نكث عهودنا قاتلناه ، يقول الله تعالى : « وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا ائمة الكفر انهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون الاتقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول

وهــم بداوكم اول مرة أتخشونهم فالله احق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين ، قاتلوهم يعــذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين » ومن قاتلنا قاتلناه ، يقول الله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » وقد وضع رسول الله آدابا للحرب ووصايا أوصى بها ، فقد كان عليه الصلاة والســلام اذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ويقول : « أغزوا باسم الله فى ســبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، أغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليدا ، واذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاث خصال : فأيتهن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . ثم ادعهم الى التحــول من دارهــم الى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم ان فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين ، فان أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم انهــم يكونون كأعراب المسلمين ، ولا يكون لهم فى الغنيمة والفيء شيء الا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فان هم أبوا فسلهم الجزية ، فان هم أجابوك فاقبــل منهم وكف عنهم ، فان هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم . واذا حاصرت أهــل حصن فأرادوك أن تجعــل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه . ولكن اجعــل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فانكم ان تخفروا ذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله . واذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فــلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك ، فأنت لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا » . هــذه وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم للمحاربين ، وانهــا لوصايا انســانية عالية ، يأمر الرسول الجيوش باجتناب المغالاة (أو الاختــلاس) ، والغدر ، واجتناب قتل الاطفال ، وبالتسامح مع الاعداء . فأى شيء يختاره الاعداء مما يعرض عليهم يجب اجابتهم اليه . فليس الغــاية من محاربتهم شهوة فى الانتقام أو نزوة تدفع للاعتداء ، وكل ما يراد من محاربتهم رد عدوانهم ووقفهم عند حدهم لئــلا يظن بالمسلمين الضعف أو الخوف أو الاستخذاء فاذا حق لنا عليهم النصر أصبحت أموالهم ودماؤهم بين أيدينا وتحت تصرفنا . فما هو هدى القرآن فى ذلك ؟؟

ان القرآن الكريم يقول فيما يختص بالاسرى : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا اثخنتموهم فشـــدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والـــذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم» . هذا هو حكم الله في الأسرى ، اما اطلاقهم منا عليهم وقربى الى الله تعالى وحرصا على مكارم الاخلاق التى يدعو القرآن دائما اليها ، واما أن يفتدى الاسرى أنفسهم بالمـــال ، او نفتدى اسرانا الذين بأيديهم بأسراهم الذين هم بأيدينا . وهـــذه الاخيرة هى : « المعاملة بالمثل » التى يتعامل بها كل المتحاربين .

ومن كان يحسن القراءة والكتابة فيكفى أن يفتـــدى نفسه بتعليم عشرة صبيان القراءة والكتابة ، كل ذلك فعله رســول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون من بعده .

أما قتل الأسير فلم يحدث الا عند اقتضاء المصلحة العـامة . ومع ذلك فان رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما أمر بقتل النضر ابن الحارث بعـــد أسره فى غزوة بدر بكى حتى اخضلت لحيته من الدموع حينما سمع قول ابنة الحارث وهى ترثى أباها ، وتخاطب الرسول بقولها :

أمحمـــد ولأنت نسل نجيبـــة
في قومهـــا والفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت وربمـــا
من الفتى وهـــو المغيظ المحنق

وقال : « لو بلغنى هذا الشعر قبـــل قتله لمننت عليه » . ولم يقتل النضر ولا غيره لأنهم أسرى وانمـا قتلوا لجرائم أخرى ، وما كان لعلماء الأمة أن يجمعوا على عدم قتل الأســـير لولا أن ذلك هو هدى الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولم يرض رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعذيب الأسـير ، ولا بالتمثيل به ، فقد أسر فى غزوة بدر سهيل بن عمرو العامرى وكان خطيبا مفوها ، وكان حربا على رســـول الله ودعوته . فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لرســـول الله صلى الله عليه وسلم :

دعني أنزع ثنيتي سهيل بن عمرو ، فلايقوم عليك خطيبا في موطن أبدا . فقال الرسول الكريم : « لا أمثل به فيمثل الله تعالى بي ، وان كنت نبيا ، وعسى أن يقوم مقاما لا تذمه » .

وقد أسلم سهيل ووقف قدرته الخطابية على نصرة الحق وقام مقاما محمودا عندما حصل الاضطراب بمكة لوفاة الرسول عليه السلام ...

ولم يحتمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ايلام الأسرى ، فقد بات عليه السلام ساهرا فقيل ما سهرك يا رسول الله ؟ فقال « لأنين العباس » فقام رجل وأرخى وثاقه ، وفعل ذلك بالأسرى كلهم . ومر بلال بامرأتين يهوديتين أسرتا بعد القتال تبكيان على القتلى وكان فيهم أقرباؤهما فأخذت احداهما تصرخ ، وتحثو التراب على رأسها فقال الرسول لبلال : « أنزعت منك الرحمة يابلال حتى تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ؟؟ » وكانت احدى الامرأتين صفية أم المؤمنين التي تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد أطلق الرسول كثيرا من الأسرى منا بلا فداء ، ولم يقتصر منه صلى الله عليه وسلم على العرب ، بل شمل غير العرب ، فقد من على بني قينقاع وهم يهود وكانوا سبعمائة رجل غير نسائهم واطفالهم ، مع أنهم كانوا يتبجحون ويقولون للرسول : لا تظننا مثل قومك ، انا والله لو حاربناك لتعلمن انا نحن الناس » ومع تبجحهم هذا نكثوا العهد الذي عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم ، وانتهكوا محارم المسلمين . فلما أظفر الله نبيه بهم ونزلوا على حكمه من عليهم وأعفاهم من القتل والأسر ، فلم يشاءوا بعد ذلك المقام بالمدينة وجلوا عنها .

وقد من رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح على أهل مكة ، وقال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ولما انتصر على هوازن في وقعة حنين استأنى صلى الله عليه وسلم على السبي بضعة عشر يوما لعل أحدا من ذوي النساء والذراري يستشفع فيهم ، فلما لم يأته أحد قسمهم على المجاهدين، ثم بعد قسمتهم جاء رجال من هوازن ــ قد أسلموا ــ فسألوا

الرسول رد اموالهم ونسائهم وأبنائهم فقال لهم الرسول : قد وقعت المقاسم مواقعها فأى الأمرين أحب اليكم أطلب لكم السبى أم الأموال ؟؟

فاختاروا نساءهم وأبناءهم : فقام رسول الله خطيبا فى الناس قال : اما بعد فان اخوانكم هؤلاء جاءوا تائبين ، وانى قد رأيت أن ارد اليهم سبيهم فمن أحب أن يطيب بذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه اياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل ، أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم » ـ يخاطب المستشفعين ـ فقال المهاجرون والأنصار ـ رضى الله عنهم : ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم : وتابعهم من بقى من الناس .

وفى غزوة (المريسع) بعد أن انتصر المسلمون ، واسترقوا الأسرى والغنائم قسمها رسول الله بين أصحابه ، ثم تزوج عليه السلام جويرية بنت الحارثة سيد بنى المصطلق . فلما سمع الصحابة بزواجه عليه الصلاة والسلام منها قالوا : أصهار رسول الله . واعتقوا من كان بأيديهم من الأسرى رجالا ونساء وأطفالا .

فنحن نرى من هدى القرآن ، وهدى رسول القرآن أن الاسر لم يكن الا لضرورة أملتها حالة الحرب ، لئلا يطمع الأعداء فى المسلمين ، ولئلا يبدو المسلمون فى أعين أعدائهم عديمى البصيرة والحزم فى مثل هذه الظروف .. وهو اجراء واجب الاتباع . لقوم يكتنفهم الأعداء ، والمتربصون بهم من كل مكان فلا بد من الحزم فى أوان الصراع .

ولا نشتم من هذه المعاملة أية ارادة لاسترقاق الناس واستعبادهم ، كما رأينا فى تاريخ الأمم الشرقية والغربية ، فأين هذه المعاملة من المعاملة التى كانت متعارفة فى الحروب الماضية ؟؟

ومع أن ضرورة الحروب المشتعلة بين المسلمين وأعدائهم تجعل هذا الاجراء ضروريا فان الروح الانسانية الرحيمة كانت هى الطابع البارز فى معاملة الافراد والجماعات . فقد كان الرسول يوصى بالأسرى خيرا . فمن أسلم أخرجه ايمانه من الأسر .. ومن

علم عشرة من غلمان المسلمين خرج من الأسر · ومن افتدى نفسه بشيء من المـــال خرج من الاسر · وعلى اسريهم فى حالة أسرهم اطعامهم وايواؤهم وتدفئتهم من البرد ، وعـــدم ارهاقهم بالعمل ، وعدم اشعارهم بالامتهـان والذل · ويستوى فى كل ذلك الاسرى من العرب ومن اليهود ، ومن النصارى ، ومن غيرهم بلا مفاضلة · لأن القاعدة التى يعامل الناس على أساسها قول الله تعالى : «ياايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا » · وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بقوله (اطعموا الجائع وفكوا العانى) والعانى هـو الاسير فهو يطلب منهم فكاكه ·

اذن فالأسر لم يكن الا اجراء مؤقتا ، اقتضته ظروف الحرب وضرورة الكفاح ، والدليل على ذلك تبشير الاسرى بمغفرة الله لهم ، وتعزيتهم فيما أخذ منهم من مال لافتداء أنفسهم من الاسر ، ماداموا قد انتهوا عن الشر والخيانة ومحاربة الله ورسوله ، يقول الله تعالى: « يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الاسرى ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم » · وكما ان الله يأمر نبيه بتبشير الاسرى الاخيار بالمغفرة وتعويضهم عما أخذ منهم فان الله يتـــوعد الذين ما زالت تنطوى قلوبهم على الخيانة والغدر ، يقول الله تعالى : « وان يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم » ويقول تعالى : «قل للذين كفروا أن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف · وان يعودوا فقد مضت ســـنة الأولين » ·

هذا هدى الله ورسوله فيما يختص بأسرى الحروب · لااذلال ولا ارهاق ولا استرقاق ولا اهدار للآدمية ، ولا غمـــط للمواهب والملكات الانسانية ولا اعتبارات مجحفة تجعلهم آلات حية مجردة من الفهم والتمييز كما يقول أرسطو وغيره من الفلاسفة المنحرفين ·

ونكتفى الآن بهذا القدر ، وسنعود الى الموضوع فى مكانه وانما اتينا بهذا لاقتضاء السياق · أما هدى الله ورســـوله فيما يختص بالغنائم من مال وعتاد وأثاث وماشية وانعام وملابس وطعام

فقد بينه الله تعالى بقوله : « واعلموا أن ما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان · يوم التقى الجمعان · والله على كل شيء قدير » فالخمس لله ولرسوله وما كان لله ولرسوله فهو ما يصرف على الدولة ورئيسها · وللمحتاجين وللأضياف · وأربعة الاخماس الباقية تقسم على المجاهدين ، للفارس سهمان أو ثلاثة أسهم بحسب الظروف والأحوال ، ولغير الفارس سهم واحد · والملاحظ فى التشريع الاسلامى فى كل ما يختص بالثروات وتوزيعها فيما رأينا مما سبق ، وفيما سنرى فيما سيأتى بيانه · أنه يجعل فى المقدمة الصرف على مرافق الدولة، والصرف على المحتاجين والأضياف ، حتى لا يحرم فقير ولا مسكين ولا يتيم ولا عابر سبيل من نصيبه فى المال العام ، وألا تهمل مرافق الدولة فى كل زمن بما تقتضيه المصلحة ·

***

التجارة والصناعة والزراعة :

وقد أباح القرآن الكريم العمل لاكتساب المال ، وتنميته للفرد وللجماعة عن طريق التجارة والصناعة والزراعة · بل حث عليه · فقال تعالى : « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » وذكر الله فى شتى الأعمال يحيى الضمائر فلا يغش التاجر فى تجارته ولا الصانع فى صناعته ، ولا الزارع فى زراعته ، ويؤدى كل عمله وقلبه يلهج بذكر الله ، ومن يخش الله يتقن حرفته ، ويؤدى عمله على الوجه الأكمل · وجاء فى الأثر : «ان الله يحب عبده المحترف» · والله يحب من المرء اتقان عمله ·

فليس لأحد أن يحتكر التجارة ، كما أنه لا يجوز احتكار صنف للمتاجرة فيه ، ومنع الغير من المتاجرة فيه ، وما ينطبق على التجارة ينطبق على الزراعة والصناعة ، فكل من يتقن عملا من الاعمال التجارية أو الصناعية أو الزراعية ليس لأحد منعه من مزاولة ما يتقن · الا ما كانت مزاولته عملا منهيا عنه شرعا · · ·

والشريعة الاسلامية لا تنهى عن عمل الا حرصا على مصلحة المجتمع وسلامته ، وسلامة أفراده من الفساد والانحلال والامراض والأوبئة . وقد أفاضت كتب الفقه فيما يحل وما لايحل العمل فيه والارتزاق منه . فليرجع اليها من أراد التوسع فى ذلك .

***

التوريث :

وأحل الله الارث ، ونظمه تنظيما دقيقا رائعا ، فمن مات عن ثروة فلذويه أن يرثوه بالأسهم والترتيب الموضحين فى القرآن ، مما لا يتسع المجال هنا لتبسيطهما . والذى يهمنا فى بحثنا أن تقسيم المواريث فى القرآن لا يجحف بالورثة كما تفعل النظم الأخرى ، حتى فى العصر الحديث فان بعض النظم الغربية تجعل للولد الأكبر كل ما خلفه له أبوه من ثروة . وبعضها يميزه عن غيره بأشياء كثيرة حرصا على الاقطاعية واللقب . وبذلك تبقى الثروات مجمدة فى أيدى طبقة مخصوصة من الناس ، ويصاب المجتمع الذى يخضع لهذه النظم المجحفة بضرر بالغ .

أما نظام الوراثة فى الاسلام فهو يفتت الثروة حتى لا تكون « دولة بين الاغنياء » ويعدل فى القسمة بين الوارثين ، بل ويجعل لقرابة الميت ممن لاحق له فى الارث ولليتامى والمساكين من غير ذوى القربى نصيبا فى الثروة الموروثة . يقول الله تعالى : « واذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه » .

ذلك هو نظام الارث فى القرآن . وهو لا يهمل شأن الفقراء واليتامى والمساكين والضيوف والارقاء وكل أصناف المحتاجين ، ويذكرهم ويذكر الناس بالبر بهم . وعدم حرمانهم ، لئلاتسوء حالتهم فى المجتمعات التى يعيشون فيها ، لتصبح بحق مجتمعات انسانية مشرقة .

ونخلص من بحوثنا المتقدمة بأن الامتلاك لا يكون فى الاشياء الضرورية لحياة الناس كالماء والهواء والكلأ والوقود . ولا يجوز

امتلاك مصادر الثروات كالمناجم الزاخرة بالثروات العامة التى خلقها الله لتكون معايش لعباده ٠

وليس لأحد ان يمتلك ارضا يعجز عن تعميرها جهده ، أو تفيض عن حاجته ، ولا يجوز بعد ذلك اغتصاب حقوق الغير ٠

ولنا أن نمتلك من الارض ما يتسع لجهدنا ولسد حاجتنا ٠

ولنا أن نمتلك بالعمل والاحتراف بكل أنواعه من زراعة ، وصناعة ، وتجارة ، وغيرها ٠ وأحلت لنا المغانم فى الحروب كما بينها الله تعالى فى كتابه ، وكما سنها الرسول الكريم لنا بسنته

ولنا ان نمتلك بالارث الشرعى كما أوضحه الله ورسوله ٠

تلك هى حقوقنا فى الامتلاك ٠ أما أبرز الاشياء التى لايصح أن تكون وسائل مشروعة لاحراز الحق فهى كالآتى :

الربا :

لقد حرم الله علينا الربا لما له من الآثار السيئة فى المجتمع الانسانى ، ومن أسوأ آثاره اشعال نار الحقد والضغينة فى الصدور مما يسبب نتائج فاجعة ، سواء أكانت تنزل هذه الفجائع بدافع الربا أم با كله أم بالمجتمع الذى يعيش فيه الفريقان ٠ ان آكل الربا انسان تجرد قلبه من كل معانى الرحمة والشفقة ٠ ومن كل شعور انسانى ٠ فهو يقسو على المحتاجين من أبناء مجتمعه ، ولا يبالى بالكوارث التى تنزل بهم وباسرهم وفيهم الأطفال والنساء ٠ فهو لايهمه الا المال وتنميته وملء خزائنه به ، ولو كانت على الأنقاض والاشلاء وخراب الديار ٠ ومن سجايا المرابى البخل والكزازة والقسوة والشح والغلظة والاستهتار بالمثل الانسانية العليا ٠ واذا تفشت هذه الصفات فى أمة تفشت فيها كل الموبقات التى تضر ولا تنفع ، وتهدم ولا تبنى ، وتفرق ولا تجمع ، اذ ينعدم فيها التعاون والتراحم ، وتختفى الشمائل الطيبة كالمروءة والنجدة والشهامة والنخوة والمواساة والمرحمة وتعود الانسانية الى جاهليتها الأولى ويبرز الوحش ، ويختفى الانسان ٠ وما جاء القرآن الا لوأد

الوحش وقتله ، واظهار الانســـــان ونصره ، ليستمتع الآدميون بآدميتهم . ويحيوا فى رحاب انسانية كريمة كلها رخاء ، وكلهـــا نماء وكلها يسر وحب وتعاون ، لا لأجل أن تغوص الانســانية فى الوحل ، ممزقة بالاظفار والانياب . تلك عاقبة الربا ، ليست له نتائج غيرها ! الم تر ان المرابى كان يستبيح استرقاق من عجز عن الوفاء بدينه ؟

لقد حرم الله الربا ، وأكد تحريمه بشتى الآيات ، وبمختلف الأساليب فقال تعـــالى : « يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم » . « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف ، وأمره الى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم » .

« يا ايها الذين آمنوا اتقـــوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين .

فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكـم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة ، وأن تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون ، واتقوا يومـا ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » .

« يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافا مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون . واتقوا النار التى أعدت للكافرين » .

« فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبـــــات احلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا . وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما » .

« وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عنـد الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فاولئك هم المضعفون » .

ذلك هو هدى الله فى الربا .

ولذلك يقول الاستاذ سيد قطب فى كتابه « فى ظلال القرآن ج ٣٠ » : « فما يعيش الايمان والربا فى قلب واحد ، فاما أن يكون ايمان فهو الخوف من الله واتقـــاء وعيده ، وتجنب حربه ٠ واما الا يكون فهى الحرب اذن من الله ورسوله للكافرين » ٠ ثم يقول « وهى خطيئة نفسية ـ يعنى الربا ـ وخطيئة اجتماعية فى كل وقت وكل مكان ، خطيئة تنتج آثارها فى مشاعر الافراد وفى كل أخلاقهم وفى تصورهم للحياة ، وتنتج آثارها فى حياة الجماعة وعلاقاتهـا الاجتماعية ، وتنتج آثارها فى حياة الانسانية كلها » ٠

وسيد قطب حينما يقوله هذا فهو انما يقول الواقع الملموس فان ويلات الاستعمار التى نزلت بالشعوب المستضعفة لم تكن الا عن طريق الربا واغراقها فى أرباحه المتكررة بتكرر الاعوام ٠ بل ان ويلات البشرية كلها وحروبها المدمرة لم تكن الا من شهوتها فى أرباح الربا المتضاعفة ٠ فالنظام الاقتصادى الذى لا يقوم الا على الربا كان وما زال من أكبر الأسباب المؤدية الى القلق والتوتر ، وفساد العلاقات بين الناس ضعيفهم وقويهم على السواء ٠ لأن هذه العلاقات خلت من كل عاطفة انسانية خيره ٠ وقد ذاقت البشرية فى ماضيها الطويل ذل الاسترقاق والاستعمار عن طريق الربا ، ومن المآسى والفجائع والويلات الفردية والجماعية الشىء الكثير ٠ ان الله لم يشرع للبشرية الحلال والحرام فى جميع مشاكلها وشئونها ألا لسعادتها ٠ لذلك احتفل القرآن بالنظام الاقتصادى احتفالا كبيرا حتى نقاه من كل الشوائب ، وطهـــره من كل أنواع الفساد ، لأن القلق النفسى فى الافراد والجماعات لم يكن الا وليد الفســـاد الاقتصادى ، فاذا سلم النظام الاقتصادى من تسرب أسباب الفساد اليه ٠ سلمت النفوس من تسرب القلق والتوتر اليها ٠ وبذلك يسود السلام على العالم بأسره ٠

الميسر :

والميسر مثل الربا فى نتائجه الضـــارة التى تصيب الافراد والجماعات ، فهو مثار الحقـــد والضغينة بين المتلاعبين ، والمقمور لا يسعه الا أن يحقد على قامره ٠ وهل وراء هذه اللعبة الملعونة الا

بتبديد الاموال فيما لا يؤدى الا الى نزول الفجائع والمآسي بالمجتمعات الآمنة ؟ .

لقد رأينا فيما مر بنا ، وما زلنا نرى أن المقامرين اذا فقدوا أموالهم قامروا بأنفسهم وأولادهم وزوجاتهم . أو أسلموهم للموت جوعا وحرمانا ، أو انحدروا بهم الى الرق في أبشع صوره .

لقد حرم الله الميسر كما حرم الربا ، فقال تعالى : « انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون . وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا ، فان توليتم فاعلموا انما على رسولنا البلاغ المبين » .

وهل أبين من هذا البلاغ ؟ فالميسر رجس . والرجس العمل القبيح الذى يستنكف الانسان الكريم أن يزاوله ، وهو من عمل الشيطان ، وهل الشيطان الا عدو الانسان ؟ وارادة العدو بعدوه من اقسى الارادات وأشدها ايلاما . ان الشيطان يريد ايقاع العداوة والبغضاء بين الناس ، وهل وراء العـــداوة والبغضاء غير المآسي الدامية ، والفجائع المريعة ؟ والله يحذرنا من كل أولئـــك ، فان لم نستمع الى تحذير الله فلا نلومن الا أنفسنا . لقد بصرنا الله بالاضرار التى تنجم عن ذلك ، وحرمه علينا ، وعلينا أن نختار . والانسان الذى أودعه الله عقلا ــ يتبين به الضار والنافع ويميز به بين الخبيث والطيب ــ لا يختار الا مافيه صلاح أمره في دينه ودنياه ، الا اذا طمس الله على بصيرته ، وأقفل قلبه عن سلوك الصراط المستقيم .

الرشـــــوة :

ليس أفسد للذمم ولا أقتل للضـــــمائر مثل الرشوة . واذا فسدت الذمم ، وماتت الضمائر فلا يرتجى عـــدل من قاض ، ولا نصفة من حاكم ، ولا تورع من مبطل عن ارتكاب ما تملى عليه نفسه الخبيثة ، وكم اغتصب عقـــار ما كان ليغتصب من أصحابه لولا الرشوة ، وكم شردت أسر ملتئمة الشمل فرقتها الرشـــوة ، وكم سجون اكتظت بالابرياء ، وكم أعراض انتهكت ، وكرامات

أهدرت بسبب الرشوة · ان الرشـــوة تدعو الى عدوان الغنى على الفقير ، واستخفاف الحاكم بشأن المحكوم · ان الراشى والمرتشى والساعى بينهما انما هم أداة تحطيم للمثل العليا ، وتدمير للمقومات وتقديمها وقبولها وتعارف الناس عليها انمـــا يدل على التجرد من الشعور باحترام نفسه واحترام حقوق الغير وهذا هو هدى الله ورسوله فى الرشوة قال الله تعـــالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال النـــاس بالاثم وأنتم تعلمون » · وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : (لعن الله الراشى والمرتشى والساعى بينهما) · فالراشى خبيث ، والمرتشى أخبث ، والساعى بينهما مقر للخبث والخبـــاثة مشيع لهما فى المجتمع . وهو كمن يشيع الفاحشـــة والمنكر ، فلا بدع اذ أخرج الثلاثة من رحمة الله ، واستحقوا لعنته وعذابه ·

***

قد تكون الرشوة لابسة ثوب الهدية ، وقد تكون لابسة ثوب المأدبة التى يدعى اليها الناس ، ويدعو الشرف فيها المرتشى ، وقد تلبس الرشوة أزياء مختلفة كالرفد والهبة وما شاكل ذلك من الأردية التى تغشى بمظهرها الناس ، فيستبيحون منها لانفسهم على رءوس الاشهاد · وقد تكون أردية الرشـــوة أردية فاسقة داعرة كالليالى الحمراء التى يقيمها صاحب الغرض للحكام وأشباه الحكام - كما هو واقع بعض المجتمعات اليوم - وكل ذلك لا يقره دين ولا خلق ولا عرف ·

والقرآن اذ يحرم ذلك فانما يحرمه صيانة للمجتمع من العبث بالحقوق والواجبات ، وحفظا من تفشى الزور والبهتان ، وتقية له من الاعتداء على الأموال والأعراض والدماء ، وحرصا على عدم اختلال موازين العدل والعدالة ، ليكون المجتمع سليما صحيحا نظيفا من الاقذار ·

الاحتـــكار :

احتكار الأرزاق ومصادرها ظلم للانسانيه ، وبغى عليهـــا وأماتة لها ، وقد مر بنا انه ليس لأحد الحق فى احتكار الارض

، المناجم ، أو أى مصدر من المصدر للرزق ، ومر بنا قــول رسول الكريم في شأن الارض : « من كانت له ارض فليزرعها ، فليمنحها أخاه » وقوله صلى الله عليه وسلم فيما يختص بالمعادن المعدن جبار » كل ذلك فيما يختص بمصادر الارزاق . وقد نهى عليه السلام عن بيع الماء والملح » .

أما فيما يختص بالاتجار فى الارزاق فالاتجار حلال مباح لكل الناس فى جميع الاشياء المحلل بيعها . أما احتكارها فهو الظلم هو البغى ، لان المحتكر يمنع الناس من أقواتهم وملابسهم وما عم ى حاجة اليه وما لا غنى لهم عنه الا بالثمن الذى يرضى نهمــه ، ويشبع جشعه . وحينئذ لا يستطيع شراءها الا الأغنياء القادرون على ذلك . وتلك هى الســوق السوداء المظلمة التى لا يستطيع سلوكها عامة الناس ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بئس العبد المحتكر ان أرخص الله الأسعار حزن ، وان أغلاها فرح » وقال « لا يحتكر الا خاطىء » أى عاص آثم .

ان المحتكر كالمرابى يتصيد احتياج الناس لــما فى يديه ، ويستغلهم أقذر استغلال وأحطه وأشنعه فيغتنى حيث يفقر الناس، ويشبع حيث يجوع الناس ، ويكتسى حيث يعرى الناس ، ويسعد حيث يشقى الناس ، وليس ذلك الا دليلا على القلب المغلق المتحجر من كل عاطفة انسانية كريمــة فهو لا يحب اخوانه الآدميين ، و يتعاون معهم ، وانما هو انانى يعيش لنفسه ، ولا يبالى أن يموت غيره .

وقد تطور الاحتكار بتطور الحياة . ويصح أن نقول : قد انحدر الاحتكار بانحدار الحياة فأصبح لا يقتصر على احتكار التجارة ، بل تجاوزه الى احتكار الصناعة ، وطرق المواصلات وغيرها من المرافق العامة . وأصبح من يدفع الامتياز قادرا على أن يمنــع غيره من مزاولة عمله بحكم القانون . فهو يحتكر سلعة من السلع ، ويفرض ثمنها كما يشاء . ولا يخشى منافسا ، أو يحتكر صــناعة ، الصناعات فلا يعملها غير مصنعه ، ويدفعها للســوق بالثمن الذى يروقه . أو يحتكر طريقا فلا يجوز من ذلك الطريق أحـــد الا بواسطته وبالأجر الذى يعجبه..وكم أسر تشردت لان عائلها أصبح

عاطلا من العمل بفعل صاحب الامتياز اذ لم يدع له فرصة العمل فيما يتقنه ، وذهب هو وأسرته يهيمون على وجوههم تفتك بهم الفاقه والفقر ، وأصبح كل صاحب امتياز طاغية يعيش على اشلاء صرعاه ، ويتحكم فى الجماهير ، ويستلبهم استلاب اللصوص وقطاع الطـــرق ٠

والاحتكار فى القديم والحديث عن الاسباب المهمة التى تؤدى الى تجريد المجتمع من ثروته وتكديسها فى أيدى فئة قليلة تسترق الناس وتستعبدهم ، وتستبد بآدميتهم وكرامتهم وذلك ما يحاربه القرآن ولا يقره بحال من الأحوال ، فان جميع المبادىء الاقتصادية التى وضعها القرآن لم تكن الا للتوازن بين الطبقات حتى لا تطغى طبقة على طبقة ، وحتى يكون الناس متقاربين فى حياتهم ومستوى معيشتهم ٠ والرأى فى الامتيازات التى اقتضتها حالات المجتمعات الحديثة التأميم ٠ نعم تأميم كل المرافق ، والمصالح ٠ لتعود بالنفع على المجتمع كله دون أن تستأثر بالفائدة طبقة دون أخرى ٠

الاكتنـــاز :

اكتناز الذهب والفضة وما فى حكمها ليس من مصلحة صاحبها ، وليس من مصلحة المجتمع الذى يعيش فيه صاحبها ٠

وقيمة الذهب والفضة أو ما فى حكمها رهن بتقويم المجتمع لها فاذا لم ينتفع بها المجتمع سقط تقويمها فالانتفاع هو الأساس فى القيمة ، فاذا لم يكن انتفاع لم تكن قيمة ، فلا معنى اذن لاكتنازها ٠

ان الاكتناز اهمـال ، ومن يهمل شيئا يستطيع الانتفاع به يعد سفيها أو غير رشيد على اقل تقدير ٠ أما من يهمـل ما ينفعه وينفع الناس يعتبر أكثر سفها من السفيه ٠

وشىء آخر يجب أن يوضع فى محل الاعتبار فالذهب والفضة أو ما فى حكمها لم يتحصل عليهما صاحبهما الا من وراء التعامل مع المجتمع ، ولم تكن لهما قيمة لولا تقويم المجتمع لهما بتلك القيمة ، المجتمع شريك له فيهما على هـذا الاعتبار ٠ فليس له الحق أن يكتنزهما ، ويمنع المجتمع من عامل مهـم يؤدى به الى الحركة والرخاء والنماء ٠

ان اكتناز الثروات ومنعهـا من التداول تجميد لها وحرمان للمجتمع من فوائد تداولها ، وتعامل الناس بها ، ويؤدى ذلك الى نتائج سيئة ، لا يجنى المجتمع من ورائها غير الاضرار البالغة كتفشى البطالة ، وكساد التجارة ، وتدهور النشاط الزراعى والصناعى ؛ وما ينجم عن هذه الحالة من الجرائم المختلفة التى يدفع اليها الجوع والاحتياج .

والاسلام يحرص على اماته كل الدواعى والاسباب التى تؤدى الى التدهور الاجتماعى والخلقى ، وصلة هذا التدهور وثيقة الروابط بالحالة الاقتصادية ، لذلك فان القرآن لا يقر أى سبب من الأسباب التى يتطرق من ورائها فساد الحالة الاقتصادية أو اضطرابها أو تدهورها ، والاكتنـاز من جملتها فلم يقره ، ونهى عنه ، وتوعد المكتنزين بالعذاب الأليم ، يقول‌الله تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » هذا وعيد الله للذين يكتنزون الاموال ، ولا ينفقونها على الواجبات الجماعية ، وقد قدر المبلغ الذى يعتبر كنزا بأربعة آلاف درهم .. أما ما كان دونه فهو نفقة .. أما الذين يحتجون بأن عبد الله بن عوف وغيره من أصحاب الرسول كانت لهم أموال كبيرة ، فقد فاتهم أن هؤلاء الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ما كانوا يكتنزون ما لديهم من مال ، وانما هم كانوا يتجرون به وكانت تجارتهم واسعة . وكانوا يؤدون الزكاة المفروضة ، ويسهمون فى الجهاد ونفقات الجيش . وينفقون عـلى الفقراء والمساكين والمحتاجين ، وكانوا يحفرون الآبار ، ويعينون المعسر ويحملون الكل ، ويقرضون القرض الحسن ، ويتصدقون كثيرا، فلم تكن أموالهم ثروات محتجزة عن الناس ولا مكنوزة مهملة لاينتفع بها المجتمع . فالعمال والاجراء والرعاة والزراع كل أولئك كانوا يعملون فى أموالهم ، ويمونون من ثرواتهم . أما الاكتناز المنهى عنه فانه المال المجمد الذى يدع صاحبه حركة النماء والازدهار مشلولة ، بينما المال محجوز فى خزائنه راكد ركود الماء الآسن فيها .

الترف :

وكما أن القرآن يمنعنا من اكتساب المال من الطرق غير المشروعة فهو كذلك يمنعنا عن انفاقها فيما لا يفيد . والترف جماع كل ذلك ، ان الحياة المترفة الناعمة تتلف الجسم والروح ، لان طبيعة الترف المستمر فى حياة الانسان تؤدى الى استرخاء الجسم ، واستطابته للحياة السهلة اللينة ومن ثم يتجرد من القدرة على النهوض بالاعباء الجسيمة التى تتطلبها حياة النابغين من الافراد ، أو حياة الشعوب الحية الفتية ذات المطامح البعيدة والأهداف العالية

واذا شاعت حياة الترف فى مجتمع شاعت تبعا لذلك حياة الفسوق والفجور ، وانتشرت الدعارة الخلقية بكل أشكالها . اذ تنطفىء الشعلة المقدسة فى قلوب أبناء ذلك المجتمع فلا يشعرون بأنهم فى حاجة الى الصعود من الهوة السحيقة التى انحدروا اليها .

وتستهوى الحياة المترفة النفوس ، فتختفى القيم وتظهر الاسعار . فلا يقوم انسان الا بمظهره وبمبلغ ما يملك . لا بقيمة ما يشعر ويفكر ، وما يبذل من جهد لتحقيق معنى من المعانى القويمة السامية . وقد سبق للمترفين أن قالوا لمن جاءهم بالقيم الانسانية ما حكاه الله لنا فى قوله تعالى : « وما أرسلنا فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون » وذلك ديدن المترفين فى كل زمان وفى كل مكان . أقفلت قلوبهم ، وماتت مشاعرهم ، فلم تعد للقيم الانسانية لديهم أى اعتبار يقول الله تعالى : « واتبع الذين ظلموا ماأترفوا فيه وكانوا مجرمين » وأى اجرام أكبر من الكفر بالله والجحود بحقوق عباده ، يبددون الاموال فيما لا يعود عليهم ولا على مجتمعاتهم بخير ، ويغنون أنفسهم فى الملاذ والشهوات ، ويغرقون مجتمعاتهم فى الفقر والفاقة ، ويدعونهم عرضة لكل مغير أو غاصب . ولذلك قال الله تعالى : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » ، لأن المجتمع الذى شاعت فيه حياة الترف ، وشاع فيه شرع المترفين وعرفهم أصبح من سواقط المجتمعات التى لا تستحق الحياة ، وقد رأينا مصداق قول الله تعالى فى أمتنا الاسلامية حينما أغرقت مجتمعاتنا حياة الترف ، دمرت بغداد على أيدى التتار ، ودمرت بلاد الشام فى حروب الصليبيين . ودمرت الاندلس وانتزعت من أيدينا وما زالت

فى أيدى مغتصبيها الى الآن ، ودمرت فلسطين وشرد أهلها بعصابات الصهيونيين المعتدين ، وما جر علينا هذا البلاء الا حياة الترف حينما غرقت مجتمعاتنا فيها . واتبعت سبيل الحكام المترفين ، اعتنقت عرفهم وشريعتهم ولم تستطع تلك القصور التى ملئوها بالستائر والمراتب والوسائد الحريرية ، وزخرفوها بالذهب والفضـــة والفسيفساء ورصعوها بالدر والجوهر ، وحشـــدوا فيها التحف والتماثيل ، واتخذوا فيها الاوانى الفضية والذهبية وملئوها بالقيان والمعازف والخمور .. لم تستطع القصور التى بنيت بنماء الشعوب وأموالها فى بغداد ، وفى القاهرة ، وفى الاندلس ان تصد عادية المعتدين واغارة المغيرين عنا .

ومن الغريب أن يرى المسلمون اتبـاع القرآن كل ذلك ولا ينتهون عن غيهم ، ولا يخشون ما حذرهم الله منه ويتبعـــون سنن المترفين ويسيرون سيرتهم . ثم يزعمون أنهم مسلمون وأنهم حماة الاسلام . لقـد كانت نتيجة الترف استعمارا واستبدادا وتدميرا واحتلالا واسترقاقا . والاغـــرب من كل أولئك أن المترفين حينما يجابهون بالقارعة تراهم جبناء أذلاء مستخذين على مافيهم من التكبر والتجبر فى وقت أمنهم ـ فهم لا يستطيعون ردا للنكبة ، ولا صدا للقارعة ، يقول الله تعالى فى وصفهم وتوبيخهم : « حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون ، لا تجأروا اليوم انكم منا لاتنصرون، قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون ، مستكبرين به سامرا تهجرون ، أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين . أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ، أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون . ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن . بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون » تلك هى حالة المترفين وتلك هى عاقبة الحياة المترفة . وأهواء المترفين تفسد السماء والأرض لو اتبعناها . فعلى المجتمعات أن تضرب على أيدى المترفين والا حاق بها الفساد فالسقوط فالتدمير . وحينئذ يستعبدها ويسترق أحرارها المعتدون والمغيرون. وكما ان الواجب تطهير الجسم من الجراثيم القتالة احتفاظا بصحته وسلامته فان تطهـير المجتمعـــات من المترفين والمرتشين والمرابين والمكتنزين واجب ضمانا لصحة المجتمع وسلامته من الـــكوارث والنكبات . ذلك هدى الله وهدى رسوله للمتبصرين وللناس أجمعين .

الزكاة رأس موارد الدولة :

ان الله شرع لنا كل مايصلحنا ويصلح حياتنا ، فطهر مجتمعاتنا بتشريعاته المحكمه من كل انحراف ، وكل فساد . وأباح لنا تنمية الأموال والثروات من الطرق الصالحة المشروعه ، ولم يحجر علينا مزاولة الاعمال الشريفة في شرف واستقامة بل حثنا على العمل ، ورغبنا فيه . ولم يبح لنا أن ننمى ثرواتنا من الربا أو القمار أو الغصب أو استغلال حاجة الناس الى ما فى أيدينا استغلالا حقيرا شائنا . كما انه تعالى لا يرضى تبديد الأموال فيما يضر ولا ينفع ، فنهانا عن تبديدها فى وسائل الترف . أو تبديدها فى سبيل الشيطان كدفع الرشوة أو ممالأة الباطل والمبطلين . فان ممالاة المبطلين ومساعدتهم تبديد للمال فى غير وجهه ، وانما هو رسم لنا الطريق الذى نسلكه فى جمعه ، ورسم لنا الطريق فى انفاقه . وفرض علينا فى المرتبة الأولى زكاة الأموال ، بل جعلها ركنا من أركان الاسلام الخمسة التى لايتم اسلام المسلم الا به .. ورسم لنا الطريق الذى تسلكه الدولة فى جمع الزكاة ، وأبان لنا الوجوه التى تنفق فيها لأن الزكاة أول موارد الدولة . فعلينا اعطاء الزكاة للدولة ما استقامت على انفاقها فى الوجوه التى بينها الله . واذا امتنعنا عن دفعها أو انقصنا منها نكون غاشين لله ورسوله ، معتدين على حقوق عباده فى أموالنا . ولقد تكررت الأوامر الالهية بأداء الزكاة يقول الله تعالى « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » ، « والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما » « لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لاكفرن عنكم سيئاتكم » الى آخر الآيات الكثيرة التى شحن بها القرآن الكريم حثا على أداء الزكاة .

وقد بين القرآن مصارفها بعد أخذها فقال تعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » فنحن نرى من هذه الآية الكريمة ان مصارف الزكاة ثمانية ، واحد منها لموظفى الدولة وهم جباة الزكاة ، والثانى للمجاهدين فى سبيل الله وهم جنود الدولة وجيشها ، والستة الباقية

للخدمات الاجتماعية ومنها تحرير الرقيق وتسديد ديون المدينين لان الله يقول « وفى الرقاب ، والغارمين ، والغارمون هم المدينون . فهؤلاء لهم الحق فى ربع واردات الدولة : ثمن للارقاء ،وثمن للمدينين اذن فالدولة ملزمة بان تجعل ربع وارداتها لتحرير الأرقاء وتسديد ديون الأفراد .. وتلك فريضة من الله افترضها فى كتابه على المؤمنين به المتبعين لشريعته . فمن أخل بذلك كان حكمه حكم من تخلى عن أداء فروض الله الواجبة عليه ، ومن تخلى عن الفروض ولم يؤدها لا طاعة له على احد ، بل هو يستحق العقاب والتنكيل كأى معرض عن أداء الفرائض . أليس للدولة الحق فى تأديب مانعى الزكاة واعتبارهم عصاة ومارقين ، ومقاتلتهم واخذ الزكاة منهم بقوة السلاح ؟؟ أشرع ذلك ليأخذ الحاكم الزكاة وغيرها من واردات الدولة ويختص بها نفسه وذويه وعشيرته وأذنابه ؟؟ كلا ! وانما كان ذلك لأخذ الزكاة من الواجب عليهم أداؤها ووضعها فى مواضعها التى أمر الله ان توضع فيها ، تحقيقا لقيام المجتمع بواجبه حيال الافراد ليكون مجتمعا متوازنا ، والطبقات فيه متقاربة .

إن هذه الآية الكريمة شرعت لنا نظام الخدمات الاجتماعية قبل أن يعرف هذا التعبير الحديث بأربعة عشر قرنا تقريبا . ولا يوجد مثل هذا النظام اليوم متكاملا الا فى اربع دول أوربية هى :السويد ، والنرويج ، والدنمارك ، وسويسرا . والحق أن هذه الدول الأربع بلغت الحد الأعلى فى العناية بالخدمات لاجتماعية حتى سميت حكوماتها بحكومات الخدمات الاجتماعية ، ومع بلوغها الحد الأعلى فى ذلك فانها لم تبلغ الحد الذى شرعه القرآن . لأن القرآن جعل ربع واردات الدولة لتحرير الأرقاء،وتسديد ديون الافراد وبقية الواجبات ووجوه الالتزام للمجتمع من باقى موارد الدولة .

والدول الأربع ـ بالرغم من أنها حكومات خدمات ـ تؤازر الدول الاستعمارية ، وهى تعلم أن الاستعمار أفظع حالات الاسترقاق لأن الدول المستعمرة تسترق الشعوب بالجملة ، وتنتهب أموالهم ، وتعبث بأعراضهم ومقدساتهم ، وتفتك بالجموع فتكا ذريعا مبيدا ، ولا تعترف بآدميتهم بله حقوقهم .

هذه واحدة . اما الثانية فاننى لا أعتقد انها تفعل ما تفعله

شريعة القرآن من تسديد ديون الافراد سواء كانوا أحياء أم أمواتا أغنياء أم فقراء .

اما في شرعنا فان ذلك فريضة من الله ، افترضها على الدولة لابد من أدائها أو اعتبرت الدولة منحرفة عن القرآن ، مجحفة بحقوق المجتمع الذي تحكمه .

ربما يستغرب من لاعلم له بالتشريع الاقتصادى والاجتماعى في القرآن ما نقوله ، ولكن هذه هي حقيقة التشريع القرآني فهذه الآية واضحة المعنى ليس فيها ما يستعصى فهمه على أحد والى جانب ذلك عمل الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه . فقد جاء في صحيح البخارى بالجزء السادس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من مؤمن الا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة اقرءوا ان شئتم : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » . « فأيما مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا ، فان ترك دينا أو ضياعا فليأتنى وأنا مولاه » . والرسول في زمنه رئيس الدولة ومشرعها وحاكمها ، ورؤساء الدولة من بعده خلفاؤه فمن آل اليه أمر الدولة ملزم بتنفيذ ما شرعه الله ورسوله .

والآية القرآنية الكريمة والحديث النبوى الشريف متفقان في المعنى والهدف . لا غموض ولا لبس في بيانهما ، ولا لبس ولا غموض في معناهما وما يهدفان اليه .

وهذا يجعلنا نقول مطمئنين أن الدولة ملزمة بتحرير الرقيق : وبتسديد ديون المدينين ، دون المساس بتركة المدين اذا مات . فان تركته لورثته أيا كانوا أغنياء أو فقراء . ذلك هدى الله وهدى رسوله وفارق كل من ضل عن سواء السبيل .

والاسلام يعتني بما يمس حياة الناس وما يهمهم فيما يصلح حياتهم ، ويرفع مستوى معيشتهم ويعتبر ذلك من أعظم العبادات وأقرب القربات الى الله تعالى ، بل يعتبر العناية بهذه الأمور أفضل من العناية بالأمور التعبدية التى تختص بالفرد . وينهى عن صرف الوقت والجهد في المناقشات البيزنطية

التى لا تنتج غير المراء والمشاحنات .. وتباغض القلوب وتفكيك الوحدة المترابطة بين افراد المجتمع ، واهمال العناية بالشئون الحيوية كالشــــئون الاقتصــــادية والاجتماعية وتوزيع الثروات والاهتمام بتقارب الطبقات وتحرير الأرقاء والنظر فى مشـــاكل الناس وحلها الحل الذى يبعد عنهم القلق الفــكرى والنفسى ، ويجعلهم آمنين على مصائرهم ومصائر أولادهم من بعدهم مطمئنين على أرزاقهم وأسباب معاشهم مالكين لحرياتهم وعدالة حكامهم .
وآية ذلك قول الله تعـــالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولـــكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والـــكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القــربى واليتامى والمساكين وابن الســبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

فاية صـــفة من هذه الصفات التى وصف الله بها المتقين الصـــادقين تنطبق على الحـــكام والعلماء الذين تمتلىء دورهم وقصورهم بالرقيق الأبيض والأصفر والاسود والأحمر ؟ ويشغلون انفسهم باثارة الاحقاد وتكفير الموحدين ولاهم لهم الا فى ان الصلاة على النبى بعد الآذان تجوز ! ولا تجـوز وكل من خالفهم فى رأى كفروه ، وان رحموه قالوا : مبتدع .

واية صـــفة من هذه الصـــفات التى وصف الله بها المتقين الصـــادقين تنطبق على من يسترقون شعوبهم ويحجرون عليهم النظر فى كتاب الله وسنة رســـوله ويسفكون دماء المؤمنين بالله ظلما وعدوانا ؟ .

واية صـــفة من هذه الصفات التى وصف الله بها الصادقين المتقين تنطبق على من ياخذون أموال الشـــعب ، ويصرفونها فى السفاهات والحماقات والفجور فى كل بلاد العالم ، ويلبـــون افخم الثياب وياكلون اطايب المأكولات ، ويكنزون الثروات الطـــائلة فى مصـــارف العالم المختلفة ، ويرتكبون كل موبقة سرا وجهرا بينما الشعب يموت من شدة البرد ، ويموت من شدة الحر ويموت من العرى والحفاء ، ويموت من الفاقة والفقر ؟ اننـــا لا نرى اى صفة من الصـــفات التى وصف الله بها المتقين الصادقين تنطبق عليهم .

اذا فهم كاذبون فى دعواهم الاسلام ، يفترون على الله ورسوله الكذب حينما يتحدثون عن الاسلام ، وينافقون المسلمين ويخادعونهم : وهم ليسوا متقين وليسوا صادقين كما يزعمون ، وانما هم مارقون عن الدين ، منحرفون عن هدى الله ورسوله .. وما هم الا طاغوت يتحكم ، وما رجال الدين الا كهنوت ينفث الرقى ، ويحرق البخور ، ويقدم القرابين من الشعب المسكين البرىء ضحية لهبل الصنم (البشرى) الذى يعبد فى القرن العشرين .

أن للاسلام شريعة غير شريعتهم ، وسماحة غير غلظتهم ، فنحن المسلمون المؤمنون حقا وصدقا لاننا لا نريد الا تطبيق نظام الاسلام العادل الرحيم ، متمسكين بشريعته السمحة العادلة فنحن دعاته وحماته .

ان القرآن يقول لنا : ان البر بعد الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ـ انفاق المال لرخاء المجتمع الذى نعيش فيه ـ فهو يجعل على كل غنى اخراج جزء من ماله غير الزكاة المفروضة على الاغنياء لتحرير الرقيق الى جانب الجزء الذى يفرضه على الدولة لتحريرهم. وأن نقيم بعد ذلك الصلاة ، ونؤدى الزكاة ، ونفى بالعهود وأن نصبر على الضراء والسراء ، فاذا فعلنا ذلك كنا صادقين فى ايماننا : متقين فى أعمالنا . والا كنا غير صادقين وغير متقين . وليس من البر فى شىء أن نترك جوهر الدين ولبابه ونعنى بالشكليات والقشور . كما يفعل المتنطعون .

ان الترتيب الذى جاء فى نص هذه الآية جعل من أولى الامور بعد الايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب ـ انفاق المال فى الوجوه المبينة فى الآية . وجعل الصلاة بعد الانفاق وبعد الصلاة ايتاء الزكاة والوفاء بالعهد والصبر . وفى ذلك اشارة وافهام لنا بأن الاحتفال بالأمور الاجتماعية أمور أولية فى الاسلام ، وهى البرهان على الايمان القوى المتين بالله وبكتابه وبرسوله وباليوم الآخر الذى يحاسب الناس فيه على اعمالهم ، لان من يخشى حساب الله لا يؤخر فرائضه ، بل يجعلها من الأوليات التى يصرف اهتمامه الكلى لادائها . ونخرج من كل ما تقدم بأن القرآن الكريم فرض الزكاة على الاغنياء وقد أوضح قدر المال

الذى تؤخذ منـه الزكاة وبين مقدار الزكاة التى تؤخذ · وقد بينت كتب الفقه تلك المقادير بوضوح تام فليست من مقتضيات بحثنا ثم أوجب على الأموال غير الزكاة كما هـو مبين فى آية « ليس البر أن تولوا وجوهكم » الخ والبر بالناس واجب على القادر عليه · ولذلك كان ضمن السياق الايمان بالله وملائكته وكتب رسله ، وهو واجب واقام الصلاة فرض ، وايتاء الزكاة فرض ، والوفاء بالعهود فرض ، وكلها فروض محتمة الأداء ، وكان سياقها فى نص الآية من ضمن البر . فمن قال ان البر انما هو التطوع يخل قوله بسياق الأمور المنصوص عليها فى الآية فيكون اقامة الصلاة تطوعا وليس واجبا وايتاء الزكاة تطوعا وليس واجبا ، والايمان بالله تطوعا وليس واجبا ، ولا يقول بذلك مسلم صادق الاسلام . ومن ذلك يتبين لنا ان تحرير الرقاب فى المجتمع الاسلامى واجب على الدولة ، فاذا لم يتسع المخصص المرصود لتحريرهم فعلى الأغنياء القيام بتحريرهم ··· وذلك حق للارقاء اختصهم الله به ، ومطالبتهم بهذا الحق مشروعة اذا لم تعط لهم بدون مطالبة ، لان المفروض الواجب على الدولة الا تلجئهم الى المطالبة ، وكذلك الفقراء والمساكين وذوو القربى وابناء السبيل ، ومن ركبتهم الديون ، شرع الله لهم حقوقا اذا منعت عنهم حقت لهم المطالبة بها لأنها ليست منة ولا تفضلاً من الدولة عليهم بل حق مفروض يجب أن يؤدى لأصحابه ، يقول الله تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل » ويقول : « وفى اموالهم حق للسائل والمحروم » .

التكافل الاجتماعى :

لقد رأينا من الفصول السابقة أن السياسة الاقتصادية فى الاسلام توجب قوامة الدولة على الثروات الفردية والثروات الجماعية · فلها الحق فى احصاء الثروات الفردية لتحصيل الزكاة المفروضة . ولها الحق فى تحديد ملكية الأرض وملكية النقد المكتنز غير العامل .. ولها الحق فى مراقبة السلع التجارية واحصائها فى مخازن التجار ، وتلك اجراءات يقتضيها تحريم الاكتناز وتحريم الاحتكار ، وتحريم الغش .. وعليها من الحقوق القيام بالنفقة على ما يضمن الأمن العام وتقوية الجيش ..

وحددت للصرف على ذلك ربع واردات الدولة ، ولها اذا لم تكن فى حاجة الى « المؤلفة قلوبهم » أن تنفق أسهمهم للدعاية اذا كانت الدعاية تضمن مصلحة عامة للدولة . وما الدعاية ؟ أليست لتأليف القلوب ، وتوقى العدوان ، وتحبيب الناس فى النظام القائم ؟ على الا يتعدى ما ينفق للدعاية ثمن واردات الدولة ـ وهو السهم الخاص (بالمؤلفة قلوبهم) فى القرآن ـ وما بقى من واردات الدولة وهو خمسة اثمان الوارد ، ينفق على الخدمات الاجتماعية العامة ، منها ثمنان لتحرير الارقاء وتسديد الديون عن المدينين فى غير معصية .

ومن الخدمات الاجتماعية توفير السكن والملبس والطعام والشراب والعلاج والتعليم لكل فرد ، فقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بعلاج المرضى ، وأباح لهم ان يشربوا من البان ابل الصدقة حتى يصحوا ، وأمر الأسرى أن يفتدى كل شخص نفسه بتعليم عشرة من غلمان المسلمين . فاذا لم تف واردات الدولة بالنفقات المطلوبة منها فان للاسلام اجراءات اخرى تتخذ لتحقيق التكافل الاجتماعى المفروض فمن ذلك قول الله تعالى : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » وقول النبى صلى الله عليه وسلم « ايما اهل عرصه أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى » ومن برئت منهم ذمة الله لم يكن لدمائهم ولا لاموالهم حرمة . ومن هدى القرآن وهدى الرسول افرد الفقيه العبقرى ابو محمد على ابن حزم صفحات من كتابه « المحلى » فى الجزء السادس للكلام عن التكافل الاجتماعى فقال : « وفرض على الاغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك اذا لم تقم الزكوات بهم ، ولا فىء سائر اموال المسلمين بهم . فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لابد منه ، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكنهم من المطر والشمس وعيون المارة . برهان ذلك قول الله تعالى : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل » وقال تعالى : « وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين، والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم » فأوجب الله تعالى حق المساكين وابن السبيل ، وما ملكت اليمين مع حق ذى القربى

وفرض الاحسان الى الابوين وذى القربى والمساكين والجار ، وما ملكت اليمين ، والاحســـان يقتضى كل ما ذكرنا ، ومنعه اساءة بلا شك .

وقال تعالى : « ما سلككم فى سقر ؟ قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين » فقرن الله تعالى اطعام المسكين « بوجوب الصلاة وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من طرق كثيرة فى غاية الصحة انه قال « من لا يرحم النـــاس لا يرحمه الله » ومن كان على فضلة ورأى المسلم اخاه جائعا عريان ضائعا فلم يغثه فما رحمه بلا شك .

وهذا خبر رواه نافع بن جبير بن مطعم وقيس بن ابى حازم وابى ظبيان وزيد بن وهب كلهم عن جرير بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . روى ايضـــا معنـــاه الزهرى . عن ابى سلمة ، عن ابى هريرة ، رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد حدثنا ابراهيم بن احمد حدثنا الفربرى حدثنا البخارى حدثنا موسى بن اسماعيل ــ هــو التبوذكى ــ حدثنا المعتمر ــ هو ابن سليمان عن أبيه حدثنا ابو عثمان الهندى أن عبد الرحمن بن ابى بكر الصديق حدثه : « ان اصحاب الصفة كانوا ناسا فقراءوان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من كان عنده طعـــام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام اربعة فليـــذهب بخامس أو سادس » او كما قال .. فهذا هو نفس قولنا .

ومن طريق الليث بن سعد ، عن عقـــيل بن خالد ، عن الزهرى ان سالم بن عبد الله بن عمر اخبره أن عبد الله بن عمر اخبره ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المســـلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » فمن تركه يجوع ويعرى ــ وهو قادر على اطعامه وكسوته ــ فقد اسلمه .

حدثنا احمد بن محمد حدثنا احمد بن على ، حدثنامسلم ابن الحجاج ، حدثنا شيبان ابن فروخ ، حدثنا أبو الأشهب عن ابى نضرة عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر

له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » قال فذكر من اصناف المال ما ذكر حتى رأينا انه لا حق لأحد منا فى فضل » . وهذا اجماع الصحابة رضى الله عنهم يخبر بذلك ابو سعيد وبكل ما فى هذا الخبر نقول .

ومن طريق ابى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم « اطعموا الجائع وفكوا العانى » والنصوص من القرآن والاحاديث الصحاح فى هذا تكثر جدا .

وروينا عن طريق عبد الرحمن بن مهدى ، عن سفيان الثورى ، عن حبيب بن ابى وائل شقيق بن سلمة قال : قال عمربن الخطاب رضى الله عنه « لو استقبلت من امرى ما استدبرت لأخذت فضول اموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المجاهدين » وهذا اسناد فى غاية الصحة والاجلال .

ومن طريق سعيد بن منصور عن ابى شهاب عن ابى عبد الله الثقفى عن محمد بن على بن الحسين عن محمد بن على بن ابى طالب انه سمع على بن ابى طالب يقول : « ان الله تعالى فرض على الأغنياء فى اموالهم بقدر ما يكفى فقراءهم فان جاعوا او عروا وجهدوا فبمنع الأغنياء وحق على الله ان يحاسبهم يوم القيامة ويعذبهم عليه » .

وعن ابن عمر انه قال : « فى مالك حق سوى الزكاة »

وعن عائشة ام المؤمنين والحسن بن على وابن عمر انهم قالوا كلهم لمن سألهم : « ان كنت تسأل فى دم موجع ، أو غرم مفظع ، أو فقر مدقع ، فقد وجب حقك . وصح عن أبى عبيدة بن الجراح وثلثمائة من الصحابة — رضى الله عنهم — ان زادهم فنى فأمرهم ابو عبيدة فجمعوا ازوادهم فى مزودين وجعل يقوتهم اياه على السواء » .

فهذا اجماع مقطوع به من الصحابة رضى الله عنهم لا مخالف له منهم .

وصح عن الشعبى ، ومجاهد ، وطاووس ، وغيرهم كلهم يقول : « فى المال حق سوى الزكاة وما نعلم عن احد منهم خلاف هذا الا عن الضحاك بن مزاحم فانه قال : نسخت الزكاة كل حق فى المال . وما رواية الضحاك حجة فكيف رايه ؟؟

والعجب أن المحتج بهذا اول مخالف له ، فيرى فى المال حقوقا سوى الزكاة منها النفقات على الأبوين المحتاجين وعلى الزوجة ، وعلى الرقيق ، وعلى الحيوان والديون والأروش فظهر تناقضهم .

فان قيل فقد رويتم عن طريق ابن أبى شيبة حدثنا ابو الأحوص عن عكرمة . عن ابن عباس قال : من أدى زكاة ماله فليس عليه جناح ان لا يتصدق .

ومن طريق الحكم بن مقسم عن ابن عباس فى قوله تعالى : « وآتوا حقه يوم حصاده » نسختها العشر ونصف العشر . فان رواية مقسم ساقطة لضعفه ، وليس فيها لوصحت خلاف لقولنا . واما رواية عكرمة فانما هى الا يتصدق تطوعا وهذا صحيح .

اما القيام بالمجهود ففرض ودين وليس صدقة .

ويقولون : من عطش فخاف الموت ففرض عليه أن يأخذ الماء حيث وجده ، وأن يقاتل عليه .

فاى فرق بين ما اباحوا له من القتال على ما يدفع به عن نفسه الموت من العطش ، وبين مامنعوه من القتال عن نفسه فيما يدفع عنها الموت من الجوع والعرى ، وهذا خلاف للاجماع والسنن وللقياس .

ولا يحل لمسلم اضطر ان يأكل ميته أو لحم خنزير وهو يجد طعاما فيه فضل عن صاحبه لمسلم أو لذمى ، لأن فرضا على صاحب الطعام اطعام الجائع، فاذا كان ذلك كذلك فليس بمضطر الى الميتة ولا الى لحم الخنزير وبالله التوفيق . وله أن يقاتل على ذلك ، فان قتل فعلى قاتله القود ، وان قتل المانع فالى لعنة الله لانه منع حقا وهو طائفة باغية . قال تعالى : « فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى امر الله » مانع الحق باغ على أخيه الذى له الحق ، وبهذا قاتل أبوبكر الصديق رضى الله عنه : « مانعى الزكاة وبالله التوفيق » .

انتهى مانقلناه من الفقية المحدث الأصولى ابن حزم .

وقد تعمدت نقل عباراته بنصها الحرفى ، لتظهر مناقشته لمخالفيه . ومنها يتبين بما استشهد به من الآيات القرآنية

والاحـــاديث النبوية وقياســـه الصائب وردوده البليغة وحججه الدامغة . وجه الحق ويتبين كذلك ان بعض الفقهاء انحرفوا عن طريق الجادة فضلوا واضلوا .

والتكافل الاجتماعى ليس جديدا الا فى صياغته التعبيرية ، ولكن القرآن شرعه للناس منذ اربعة عشر قرنا ، وللناس ان يقاتلوا حكامهم واغنياءهم على تحقيق هذا التكافل ، لأن عدم تحقيقه من القادرين عليه يعد بغيا . والبغى يجب على من يؤمن بالله ورسوله ويهتدى بهدى القرآن ، ان يزيله وأن يقاتل فى سبيله وأن يكافح ما وسعه من ادوات الكفاح حتى يتحقق فى المجتمع ما شرعه الله له .

واذا كان من يسمح له بالقتال فى سبيل ذلك لايكون مضطرا لاكل الميتة أو لحم الخنزير اللذين حرمهما الله ، فكذلك هو غير مضطر لأن يدخل فى زمرة الأرقاء ، او يدخل أسرته وابنـــاءه فى اطار الرق . وكم جنى عزوف الحكومات وصدوف الأغنياء عما شرعه الله على البشرية من ويلات . وذلك مايريد القرآن أن يتجنبه الناس ويحرص على أن لا يحيق بهم ما حاق بغيرهم . فأين أدعيـاء الاسلام من شريعة الاسلام التى يتشدقون بأنها دستورهم ؟؟

ان القرآن فى حاجة الى مؤمنين ذوى غيرة على حقوق الله التى فرضها لعباده . فى حاجة الى ثوار يثورون على هـــذه الاوضاع التى يوصم بها القرآن والقرآن براء منها ومن الادعياء الذين يزيفون الحقائق ويتجاهلون الحق . ويفترون الكذب على القرآن وعلى نبى القرآن . ان المســئولية فى انصراف شـــباب المسلمين عن الاسلام ، وتطلبهم المخرج من واقع المسلمين المر الأليم ، باعتناقهم للمذاهب الاقتصادية والاجتماعية الغريبة عنا ، انما تقع على عاتق هؤلاء المارقين الضالين الذين يزعمون أنهم حماة الاسلام وانصار شرعه الحنيف ، والله يعلم والناس وكل الناس يعلمون أنهم هم الوصمة التى لحقت بالاســلام لأنهم شـــوهوه بظلمهم ومروقهم ، وجعلوا المثل الاعلى الذى فيه سعادة الانسانية مثلة تنفر منها الانسانية . وسوف يأخذهم الله ببغيهم ويوقعهم فى سوء اعمالهم ، ويعذبهم بأيدى المؤمنين الصادقين .

عقاب السرقة :

ان بعض الجاهلين بالقرآن ، وتشريعاته المحكمة يرون قطع يد السارق قسوة وهمجية يجب ان يتنزه عنها القرآن وبعض الذين يقيمون الحدود على الضعفاء فى بعض البلاد الاسلامية يؤكدون هذه المعانى فى اذهان الجهلة بشريعة القرآن . وقد نلمس الاعذار للذين لم يدرسوا القرآن ، ولم يلموا بتشريعاته. ولكن اى عذر للمتصدرين لزعامة الاسلام والمسلمين ؟ ان هؤلاء المتزعمين هم سبب البلاء فيما يوجه للقرآن من تهم شنيعة .

ان القرآن الكريم كل لا يتجزأ ، وقد وضع سياسة اقتصادية لم يتفتق عنها ذهن بشرى فى العالم قديمه وحديثه فالقرآن شرع للافراد والجماعات كل الضمانات التى تجعلهم آمنين وادعين ، وابعد عنهم اشباح الجرائم المختلفة بمحاربة اسبابها . فضمن فى تشريعه للفرد قيام الدولة بمطعمه ومشربه ومسكنه وعلاجه وتعليمه . واتاح له الفرص لمزاولة أى عمل يريده ، وضمن له فى تشريعه حرية العمل ، وحرية القول ، وحرية العقيدة ، وحرية التفكير ، وحرية التعامل ، وحرية الضرب فى الآفاق ، وفرض له التكافل الاجتماعى ، فاذا منع من حقوقه أو حقا من حقوقه اباح له بل اوجب عليه أن يقاتل فى سبيلها حتى ينالها ، فان قتل الزم قاتله القود ، وان قتل لم يلزمه شىء واهدر دم مانع الحق واعتده باغيا ، وأوجب على المجتمع أن يناصره ويؤازره على ذلك . ولست اعتقد ان نظاما شرع كل هذه الحقوق للفرد على الدولة وعند عجزها اوجب ذلك على المجتمع . والى جانب كل هذه الواجبات له حث على التطوع بالصدقة وبالرفد وبالحبوس التى تنفق غلتها على وجوه البر والاحسان .

ان نظاما يعطى كل هذه الضمانات للفرد ، ويفرض كل هذه الضرائب على المجتمع لسعادته ورفاهيته لابد ان يحمى المجتمع من عدوان الفرد ، ولابد ان يكون عقابه له شديداً صارما متى انحرف ، لانه ان لم يؤخذ بالشدة يعدى المجتمع بجرائمه ، والعضو الفاسد الموبوء الذى يودى بسلامة الكيان كله لابد من بتره ...

وقد احتاط هـذا النظام القرآنى . فلم يوجب القطع الا عند تحقيق كل الواجبات المفروضة للسارق باعتباره من أفراد المجتمع ، فاذا حصل اى انحراف فى هذا النظام فلا قطع كما فعل عمر بن الخطاب . وسواء أكان هذا الانحراف الذى مس النظام طبيعيا أو مصطنعا . فالانحراف الطبيعى هو الذىيكون لسبب جائحة من الجوائح الطبيعية التى لا قدرة للانسـان على ردها كعدم نزول المطر ، أو جفـاف الآبار والانهار ، أو زلزال اودى بالثروات ، وافسد الحيـاة ، أو آفة زراعية أفسـدت المحصولات ، أو ما شاكل ذلك . فان عمر لم يقطع يد السارق فى عام الرمادة . وهو عام جفت فيه الآبار ويبست فيه المزروعات وماتت فيه الانعام والماشية .

والانحراف المصطنع كظلم الحكام وظلم الاغنياء واختـلال ميزان العدالة وانحراف السـياسة الاقتصادية عن خطوطهـا المرسومة لها . فان عمر لم يقطع ايدى السرقة حينما علم انهم اجراء لأحد الأغنياء ، وكان يشح عليهم فلا يطعمهم اللحم حتى اشتهوه فسرقوا ناقةواكلوها . فاعفاهم من القطعوالزمموّاجرهم بدفع قيمة الناقة المسروقة مضاعفة لصاحبها ، وأمره ان يطعم اجراءه حتى لا يضطرهم الى السرقة .

وكذلك احتاط المشرع الاعظم فى الاحوال العادية فلا تقطع يد السارق الا اذا كانت السرقة مستوفية لجميع الأوجه القانونية التى بينتها كتب الفقه الاسلامى . فاين هى القسوة والهمجية فى ذلك ؟ انها شدة كشدة الطبيب الذى لا يبتر عضوا الا عنـد الاضطرار ، ليضمن سـلامة الجسم وصحتـه ، وعدم تسرب الفساد اليه .

هذا فيما يختص بعقاب السارق اذا سرق مالا أو عقارا او اثاثا أو متاعا او ما شابه ذلك . أما الايدى التى تقطعباسم الاسلام ، واقامة حدوده فى بعض البلاد الاسلامية ، فان ذلك لا يتفق مع نظام الاسلام وشريعته السمحة . ان الفرد فىتلك المجتمعات لا يتمتع باى حق من الحقوق الانسانية التى منحها الاسلام .

فالسياسة الاقتصـادية منحرفة انحرافا مريعا لا يقـره الاسلام . والاسلام يوجب محاربة كل انحراف فى تشريعهوواقع

المجتمع الذى تقطع فيه الأيدى والأرجل والرءوس باسم الاسلام ليس فيه اى ضمان من الضمانات الكثيرة التى منحها الاسلام للفرد . ان الاسلام نظام كامل ، وكل لا يتجزأ فاما أن يؤخذ كله ، واما ان يترك كله . فهو يضمن الحقوق والواجبات ويعطيها فاذا تحقق ذلك عاقب بقدر ما اعطى . واذا لم تتحقق الضمانات الممنوحة فلا عقاب . يقول الله تعالى « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » تلك هى روح الاسلام وعدالته . فاذا كان الله تعالى لا يعذب من يكفر به حتى يبعث رسولا . لتكون الحجة قائمةاذا نزل العذاب ؛ فكيف يبيح قطع يد السارق فى الوقت الذى منع هذا السارق من حقه باعتباره أحد أفراد المجتمع ؟ ان من يسرق حقوق المجتمع ويحتجز أرزاقه ، ويختص بها نفسه وعشيرته اجدر بقطع اليد من غيره ، واذا اجترأ الجانى او المجرم وأباح لنفسه الانتقام وانزال العذاب بالبائسين والضعفاء وممنوعى الحقوق بحجة اقامة الحدود . فان هذا الاجتراء جريمة لا تغتفر . وحينئذ يكون الحكم مهزلة ،والنظام فوضى ، ودعوى العدالة دعوى مكذوبة . ان القرآن يهدى للتى هى أقوم . فهل أعمال أولئك الضالين والطريقة التى يسلكونها صحيحة وقويمة وهل تلك هى هداية القرآن ؟ كلا أن المزيفين على القرآن ينتظرون القارعة وستحل بهم قارعةمن السماء ومن الارض ومن حيث لا يشعرون . فلينتظروا وانا معهم منتظرون .

***

ويحسن هنا أن ننقل ما قاله الأستاذ سيد قطب فى كتابه « فى ظلال القرآن » عند تفسيره لقول الله تعالى « والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم فمن تاب من بعد ظلمه واصلح فان الله غفور رحيم » .

يقول سيد قطب : « ولابد من بيان لهذا الحد الذى يبدو فى ظاهره قاسيا حين تنظر اليه نظرة سطحية الى شىء مادى يسرق والى يد حية تقطع . ان الاسلام كل متكامل ، فلا تفهم حكمة الجزئيات التشريعية فيه حق فهمها الا ان ينظر فى مبادئه كلها ، وضماناته للناس جميعا .

والاسلام يبدأ بتقرير حق كل فرد فى الحياة ، وحقه فى كل الوسائل الضرورية لحفظ الحياة من الانسان ــ كل انسان ــ

له الحق فى ان يأكل وان يشرب . وان يلبس وان يكون لهبيت يسكنه ويؤويه . لان ذلك كله ضرورى لحفظ الحيـاة ومثلها الدواء فى حالة المرض .

من حق كل انسـان على الجمـاعة التى يعيش فيهـا وعلى الدولة النائبة عن هذه الجماعة ان يحصل على تلك الضروريات.

اولا عن طريق العمـل ما دام قادرا على العمـل . وعلى الجماعة والدولة النائبة عن هذه الجماعة أن تعلمه كيف يعمل. وان تيسر له العمل ، ومعه اداةالعمل ، فاذا تعطل لعدم وجود العمل او اداته ، او لعدم قدرته عليه جزئيا او كليا ، وقتيا او دائما ، او اذا كان كسبه من عمله لا يكفى لضرورياته فله الحق فى استكمال هذه الضروريات من عدة وجوه . أولا من النفقة التى تفرض له شرعا على القادرين فى أسرته ، وثانيا على القادرين من اهل محلته وثالثا من بيت المال من حقه المفروض فى الزكاة . فاذا لم يجد من هـذه الموارد فله شرعا أن يقاتل من بيـده ضروراته هذه ، ويمنعها عنه وان يقتل ليحصل عليها . فان قتل هو فهو شهيد وان قتل المانع فهو فىالنار . واذن فلماذا يسرق السارق فى ظل هذا النظام ؟ أنه لا يسرق لحاجة ، انما يسرق للطمع فى الثراء . والثراء لا يطلب من هذا الوجه الذى يروع الناس ، ويحرمهم من الطمأنينة على ماكسبوا من مال حلال . فالاسلام لا يعترف بملكية لا تتخذ من حلال . وانه لمن حق كل انسان فى مثل هذا المجتمع الاسلامى كسب ماله من حلال ، لا من ربا ولا من غش ولا من احتكار ، ولا من اكل اجور العمال . ثم يخرج زكاته . فاذا احتاجت الدولة أكثر من الزكاة أخذت بحسب الحاجة . من حق كل انسان فى مثل هذا النظام أن يأمن على ماله . وان لا يباح ماله للسرقات . فاذا سرق السارق بعد ذلك ــ وهو مكفى الحاجة ــ فانه ان لم يكن مكفيها قاتل علنا عليها فانه لا يسرق وله عذر . والسيف الذى وضعته الشريعة فى يده ليقاتل به من يمنع عنه ضروراته هو نفس السـيف الذى تقطع به هذه الشريعة يده اذا هو مدها الى مال سواه من غير عذر ولا شبهه .

فأما حين توجد شبهة له من حاجة ــ لم يستطع أن يقاتل عليها فسرق ليسدها ــ فالمبدأ العام فى الاسلام هو درء الحدود

بالشبهات ،لذلك لم يقطع عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ايدي غلمان ابن حاطب بن ابى بلتعة حين سرقوا ناقة . وتبين أن سيدهم لا يعطيهم كفاية من طعام بل غرم السيد ضعف ثمن الناقة ،واطلق سراح الغلمان . وكذلك لم يأخذ احداً بحد السرقة فى عام الرمادة لأنه كان هناك مجاعة عامة فهى شبهة عامة تدرأ الحد حسب شريعة الله ورسوله .

وهكذا يجب ان نفهم حدود الاسلام فى ظل نظامه المتكامل الذى يضع الضمانات للجميع لا لطبقة على حساب طبقة . والذى يتخذ أسباب الوقاية قبل أن يتخذ اسباب العقوبة . والذى لا يعاقب الا الظالمين المعتدين بلا سبب للاعتداء ، لذلك يقول وهو يشدد عقوبة السرقة « فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله » فهى تنكيل رادع لمن ؟

يبدو ذلك فى الآية التالية اذ يقول : « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه» فهو الظلم اذن فى تلك السرقة. والظلم لا يتحقق . والسارق مظلوم يطلب الكفاية ويحقق لنفسه ضرورات الحياة التى فرضها له الله » وجعلها حقا له كحق الحياة « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه ان الله غفور رحيم » فشريعة الاسلام لا تدع السارق المقطوع يموت من الجوع هو واهله وعياله كما تصنع شرائع الارض بالمحكوم عليهم فى سرقة ، فتعدهم من ارباب السوابق ، وتحرمهم حق العمل ، وينبذهم المجتمع حتى يضطروا الى حياة الجريمة من جديد وحتى يتشرد أطفالهم ونساؤهم لانهم سرقوا رغيفا ليأكلوه . كلا ! فان شريعة الله لأحكم وارحم من شرائع المتمدينين فى هذه الأيام .

انها تضمن للمقطوع فى سرقة رزقه ورزق عياله من بيت مال المسلمين . فاذا تاب قبلته عضوا صالحا فى المجتمع وقبله الله عبداً صالحا من عباده فى الآخرة فلا يتشرد ولا يهمل ، ولا يتكفف الناس ، او يعود الى حياة الاجرام . انتهى ما نقلناه من كتاب (فى ظلال القرآن)

هذا هو الفقة فى دين الله وشريعته وامثال هذا هم الفقهاء حقا . فليس الفقه سردا لآيات الله وحديث رسوله دون تدبر ولا وعى . انما الفقه فطنة وتبصر وسير على المبدا العام فى الشريعة واستشفاف لروحها والاحاطة باحكامها العامة ،لتكون الاحكام

متفقة مع مايريده الشرع لا كما يفعل أولئك الجهلاء الأغبياء الذين يتصدرون مجالس الافتاء ، ويفتون بسفك الدماء بغير حق ، ويفتون بقطع الأيدى والأرجل ظلما وعدوانا وافتراء على هدى الله ورسوله . وهم أولى الناس بالعقاب الشديد الصارم الذى ينزلونه بالمنكوبين الذين نكبهم الله بهذه الشرذمة الضالة الزائفة المارقة . وأوقعهم فى أيديهم الآثمة . ان أولئك المارقين يقتحمون ساحة الفقه والافتاء الطاهرة فيدنسونها بدنس قلوبهم وافئدتهم ويشوهون جمالها وعدالتها وقدسيتها بسواد قلوبهم وغلظة أكبادهم وفساد افهامهم .

ان الله غيور شديد النقمة والعقاب ،واذا أمهل فانه سبحانه لا يهمل وسينزل بكل من زيف دينه الحنيف ، وشوه عديه الكريم السامى وأساء الى شريعته السمحة وجعل السنة أعداء الله ورسوله تنطق باتهامه ووصمه ، بما ليس فيه عذابا أليما . ويجعلهم عبرة للمعتبرين .

ان الله لايرضى لعباده الظلم، وقد ابتلى المسلمون بمن ينزل بهم الظلم ، ويزعم أنه انما يعمل ما يعمل تنفيذا لحكم الله وتطبيقا لشريعته . والله يعلم انهم لكاذبون ، وقد انتهى الزمن الذى كان تضليلهم وزيفهم ومروقهم عن الدين ينطلى على الناس ، واصبحنا فى عصر تنبه الناس فيه لحقوقهم وعرفوا حقيقة دينهم وسيعرف المظلومون كيف يأخذون حقوقهم المسلوبة وينتقمون من الظالمين. وليس ذلك ببعيد .

القرصنة واللصوصية والخطف :

وهناك من هم أشد خطرا وأكثر فسادا من السرقة العاديين تلك هى عصابات القراصنة واللصوص والخطافين الذين يعيثون فى الأرض فسادا ، فيغيرون على قوافل التجار والحجاج فى البر والبحر . ويروعون الآمنين ويقطعون الطرق ، فيخطفون الاطفال والنساء والشيوخ بل والشباب والكهول ، ويضربون عليهم الرق ، ويختلفون بهم على الأسواق فى المدن والقرى ويبيعونهم بيع الأثاث والمتاع والبهائم ، وان نعجب لشىء فالعجب ممن يتعاملون مع هؤلاء ، ويبيحون لانفسهم مشاركتهم فى جرائمهم ، ان التعامل معهم تشجيع لهم واغراء على الاستمرار فى الاجرام .

وقد رأينا فيما عرضـــنا له ان الرومانيين والاغريق كانوا يعتبرون هذا الاجرام مهنة العظماء والشرفاء ، وكان حكامهم ينظمون امر هذه العصابات ويزودونها بالســـلاح والســـفن والركائب . لاسترداد الرقيق عن هذا الطريق . وكم من مدن وقرى فجعت فى عائلاتها واطفالها ونسائها . وكم من حجاج وتجار فجعوا فى انفسهم واموالهم ،وكم من دماء زكية بريئة سفكت فى سبيل الشيطان لارتكاب هذا الفساد .

لقد اعد القرآن لهؤلاء العابثين الفاسدين عقابا شـــديدا صارما . وعد اعمالهم مثل الكفر بالله ومحاربتهم له ورسوله . فقال تعالى : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا ان يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم »

ان هذه العصابات تهدد الأمن العام ، وتتسبب فى وقف دولاب الأعمال التجارية والصناعية والزراعية وتشيع الرعب والخوف فى قلوب الافراد والجماعات وتهدر آدمية الآدميين باسترقاقهم وسوقهم كالانعام للتجارة ، وتفرق بين الأزواج ، وتبعد الآباء عن اسرهم والأمهات عن ابنائهن وما الذى يحملها على ذلك ؟ انها الرغبة فى الشر والحقد على الانسانية ، والكراهية للأمن والسلام . لقد كانوا قبل اقتراف جرائمهم محل العطف والرحمة من المجتمع ، يأخذون حقوقهم ، ويجدون العدل والعدالة والتكريم والتفضيل من الله والناس جميعا ، فأساءوا الى من احسن اليهم ، وارخصوا انفسهم فارخصهم الله وجعل عقابهم شديدا صارما ، ليخزيهم فى الدنيا ، ويعظ الناس بهم ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم

وهذا العقاب الصارم الذى شرعه الله ليرتدع به المفسدون ، من يقوم بتطبيقه ؟ تقوم بتطبيقه الحكومة الرشيدة التى ضمنت لمجتمعها كل حقوقه عليها ، واعطتها كاملة غير منقوصة . أما الحكومة الفاسدة التى تستخدم كل ما اوتيت من سلاح وقوة وسلطان لتشيع مايشيعه المفسدون من استرقاق الافراد والجماعات بل والشعوب . فان جزاءها جزاء هذه العصابات . وعقوبتها ، اى عقوبة القائمين على راس مثل هذه الحكومة ، هى نفس العقوبة التى تنزل بعصابات الافساد . وللناس ان يخرجوا

على حكومة لا تؤدى ضمانات الاسلام وتسرق الحقوق والواجبات، وتفتك بالناس سرا وعلانية ، لأنهم انما يخرجون على عصابة تهزأ بكتاب الله وتشوه شريعته. ولذلك جاء في بعض التفاسير عند تفسير هذه الآية الكريمة قوله: ولامر ما قال النص: « الذين يحاربون الله ورسوله » ، والخارجون بالقوة المسلحة على نظام الجماعة لايحاربون الله على ظاهر النص ، لأن الله لايحاربه العباد بالسيف وقد لا يحاربون رسول الله بشخصه صلى الله عليه وسلم انما أراد بحرب الله ورسوله حرب شريعة الله وشعائره وحرماته ، وتهديد الجماعة الاسلامية التى كفلت لها الشريعة حرماتها الا بحقها ، وانما اراد بهذا النص ان السلطان الذى يحق له ان يعاقب الخارجين بعقوبة الله ، هو السلطان الذى يقوم على شريعة الله ورسوله وينفذ شريعة الله ورسوله . فأما الذين يخرجون على نظام غير نظام الله ورسوله فليس لأحد ان يأخذهم باسم هذه الشريعة . ولا أن يعاقبهم بعقوبات هذه الشريعة . . .

نقرر هذا بوضوح لأن بعض أذناب السلطة في كل زمان ، كانوا يفتون لحكام لا يستمدون وجودهم من شريعة الله ، ولا يقومون على تنفيذ هذه الشريعة . يفتون لهم بأن يأخذوا الخارجين عليهم بتلك العقوبات باسم شريعة الله . وهؤلاء الخارجون لم يكونوا يحاربون الله ورسوله ، لأنهم انما كانوا يحاربون سلطة خارجة على شريعة الله ورسوله .انه ليس لسلطة لا تقوم على تنفيذ شريعة الله ان تأخذ الخارجين عليها باسم شريعة الله . لهذا كان النص : « الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا » . يسعون في الأرض فسادا بمحاربتهم الله ورسوله ، وبانتهاكهم بالقوة حرمات الله ورسوله ، وباعتدائهم المسلح على امن الجماعة القائمة بشريعة الله ورسوله . انما جزاء هذه العصابات المسلحة التى تروع الناس وتسلبهم اموالهم وارواحهم ، وتعتدى على اعراضهم وحرماتهم ، جزاؤهم أن يقتلوا أو ان يصلبوا حتى يموتوا ، أو ان تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو أن ينفوا من الأرض .

اذن فقد تساوت ـ كما سبق أن قلنا ـ جماعة الحكام المزيفة المفسدة وعصابات الافساد ، واصبحت جريمة هؤلاء وهؤلاء واحدة ، فعقابهم يكون واحدا لا شك .

والعقاب مهما كان شديدا ومريعا اذا نزل بالحاكم المنحرف عن دين الله المفسد لشئون الجماعة المعتدى على حقوقها هو كفاء افساده وانحرافه وعدوانه . لان الاثر الذى يتركه فى المجتمع ، اشد واعمق سوءا من الاثر الذى تتركه عصابات الافساد من الناس العاديين .

لأن العصابة اذا استرقت عشرات الأفراد بما لديها من قوة مسلحة محدودة فان الحاكم المنحرف يسترق شعبا باكمله لان لديه من أدوات العدوان أضعاف اضعاف مالدى العصابة ، فجريمة أشد خطرا وأعمق غورا ، وأبلغ جرحا للانسانية التى كرمها الله .

فاذا اراد الناس ان يعيشوا احرارا كراما معززين محتفظين بآدميتهم وحقوقهم التى شرعها الله لهم فعليهم ألا يمكنوا العصابات المفسدة الضالة من العبث بهم ، ويدافعوا عن ذلك ما وسعهم الدفاع فان ماتوا الحقهم الله بالشهداء والصديقين ، وان عاشوا لعيشة انسانية حرة كريمة . اما ان استخذوا فانهم يقعون فى الرق لا محالة . والرق يأباه كل من كان فى نفسه ذرة من ايمان بالله بارىء الأنفس والسمات . لأن الله يقول : (والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون) وتلك هى صفة المؤمنين . واذا حرص كل مجتمع على حقوقه ، ودافع عنها وجاهد فى سبيلها تنبثق عنه حكومة صالحة ، تحمى مجتمعها من أن تنجم فيه عصابات شريرة تخيف الانفس . وتعتدى على الآمنين واذا نجمت مثل تلك العصابات الضارة كان فى امكانها ان تنزل بها العقاب الذى شرعه الله .

ان مثل تلك العصابات لا تنجم غالبا الا من انحراف السياسة الصالحة ، اقتصادية كانت أو قضائية أو اجتماعية فاذا استقامت الشئون لا تنجم تلك العصابات الا بدوافع اجرامية شريرة فيجب حينئذ أخذها بالصرامة والشدة ، كما هو المنصوص فى القرآن . ان اخذ المفسدين بالشدة فى القرآن دليل على غيرة الله على آدمية الآدميين وأمنهم وسلامتهم وليست هى دليل القسوة والهمجية كما يقول الجاهلون والمفترون .

وان تعجب فاعجب لأولئك الذين يزعمون ان الاسلام لم

يضبط أجهزة الدولة كما ضبطتها التشريعات الغربية . وهل يجدون فى التشريعات الاوربية ضبطا لاجهزة الدولة مثل هـذا الضبط الذى شرعه الاسلام ؟؟ ومن المؤسف أن القائلين مسلمون ، ويزعمون انهم مستنيرون ، ولو أنهم قالوا لم يوجد فى المسلمين من يضبط اجهزة الدولة التى يريدها الاسلام بتشريعاته بعد الخلفاء الراشدين لكان ذلك صحيحا ، ولجاء قولهم آية على استنارتهم .

ان التشريعات الاسلامية فى حاجة الى مؤمنين بها ذوى غيرة عليها ، ولو أتيح لها فريق من المخلصين يصفونها من كل ما علق بها من أدران العصور المظلمة ، وما شابها من الأهواء الضالة والتخريجات السخيفة وينقونها من شوائب السياسات المنحرفه والتى أغرت كثيرا من الفقهاء والمفسرين والمحدثين بالانحراف تحقيقا لأغراض الحكام وميولهم لرأينا من العدل والعدالة والصعود بالانسانية الى مدارج الكمال ماتنبهر له الانفاس اعجابا ... ولو اتيح لتشريعات الاسلام علماء يصوغونها فى صورة دستور مبسط لوجدنا العالم يقرر تطبيقه فى كل مجتمع لو استطاع الخلاص من العناد والمكابرة . ولو أتيح لنا حكام قوامون على تنفيذ هدى الله وهدى رسوله ، وما توخاه السلف الصالح ـ لا السلف الفاسد ـ لاصبحت مجتمعاتنا مصدر اشعاع قوى باهر للعالم كله ، ولاصبحت بلادنا قبلة أنصار الحق والعلم والانسانية من كل أركان الارض .

ان فى هدى القرآن وهدى الرسول كنوزا مخبوءة لو نبشنا عنها لاحدثت انقلابا عظيما فى الافكار وفى التشريع وفى المفاهيم وفى المسلك . وفى كل مايهم الانسانية كلها فى كل مرافقها ومختلف الوان نشاطها ولسلم من تهديد الاخطار المحدقة بها الآن .

لقد إبتلينا بمن عماها علينا ، وصرفنا عنهـا حتى تركناها وراء ظهورنا ، وانصرفنا نتطلب المخرج من أدوائنا فيما لدى الناس ، فزادت مشاكلنا ، وتضاعفت شقوتنا ، لاننا رحنا نتلمس العلاج بما لا يتفق مع طبائعنا . بل أن هؤلاء الذين رحنا نتلمس المخرج بما لديهم هم فى حاجة الى مخرج ، لانهم انما يضربون فى بيداء التجارب لعلهم يجدون فى احدى تجاربهم المخرج من واقعهم الذى أرهقه القلق ، واضر به الخوف من المصير الفاجع الذى يرون انفسهم مدفوعين اليه دون رضا منهم او اختيار .

والغريب اننا نجد التحمس عند الذين يقومون بالتجارب المختلفة والنظريات المتضاربة شديدا ، والغيرة على المضى بتحقيق نظرياتهم وتجربتها بالغة . ولا نجد عند المسلمين التحمس الكافى لتحقيق نظريات الاسلام التى قررها ، والتى شهد الواقع أنها صالحة لكل زمان ولكل بيئة .. قليلا من التحمس لدينكم أيها المسلمون !! وقليلا من الاصرار على تنفيذ ماشرعه الله !

ان قوانين بعض الامم الغربية أو كلها تمنع تظاهر الطوائف المختلفة اذا ما وقع عليها حيف او ظلم وان منحتها التظاهر فانما تمنحها الى حد ، وغالبا ما يكون هذا الحد الممنوح لا يحقق عدلا مطلوبا ، ولا يعطى حقا مسلوبا . وان أعطى فلا يعمد الا لانصاف الحلول ، لان قوانين أوربا انما يصدرها ويشرعها ذوو المنافع من اصحاب الاقطاعيات ، ورءوس الاموال الكبيرة . والحكومات الرأسمالية خاضعة خضوعا تاما لهذه الطبقة ، فهى تنفذ ارادتها ولا تنفذ ارادة المطالبين بحقوقهم .

اما تشريع الاسلام فهو تشريع اسمى ، تشريع الهى لم ينزل لارضاء فريق على حساب الفريق الآخر . فهو يضمن حقوق الجميع على قدم المساواة والحكومة ليست خاضعة لفريق من الناس او لطبقة من الطبقات . وانما هى خاضعة لقانون ليست لها فيه يد ، وانما هى أداة تنفيذ للقانون الذى بين يديها . وهذه الشريعة فرضت على الحكومة ضمانات لجميع الافراد ولجميع الطبقات فاذا لم تف بضمانات هذه الشريعة او جبت على المجتمع تنحية الحاكمين عن كراسى الحكم ، ولو أدى ذلك الى حمل السلاح واشهاره فى وجوههم . وأعطت لكل ذى حق لم يصل الى حقه أن يقاتل حتى يناله .

هذه الحقوق الممنوحة شرعا للافراد جعلت عقابهم شديدا صارما اذا أعطتهم الدولة حقوقهم كاملة غير منقوصة ثم لم يكتفوا بها ، وراحوا يعبثون بالامن ، ويهددون المجتمع فى سلامته واستقراره بارتكاب الجرائم المختلفة من سرقة وسفك للدماء وانتهاك للاعراض وقطع للطرق .

فهل يجد القوالون ضبطا مثل هذا الضبط لاجهزة الدولة فى اى تشريع آخر ؟؟

ان حق الافراد في مقاتلة من منعهم حقهم أكبر ضمان يضمن عدم انحراف الحاكم عن الخطوط المرسومة في الشريعة الاسلامية

وخوف الحاكم من ثورة الافراد عليه يجعله دائما متحريا للحق والانصاف مبتعدا عن الظلم والانحراف ،

وخوف الفرد من العقاب الشديد المعدله ، اذا هو انحرف حبا في الاجرام واثارة الشر وشيوع الفساد أكبر ضمان لعدم عبثه بأمن الجماعة واستقرارها .

انه ضبط فذ لأجهزة الدولة .

اما أن المسلمين ـ حاكمين ومحكومين ـ لم يحرصوا على التقيد بشريعة القرآن فتلك مسألة لا يحمل اثمها القرآن . وانما يحمل اثمها العابثون بشريعة القرآن .

رواسب الرق :

لقد رأينا فيما سلف كيف عالج القرآن الكريم المشاكل المختلفة التي كانت تدع منابع الرقيق تتفجر باستمرار في المجتمعات الانسانية . وكانت حلوله حلولا عبقرية فذة ، لم تسبقه شريعة من الشرائع الى مثلها . لقد نظر الى مشكلة الرقيق فوجدها ـ كما قلنا ـ مشكلة متولدة من عدة مشاكل وليست هي مشكلة قائمة بذاتها مستقلة عما سواها .

من تلك المشاكل ما هو فكري ، وما هو اقتصادي ، وما هو اجتماعي ، وماهو كهنوتي ، وما هو عنصري ، وما هو طبقي . الخ ... فعمد الى المشاكل الفكرية والفلسفية والروحية . فحرر العقول والافكار والارواح من كل فكرة خاطئة ، ومن كل عقيدة فاسدة . وقضى على الفلسفات المنحرفة التي تجعل من الناس فريقا لهم السلطة والسيادة ، وفريقا عليهم الرق والاستعباد .

وقضى على الخرافات الكهنوتية التي كان رجال الدين يروجونها ، ويستغلون سذاجة الناس فيسترقون أرواحهم ، ويتحكمون في حياتهم ومصائرهم ، ويستلبون عن هذا الطريق أموالهم وحرياتهم . وضرب روح الغلظة والقسوة التي كانت

سائدة فى الشرائع والقوانين التى تحكم بها المجتمعات الانسانية حتى قضى عليها ، وأقام بدلها روح الرحمة والتعاطف ، واصلح الاوضاع الاقتصادية الفاسدة . فوزع الثروات توزيعا عادلا ، وحدد ملكية الارض وملكية النقد ، ومنع الاحتكار والاكتناز ، وحرم الربا والقمار والرشوة والقرصنة واللصوصية ، وجعل من حق الجماعة أن تشترك فى الضرورات الاولية للحياة . ومنع الافراد والجماعات من احتكارها واستغلالها فكل الناس فيها سواء . ووضع معايير جديدة توزن بها اقدار الناس ، وساوى بين الذكى والغبى ، والعالم والجاهل ، والاسود والابيض أمام القانون ، واطلق الحريات جميعها ، فكل الناس أحرار فى عقائدهم واعمالهم وتجاراتهم وتفكيرهم وتصرفاتهم فى حدود الاطار الاسلامى العام .

وحرم الحروب العدوانية ، واعد لكل عدوان عقوبة ، واحاط الانسانية بسياج من آدابه وتشريعاته ووصاياه . يضمن لها العزة والكرامة والحرية والعدل ، ووضع لكل مشكلة من المشاكل الانسانية حلا حاسما ترتضيه النفوس ، وتقتنع به العقول ، وتصلح به الحياة ، وتطمئن له القلوب والارواح .

وقد بقيت فى المجتمع الاسلامى رواسب للرقيق من عصور الجاهلية . ورواسب من أسرى الحروب التى كانت مشتعلة بين الاسلام واعدائه . وبقيت أمم وشعوب ما زالت مصرة على معاداة المسلمين ، والتربص لهم ، وشن الحروب عليهم ، والاغارة على بلادهم . وقد أبان لنا القرآن الكريم الحكم فى أسرى الحروب المشروعة . وقد سبق أن أبنا ذلك تفصيلا . ولم يقر القرآن سرقة الناس من بلادهم أو الاغارة عليهم بغيا وعدوانا . ثم استرقاقهم ، وجعل عقوبة من يفعل ذلك عقوبة صارمة . فاما ان يقتلوا او يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف او ينفوا من الارض وجفف كل المنابع التى كانت تتفجر بالرقيق فحرم الربا والميسر ، وقضى على عصابات القراصنة واللصوص . . وكل ذلك بيناه فيما سلف .

اما مارسب من الرقيق من عصور الجاهلية . فكل الآيات القرآنية الخاصة به دعت الى تحريره من ربقة الاسترقاق ،

ولم تجرده من آدميته . ولم تعتبره شيئا لا شخصا كما كانت تعتبره الشرائع القديمة ، وجعلته يقف مع غيره أمام القضاء موقف الند للند في جميع الحقوق والواجبات . أما في الجرائم فقد خففت عنه العقوبة في مقابل ما نقص من حريته لا كما كانت تفعل الشرائع القديمة التي تتخذ من سلبه الحرية مدعاة للاجحاف به والقسوة عليه ، وانزال كل أنواع الفظاعة والوحشية والجبروت به .

ان الشرائع القديمة كانت تتجاوز عن اخطاء السادة الأحرار ولا ترحم الارقاء ، وتقسو عليهم ، مع ان المنطق السليم يقضي بان نتجاوز عن اخطاء من لايملك حريته ، ولا يملك من أمر نفسه شيئا ، اذ ربما يكون الدافع لجريمته اغراء مالكه على ارتكاب الجريمة أو مشايعته المفروضة له . او أن ما يلقاه من جحود ونكران وارهاق ، أثار نفسه فارتكب جريمته ، وهذه هي الآيات البينات التي وردت في القرآن الكريم خاصة بالرقيق نوردها ، ليقتنع من يقتنع عن بينة ، وليفكر من يفكر عن بينة أيضا . وحتى لا تكون له حجة يستند عليها في كفره بالقرآن ، وافترائه على تشريعه السمح الاغر .

ما جاء في القرآن : يقول الله تعالى :

١ — (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) سورة البقرة آية ١٧٧ .

٢ — (وان خفتم الا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت ايمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا) النساء ٣ .

٣ — (والمحصنات من النساء الا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم) النساء ٢٣ .

٤ — « ومن لم يستطع منكم طولا ان ينكح المحصنات المؤمنات

فمما ملكت ايمانكم من فتياتكم المؤمنـــات والله اعلم بايمانكم بعضــكم من بعض . فانــكحوهن باذن اهلهن وآتوهن أجـورهن بالمعروف محصنات غير مســـــافحات ولا متخـذات أخدان فاذا أحصن فان أتين بفاحشـة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) النســاء ٢٥ .

٥ ــ (واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السـبيل وما ملكت ايمانكم ان الله لايحب من كان مختالا فخورا) النساء ٣٦ .

٦ ــ (وما كان لمؤمن أن يقتـــل مؤمنا الا خطأ ومن قتـــل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى اهله الا أن يصدقوا فان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى اهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما) النســاء ٩٢ .

٧ ــ لا يؤاخذكم الله باللغو فى ايمانكم ولكن يؤاخذكم بمـا عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون اهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم اذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون) المائدة ٨٩ .

٨ ــ انما الصدقات للفقراء والمســـاكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن الســبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) التوبة ٦٠ .

٩ ــ (والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ماملكت ايمانهم فهم فيه سـواء أفبنعمة الله يجحدون) (١) النحل ٧١

---

(١) جاء تفسير الخازن لهذه الآية قوله : فلا تحسبن الموالى يردون رزقهم على مماليكهم من عند انفسهم . بل ذلك رزق الله أجراه على أيدى الموالى للماليك ، والمقصود منه بيان ان الرازق هو الله سبحانه وتعالى لجميع خلقه وأن الموالى والمماليك فى الرزق سواء =

١٠ – (قد افلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغــو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهــم حافظون . الا على أزواجهم أو ما ملكت ايمانهم فانهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فاولئك هم العادون) المؤمنون ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ .

١١ – قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك ازكى لهم ان الله خبير بما يصــنعون . وقل للمؤمنات

= ويقول النسفى فى تفسيره : فكان ينبغى ان تردوا فضل ما رزقتموه عليهم حتى تتساووا فى الملبس والمطعم .

ويقول فريد وجدى : فما الذين فضلهم الله فى الرزق على غيرهم بمعطى مماليكهم الرزق المقسوم لهم بل معطيهم رزقهم هو الله نفســه وانما جعل رزقهم تحت أيديهم فهم وسطاء لاغير . فاستوى اذن المالك والمملوك كلاهما عيال الله . »

والخلاصة أن الكفار كانوا يأبون المســاواة مع عبيدهم ، ويأبون مشاركتهم فى الرزق ولا يردون عليهم فضل أموالهم ، بل كانوا يبعثرون أموالهم فى الضلال والكفر وشهوات النفس .

لقد كان الرقيق يقومون بتنمية الثروات التى كانت للسادة كما يفعل العمال الآن سواء كان ذلك بالتجارة او بالصناعة او بالزراعة . فيستأثر السادة بالارباح ويعيشــون عيشة ناعمة مترفة . ويعيش العبيد عيش الشظف والحرمان . كما هو حال العمال الآن فى البلاد المستعمرة وغيرها .

وقد عد الله ذلك جحودا بالنعمة . لان الشكر على النعمة والاحتفاظ بدوامها لا يأتيان عن هذا الطريق - وانما يأتيان عن طريق المســاواة والمشاركة . والبر بالناس .

وبهذه الآية الكريمة وضع الله لنا مبدأ الاشــتراكية أو المشاركة فى الاموال والارباح بين صاحب المال وبين العامل . فلعل مجتمعاتنا الاسلامية تتفطن لما شرع الله لها من حقوق وتعمل على نوالها . ولعــل الفقهــاء والمشرعين يفيئون الى أمر الله وتشريعاته المحكمة العادلة البارة . ويحققون ماشرعه الله لعباده وحينذاك يحق لنا أن نقول : أننا ندين بالقرآن ونهتدى فى حياتنا بهديه .

يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ماظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن او اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن او نسائهن او ما ملكت ايمانهن او التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بارجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعا أيهـــا المؤمنون لعلـــكم تفلحون) النور ٣٠ ، ٣١.

١٢ — (وأنكحوا الآيامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم) النور ٣٢ .

١٣ — (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال‌الله الذى آتاكم ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم) النور ٣٣ .

١٤ — (يا أيها الذين آمنوا ليستاذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) النور ٥٨ .

١٥ — (ضرب لكم مثلا من انفسكم هل لكم‌مماملكت ايمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم انفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) الروم ٢٨ .

١٦ — (وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل - أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما النبى أولى بالمؤمنين من انفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولو الارحام

بعضهم اولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين الا ان تفعلوا الى أوليائكم معروفا كان ذلك فى الكتاب مسطورا) الاحزاب ٤ ، ٥ ، ٦ .

١٧ — (يا ايها النبى انا احللنا لك ازواجك اللاتى آتيت اجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى ان اراد النبى ان يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم فى ازواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما) الأحزاب ٥٠.

١٨ — (ترجى من تشاء منهن وتؤوى اليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك ادنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم مافى قلوبكم وكان الله عليما حليما . لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من ازواج ولو اعجبك حسنهن الا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شىء رقيبا) الاحزاب ٥١ ، ٥٢ .

١٩ (لا جناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا اخوانهن ولا أبناء اخوانهن ولا أبناء اخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت ايمانهن واتقين الله ان الله كان على كل شى شهيدا) الاحزاب ٥٥

٢٠ — (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير) المجادلة ٣ .

٢١ — (والذين هم لفروجهم حافظون . الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) المعارج ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ .

٢٢ — (فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة) البلد ١١ ، ١٢ ، ١٣ .

***

هذا كل ما جاء فى القرآن الكريم مما هو مختص برواسب الرقيق من العصور المنحدرة ، ومن بقايا الحروب التى كانت

مشتعلة بين المسلمين وغيرهم من اعداء الاسلام . ومما هو جدير بالملاحظة أن ملك اليمين لم يأت فى القرآن الا بصيغة الفعل الماضى وهذا يرجح ما نذهب اليه من ان المقصود بملك اليمين هو ماريب من زمن الجاهلية ، ومن اسرى الحروب الاسلامية . ولم نجد آية واحدة جاءت بصيغة فعل المضارع فليتنبه لهذا المتنبهون .

ان الآية الاولى (رقم ١) تلزم الاغنياء أن يخصصوا من اموالهم حصة لفك الرقاب المسترقة فى المجتمع الاسلامى ، ليكون مجتمعا حرا ، كل الناس فيه أحرار متساوون . وجعل الله ذلك هو البر الحقيقى الذى يريده . اما المجالات والمناقشات فيما لا يعود على المجتمع بفائدة فليس ذلك من البر فى شىء . « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » . اعبدوا الله كما تشاءون ولا تزعموا انكم بارون الا اذا انفقتم المال فى الوجوه التى بينها الله لكم فى هذه الآية الكريمة . تلك هى الانسانية السامية ، وذلك هو البر الانسانى الجدير بالتمجيد والخلود . اما المناقشات البيزنطية فى شأن العبادات والتمحكات البدوية الجاهلية فلا لزوم لها ، لأن العبادات انما هى وسائل لغايات اسمى .

وفى الآية الثانية (رقم ٢) يحظر الله على الناس تعداد الزوجات الحرائر عند خشية العدل بينهن . أما ماملكت الايمان فانه لم يحدد لهن عددا ، وترك التعداد مباحا من غير قيد ولا شرط . والحكمة فى ذلك واضحة فان الأمة اذا حملت من زوجها ، واصبحت أم ولده تحررت . فالقرآن لم يحدد العدد ، ولم يحظره ، ولم يقيده بقيد لتحرر اكبر كمية من النساء الرقيقات فى المجتمع . وحكمة أخرى ذكرها الله تعالى فى هذه الآية الكريمة فقال : (ذلك أدنى الا تعولوا) أى لاتجوروا وتثقلوا فنكاح الحرائر له تكاليف مثقلة ، اما نكاح ما ملكت أيمانكم فهو لايثقلكم بتكاليف تبهظكم . وفى ذلك حث للرجال على نكاح الاماء ليتنقلن من الرق الى الحرية . وهذا التشريع الكريم بعكس ما كانت عليه الشرائع السابقة ، اذ كان بعضها ينزل العقاب الشديد بمن يطأ المسترقة ، وبعضها يلحقه بزمرة الرقيق . أما القرآن الكريم فهو يحث عليه ليلحق المسترقة بالحرائر فاين هذا من ذاك ؟

وفى الآية الثالثة (رقم ٣) تأكيد للمعنى الموجود فى الآية الثانية وهو أن المحصنات من النساء محرم نكاحهن حتى يخلصن من أزواجهن اما بموت أو طلاق. أما سبايا الحرب فان ازواجهن قد قتلوا فى المعركة ، أو أن ازواجهن ما زالوا محاربين لله ولرسوله وربما يكون لديهم سبايا من المسلمات فالمعاملة بالمثل فى هذه الحالة واجبة . فنكاح السبايا مباح لمن هن فى حوزته وفى ذلك حكمتان : الاولى انها معاملة بالمثل . والثانية أن نكاحهن وسيلة لتحريرهن اذا أصبحن أمهات أولاد . كما ذكرنا ذلك آنفا .

وفى الآية الرابعة (رقم ٤) حض من الله تعالى على نكاح ملك اليمين نكاحا مماثلا لنكاح الحرائر باذن أولياء أمورهن ، وبصداق مدفوع ، وعقد مشروع . وسمى أولياء أمورهن أهلهن لئلا يشعرهن بالاهانة ولايسميهن اماء وانما يسميهن فتيات . ويقول الله تعالى : « بعضكم من بعض » - فليس هناك ميزة لكم عليهن فى شيء فأنتم منهن ، وهن منكم ، وكلكم من آدم عليه السلام .

ثم انظر الى سماحة الاسلام وكرم القرآن فانه بعد أن يرتفع بهن الى مرتبة النساء الحرائر يخفف عنهن العقوبة اذا أتين بفاحشة بعد كل ذلك فيقول تعالى : (فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) - يضع القرآن الكريم فى حسابه عند استحقاقهن العقوبة حالتهن الشعورية . فشعورهن مازال غير مستقر بأنهن اصبحن حرائر . فلهذا الشعور النفسى الذى يكمن فيهن خفف عنهن العقوبة .

ذلك هو القرآن ، وهذا هو شرعه الرحيم العادل .

وفى الآية الخامسة (رقم ٥) يأمر بالاحسان الى ماملكت الايمان . ويجعلهم فى مصاف الوالدين وذوى القربى والاصحاب الذين لابد من الاحسان اليهم والعناية بهم وعدم اهمالهم ، ويجعل هذا الاحسان مرادفا لعبادة الله وحده وعدم مشاركة أحد معه سبحانه فى العبادة ، على الا يكون هذا الاحسان مشوبا بالاختيال أو بالفخر ، لأن الله تعالى لايحب من كان مختالا فخورا

وفى الآية السادسة (رقم ٦) جعل الله كفارة القتل الخطأ

تحرير رقبة مؤمنة الى جانب الدية ، وســـواء وقع القتل الخطـا فى نفس المجتمع الاســــلامى أو فى غيره ان كان المؤمن قتل خطأ رجلا من الاعداء ولكنه مؤمن ، أو أن القتل الخطـــأ وقع من مؤمن فى قوم بينهم وبين المؤمنين ميثاق ، ففى كل تلك الاحوال لابد من تحرير رقبة مؤمنة على القادر على التحرير .

وفى الآية السابعة (رقم ٧) جعل الله كفارة الايمان تحرير رقبة ، وفى هذه لم يشترط رقبة مؤمنة فيكفى أن يكون تحرير رقبة مؤمنة أو غير مؤمنة (والمراد بالمؤمنة المؤمنة بدين الاسلام)

وفى الآية الثامنة (رقم ٨) فرض على الدولة اخراج ثمن وارداتها لتحرير الرقاب ويؤكد الله ذلك بانه فريضة من الله اذ يقول : « فريضة من الله والله عليم حكيم

فأين الحكومات التى قامت باسم الدين بأداء هذه الفريضة ولماذا لاتؤديها ؟ أين دعواها الدين ؟ وأين دعواها الطويلةالعريضة فى الحرص على شعائره واداء فرائضه ؟ فلتعلم تلك الحـــكومات انها خادعة مضـــــللة أو انها لا تعرف عن الاســـــلام الا اسمه . وحسبها ذلك خزيا فى الدنيا وفضيحة بين الناس ولها فى الاخرة عذاب اليم .

وفى الآية التاسعة (رقم ٩) ينعى الله تعـالى على الذين فضـلوا فى الرزق عدم مشاركة ماملكت أيمانهم فيمـــا لديهم من سعة الرزق ، فلايجعلون انفسهم وماملكت أيمانهم فيه سواء ، لانهم جحدوا نعمة الله عليهم . ولذلك يقول الله تعالى : «افبنعمة الله يجحدون »

وقد كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه رسالة الى ابى موسى الاشعرى يقول فيها : واقنع برزقك من الدنيـا فان الرحمن فضل بعض عباده فى الرزق بلاء يبتلى به كلا ، فيبتلى من بسط له كيف شكره لله وأداؤه الحق الذى افترض عليه فيما رزقه وخوله .

فاين قول الله تعـالى هـــذا من معاملة الأمم الأخرى للعبيد ، وتلك الذين كانوا يتركون للعبيد الاعمال الشـــاقة ويستمتع

السادة بعرقهم وجهودهم . ويقسون عليهم فى المعاملة ولايؤدون لهم من الطعام والشراب والملبس والماوى مايكفيهم ، ان هؤلاء وامثالهم يجحدون نعمة الله ويظلمون اخوانهم فى الانسانية ، اما شريعة القرآن فهى تفرض على الدولة أن تحـــرر الارقاء وتحض الاغنياء على تحريرهم والاحسان اليهم كما هو مبين بأفصح بيان وفى الآية العاشرة (رقم ١٠) يبشر الله المؤمنين الذين يخشعون فى صلاتهم ويعرضون عن لغو الكلام ، ويؤدون الزكاة ، ويحفظون فروجهم عن النكاح الا على ازواجهم وما ملكت ايمانهم . يبشر الله المؤمنين الذين يفعلون ذلك بالفـلاح فيقول : (قـد أفلح المؤمنون) الخ اما من يبتغى ما وراء ذلك (فأولئك هم العادون) وقد سبق بيان نكاح ملك اليمين ، مفصلا فى الآيات السابقـة فلا حاجة الى اعادة ماتكلمنا عنه فى مواضعه السالفة . ولكنا نقول ان التكرار فى اباحة تعدد السرارى واباحة نكاحهن فيـه حكمة اخرى غير الحكم التى ابنا عنها . فأسيرات الحرب نساء كالنساء ، ولهن رغبـــات طبيعية بدافع من الغريزة الانسانية فلابـد من اشباعهـا . فان لم يبح المشرع هذا النكـاح فانهن يضطررن لاشباع غرائزهن من طريق الفحشاء . فيقع المجتمع فى مـساوىء وامراض اجتماعية . اذ يكثر نتيجة لذلك الفساد الجنسى ، ويكثر اللقطاء الذين يكونون عالة على المجتمع . والقرآن يريد تجنيب المجتمعات هـذه الامراض . فيلتحق الابناء باباحة نكاح الاماء بآبائهن ، وتتحرر الاماء عن هذا الطريق اذ يصبحن امهات أولاد .

وفى الآية الحـادية عشرة (رقم ١١) أمر بغض البصر ، وحفظ الفرج عن المحارم للرجال ، وامر مثله مع عـدم ابداء الزينة للنساء ، ولهن ان يبدين زينتهن امام من ذكرهم الله فى الآية الكريمة ومنهم ما ملكت ايمانهن من الرجال .

وفى الآية الثانية عشرة (رقم ١٢) حث على انكـاح ملك اليمين من الرجال ، ونكاح ملك اليمين من النساء . فلا يمنعكم فقرهم من انكاحهم ، ولافقرهن من نكاحهن فان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم .

وفى الآية الثالثة عشرة (رقم ١٣) يأمر الله بمكاتبة من

ارد تحرير نفســه من الذكور والاناث ، ويأمر الله كذلك بمساعدتهم فى انجاز هذه المكاتبة وتيســيرها عليهم ، واعطـائهم من المـال مايسـهل لهم اجراءات التحرير . وينهى عن اكراه الفتيات ، كما يسميهم القرآن وهن الاماء ، عن مزاولة البغـــاء كما كانوا يفعلون فى زمن الجاهلية . ومن يكرههن على ذلك يعد معرضا عن أمـــر الله مرتكبا للمعاصى . أما من أكرهها مالكها على ارتكاب الرذيلة فان الله يعدها مجبرة على فعل فاحشة لم تردها فيتولاها الله بمغفرته ، ولا يوجب عليها عقابا ولا يعدها آثمة .

وفى الآية الرابعة عشرة (رقم ١٤) من أدب القرآن الكريم جاء الامر بالاستئذان لملك ايمين وللذين لم يبلغوا الحـلم فان هؤلاء واولئك فى داخل البيوت لا يستاذنون فى دخولها ، لانهم اصحابهـا او كاصحابهـا . ولكن هناك أوقاتا لابد فيهـا من الاســتئذان ، تلك الاوقات هى : وقت الظهـيرة حيث يتخفف الانسـان من ثيابه ، ويسـتمتع بقيلولة هادئة مع اهله . وكذلك بعد صلاة العشاء ، اذ يتهيا الانســان فيها للنوم ولمضاجعة اهله . وفى آخر الليل حيث يقوم الانسـان من نومه وهو بملابس النوم هذه الاوقات الثلاثة يأمر الله فيها بالاستئذان . وهو أدب تحتمه الضرورة ، ويدعو اليه الخلق الفـاضل ، وترتاح اليه النفـوس المهذبة .

وفى الآية الخـامسة عشرة (رقم ١٥) ضرب الله مثـلا للكافرين من انفسـهم فان هؤلاء الكافرين لايرضون أن يشاركهم ارقاؤهم فى أموالهم فضلا عن أن يسـاووهم فيها . فكيف يجعلون لله مالك الكائنات كلها شركاء يشاركونه فى عبادته . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، ثم جعلهم هم وما ملكت أيمانهم فى الرزق سـواء وليس لهم أن يردوهم عنه .

وفى الآية السـادسة عشرة (رقم ١٦) ابطال لعادة قديمة ينشأ من جرائها ارتباك فى المواريث والانسـاب . اذ كان بعض الناس يتبنى ابنا ليس من صلبه فيلحقه بنسبه وميراثه ، فأمر الله بترك هذه العادة وامر بأن يدعى الابناء لآبائهم الحقيقيين . ومن لم يعرف له اب فهو اخ فى الدين . ومولى ، له ماللنـاس جميعا من الحقوق والواجبات ، وعليه ماعليهم فى ظل مجتمع

لا خلخلة ولا اضطراب فيه ، وفى هذه الآية ايضا ابطال لاجراء مؤقت اتخذه الرسول الكريم فى مطلع الدعوة حين آخى بين المهاجرين والانصار . وأعاد المواريث الى أولى الارحام كما أعاد التكافل فى الديات الى الأقرباء . الا أن يصنع الانسان باختياره معروفا الى من يشاء ، ففعل المعروف والاحسان لاحظر عليه .

وفى الآية السابعة عشرة (رقم ١٧) خاصة بما أحل الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم من النساء . وأحكامها خصوصية بالرسول وحده . واما غير النبى صلى الله عليه وسلم فاحكامهم معروفة فيما يحل لهم من النساء ومالايحل . فهى آية تشريع لنكاح من يحل نكاحها من النساء للنبى خاصة ، ولمن يحل نكاحها من النساء لغير النبى . وما ذكرناها الا لما جاء فيها من ملك اليمين .

وفى الآية الثامنة عشرة (رقم ١٨) حرم الله على النبى صلى الله عليه وسلم الزواج بغير نسائه اللواتى فى عصمته الا ان ينكح ماملكت يمينه . وقد روت أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضى الله عنها ان هذا التحريم الغى قبل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، وتركت له حرية الزواج ، ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يتزوج غيرهن فكن هن امهات المؤمنين .

وفى الآية التاسعة عشرة (رقم ١٩) استثناء لمن لايحتجب النساء عنهم من الرجال المحارم المذكورين فى الآية الكريمة . وفيها ان ملك اليمين لاتحتجب عن مالكها .

وفى الآية العشرين (رقم ٢٠) كفارة الظهار تحرير رقبة . ولم يشترط هنا رقبة مؤمنة فاى رقبة كافية فى هذه الكفارة .

وفى الآية الحادية والعشرين (رقم ٢١) أمر بحفظ الفروج الا على الازواج وما ملكت الايمان . أما من لم يحفظ فرجه فانه يتعدى حدود الله .

وفى الآية الثانية والعشرين (رقم ٢٢) حض من الله على اقتحام العقبة النفسية التى تقف حائلا بين المرء وفعل الخير ، واقتحامها لايكون الا بفك الرقبة ، أو باطعام الطعام كما هو مذكور فى الآية .

تلك هي جملة الآيات التى وردت فى القرآن الكريم فيما يختص بالرقيق الراسب من زمن الجاهلية ومن اسرى الحروب والذى بقى فى أيدى المسلمين .. وكان نظام الرقيق نظاما شائعا فى جميع الامم والشعوب .

فهل وجدنا بعد هذه الدراسة واستعراض آيات القرآن ، آية قرآنيـــة أو حديثـــا نبويا يفرض الرق على احد ؟ او ينزل بالرقيق الذى كان موجودا الى الدرك التى نزلت به اليه ، الشرائع والنظم والقوانين التى كانت سائدة قبل القرآن ؟!

ان كل ما جاء فى القرآن انمـــا هو لتصفية الرقيق وانهاء نظامه .

ان القرآن أعاد لهذه الفئـــة المنكوبة آدميتها ، واعطاها كل حرياتها المفقودة ، وضرب بالفلسفات المنحرفة والقوانين الجائرة عرض البحر وعرض الصحراء ، وارتفع بكل انسان ذكرا أو أنثى الى مراقى الحرية ومدارج الكمال وجعل كل الناس فى مستوى واحد، فكلهم لآدم وآدم من تراب . ولا فضل لأحد على أحد الا بالتقـوى فلا أجناس ، ولا الوان ، ولا طبقات تفضل بعضها بعضا ، وكلهم فى الانســانية اخوان .

ان الذين يتهمون القرآن بضرب الرق على فئـــة من الناس يفترون على القرآن ، ويضـــلون الناس ، والقرآن يتحدى بآياته الضـالين والمفترين .

ما جاء فى السنّة :

اما ما جاء فى السنة فالأحاديث والأعمـــال الخاصة بالرقيق انما جاءت مطابقة لآيات القرآن وكلها للتحرير وليست للاستعباد والاسترقاق . فمن ذلك قول الرســـول الكريم : « اطعموا الجائع وفكوا العانى » ، والعانى هو الأسير . وجاء فى صحيح البخارى فى (كتاب المـــكاتب) : وقال دوح عن ابن جريج قلت لعطـــاء : أواجب على اذا علمت أن له مالا — أى غلامى — أن أكاتبـــه ؟ « قال . ما أراه الا واجبا ، وقال عمر بن دينار قلت لعطاء أتاثره عن أحد قال : لا . ثم أخبرنى أن موسى بن أنس أخبره أن ســـيرين

سال انسا المكاتبة وكان كثير المال فابى ، فانطلق عمر رضى الله عنه فقال : كاتبه ، فأبى فضربه بالدرة ويتلو عمر « فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا » فكاتبه .

وهذه القصة المأثورة ترينا أن الحاكم له ان يجبر الممتنع عن المكاتبة بالمكاتبة تحقيقا للحرية التى ضمنها الله لعبـاده ، وروى مسلم عن أبى مسعود البدرى قال : « كنت أضرب غلاما بالسوط فسمعت صوتا من خلفى » « اعلم ابا مسعود » فلم أفهم الصوت من الغضب • فلما دنا منى اذا هـو رسـول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو يقول : « اعلم أبا مسعود ، اعلم أبا مسعود » فألقيت السوط من يدى ، وفى رواية قلت يا رسول الله : هو حر لوجه الله . فقال : « أما لو لم تفعل للفحتك النار ، او لمستك النار » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ايما رجل كانت له جارية أدبها فأحسـن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها . وأعتقها وتزوجها فله اجران . »

وجاء فى صحيح البخارى : قال عروة : قالت عائشـة رضى الله عنها : ان بريرة دخلت عليها تستعينها فى كتابتها وعليها خمسة آواق نجمت عليهـا فى خمس سنين . فقالت بها عائشـة ـ ونفـست فيهـا ـ أرأيت ان عددت لهم عدة واحدة ، أيبيعك اهلك فاعتقك فيكون ولاؤك لى ؟ فذهبت بريرة الى اهلها فعرضت ذلك عليهم . فقالوا : لا الا ان يكون لنا الولاء . قالت عائشة : فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال لهارسول الله صلى الله عليه وسلم : اشتريها فاعتقيها فانما الولاء لمن اعتق ثم قام رسـول الله صلى الله عليه وسلم فقـال : ما بال رجال يشترطون شروطا ليست فى كتا بالله ؟ من اشترط شرطا ليس فى كتاب الله فهو باطل . شرط الله أحق وأوثق ».

فهـذا الحديث يرينا حرص المشرع الكريم على التعجيـل بتحرير المسترق بدون شرط ولا قيد الا ما اشترطه الله سبحانه وتعـالى فان شرطه احق وأوثق . ذلك هو هدى الله وسـنة رسوله .

ان شريعتنا السمحة لا تدع فرصة تمر الا وتغتنمها لالغاء

على الرق . فقد رأينا فى القرآن الكريم أن كفارات القتل الخطأ والظهار والأيمان تحرير الرقاب . ورأينا الرسـول الكريم يقول لمن ضرب غلامه « الله أقدر منك » فلما اعتقه قال له : « أما انك لو لم تفعل للفحتك النار » ورأينا عمر يضرب بالدرة من يمتنع عن مكاتبة غلامه حتى كاتبه · ان شريعتنا شريعة الحرية وليست كما يقـول الجاهلون والمبطلون انها شريعة الاسـترقاق . وأما المسلمون الذين يسترقون عباد الله من ذكور واناث فانهم ضـلوا شريعة الاسـلام أو أن لهم اسلاما غير دين الاسلام الذى جـاء به محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام .

خلاصة ما جاء فى القرآن والسنة

والذى نستخلصه مما مر بنا من الآيات والأحاديث .هو

اولا : الحق للمسترق فى طلب الحرية بالكاتبة ، والزام القضاء باجبار سيده على ذلك . كما فرض على المجتمع معاونته بالمال . حتى يحقق حريته وينالها بأسرع وقت ممكن .

ثانيا : من قال لعبده : انت حر بعد وفاتى فليس له ان يبيعه .. وليس له ان يرجع فيما قال وذلك هو المدبر ومن اعتق عبده بأى لفظ كان سواء كان جادا أو مازحا سكران او صاحيا ينفذ العتق .

ثالثا : فرض على الدولة اخراج ثمن وارداتها من الزكاة لتحرير الرقاب .

رابعا : جعل كفارات المآثم عتق الرقاب .

خامسا : اذا لطم السيد عبده أو جلده فكفارته عتقه .

سادسا : يقتل السيد بعبده ويقطع بقطعه . ويجدع بجدعه .

سابعا : الترغيب بتزويج الأرقاء والمسترقات من الاحرار والحرائر .

ثامنا : امر بأن يطعم السادة مواليهم مما يأكلون ، ويكسونهم مما يكتسون ونهاهم من كل ما يجرح شعورهم ويمس آدميتهم بالفعل او بالقول » جدا او مزاحا .

تاسعا : من جاء من المسترقين الى جماعة المسلمين حرروا حالا وليس لأحد الحق فى اعادتهم للرق .

عاشرا ـ حث القرآن على الاعتاق ، وجعله من أعظم القربات عند الله .

حادى عشر – كل مسترقة تنال حريتها بمجرد انجابها من سيدها .

ثانى عشر – حرم اباحة المسترقة لكل من ارادها وجعـــل عقوبة من يفعل ذلك شديدة صارمة .

ثالث عشر – من ارتكبت الفاحشة من المسترقات فعليها نصف العقوبة لا العقوبة الكاملة كما هو الشأن مع الحرائر .

رابع عشر – اذا انكر السيد عتق عبده يحلف المسترق ويقضى له بذلك وفى ذلك مخالفة للقاعدة « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر» .

خامس عشر – ولاء المكاتب لمن دفع المال وهيأ له فرصـــة التحرر وحرمان مالكه من الولاء لئلا يتقاعد الناس عن تسهيل أمر الحرية لمن يطلبها .

ذلك ماصنعه الاسلام لظاهرة لا يد له فيها ونظام لم يضعه ولم يرتح اليه بل نقض قواعده من الأساس وسد منابعه ، وقضى على أسباب تفجرها فى وقت كان هذا الوضع سائدا فى كل الشعوب وتعترف به كل القوانين ، وتحبذه وتدعو اليه كل الفلسفات . ولم ينكره احد من المنتسبين للأديان السابقة للاسلام .

اننا نكتفى الآن بما سردناه تحت هذا العنوان (ما جاء فى السنة) ولندع أعلام المسلمين من علماء وأدباء ومفكرين يتحدثون عن التحرير . فى القرآن والسنة ، فان أعلام المسلمين الذين فهموا دين الله وشريعته واستشفوا روح الاسلام . واستحقوا أن يكونوا متصدرين مجالس الافتاء لم تمل بهم الاهواء الى تغطية وجه الحق . انهم قالوا الحق وجهروا به حبا فى الله ، واخلاصا لشريعته السمحة البيضاء .

أولئك هم المنارات التى تضىء ظلمات الجهل ، وتحطم الغرور والتعالى والاستكبار ، وتصيب الجاهلين والمغرورين اصابة تجعلهم سخرية الساخرين وعبرة المعتبرين .

الامام محمد عبده :

اذا نظرنا فى تفسير « جزء عم » للامام المجتهد الذى هـــدم جدار الجمود والرجعية ، وجعل الجامدين والرجعيين يتوارون عن أعين الناس خزيا وخوفا من أن يضربهم الناس بالحجـــارة · ورفع لواء التحرر من التقليد الأعمى ، وخلص العقول والأفكار من أوهـــام المقلدين حجة الاسلام الشيخ محمد عبده رضى الله عنه ·

وجدناه يقول : عند تفسير قوله تعالى (فك رقبة) من سورة (البلد) : « فاراد منها ـ أى العقبة ـ الطريق التي يصعب سلوكها الى حيث تنال سعادة الدنيا والآخرة ، وانما كانت صعبة الســلوك لمعارضة الهوى ومغالبة الشهوة لسالكها · وفك الرقبة عتقها او المعاونة عليه ، وقد ورد فى فضل العتق ما بلغ معناه حد التواتر فضلا عما ورد في الكتاب · وهو يرشد الى ميل الاسلام الى الحرية وجفوته للأسر والعبودية » ·

فالاسلام ـ كما يقول الامام ـ يجافى الأسر والعبودية · وهذا القول مستخلص من المبادىء الأولى فى الاســـلام ، والتى بيناها بوضوح فيما سلف من هذا الكتاب · ولو أن الاسلام شرع الرق لما خفى على الامام وهو الحجة الضليع بشرع الله وهدى رسوله ·

واذا نظرنا فى « كتاب التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر ، وهو من كتب « اخترنا لك » لمؤلفه الفريد بلنت وجـــدنا للامام الشيخ محمد عبده كتابا بعث به الى هذا المؤلف الانجليزى (ألفريد بلنت) وكان صديقا للامام يقول فيه : « أما عن تجـــارة الرقيق فنبلغكم بأن الوزارة الراهنة تعمل بجد فى الغائها · والدين الاسلامى لا يعارض فى هذا الالغاء بل بالعكس نرى أن أوامر الدين تمنع من اتخاذ الرقيق الا من الكفار الذين يقاتلون المسلمين · فالعبد فى الواقع أسير أخذ فى حرب مشروعة ، أو هو احد أفراد أمة ليست على صفاء فى علاقاتها بأمراء المسلمين ، وليست بينها وبينهم معاهدات أو محالفـــات تحميها ، زد على ذلك أن الكافـــر الذى ينتمى الى أمـــة متحالفة مع امير مسلم لا يمكن أن يؤخذ فى الرق · ومن هنا يتبين لكم أن الدين الاسلامى لايعارض فى الغاء الرقيق ، كما هو الحادث فى هذه الأيام ، بل هو لا يوافق على استمراره · وأولئك العلماء الذين

لا يوافقون على هذا الرأى فى انجلترا أو غيرها ، عليهم ان يأتوا الينا ويعلمونا نحن شيوخ الأزهر أصول ايماننا ، فان هذا العمل يصير من الأمور المدهشة والعالم الاسلامى سيصعق ، وينعقد لسانه عندما يعلم أن مسيحيا قد أخذ على نفسه تعليم علماء أكبر جامعة اسلامية أصول ديانتهم وكيفية شرح القرآن ·

هذا وستصدر فتوى من شيخ الاسلام اعلانا بأن الغاء الرقيق يوافق روح القرآن والسنة ، وستجتهد الحكومة المصرية فى ازالة جميع العوائق فى سبيل هذا الالغاء ، ولن يهدأ بالنا حتى تمحى هذه التجارة من جميع الأراضى المصرية » ·

والمفهوم من كتاب الامام هذا أن الرقيق الذى كان موجودا بمصر لا يتفق مع روح القرآن والسنة وأن روح القرآن تتفق مع الغاء الرقيق ·

ورحم الله الامام ماذا يقول لو أنه رأى الآن ـ وبعد مضى مايزيد على نصف قرن من وفاته ـ أن هناك فى غير انجلترا وفى بلاد اسلامية علماء ليسوا من المسيحيين ولكنهم من المسلمين تمتلىء دورهم بما لا يتفق مع روح القرآن والسنة ، ولهم دعوى طويلة تقول انهم مسلمون ومن علماء المسلمين أيضا ·

الشيخ محمد رشيد رضا :

واذا تركنا الامام الشيخ محمد عبده ، وانتقلنا الى تلميذه صاحب المنار الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله وجدناه يقول فى كتابه (الوحى المحمدى) تحت عنوان (المقصد العاشر من مقاصد القرآن) « تحرير الرقبة » ان استرقاق الأقوياء للضعفاء قديم فى شعوب البشر · ثم يقول : « كانت شعوب الحضارة القديمة من المصريين والبابليين والفرس والهنود واليونان والروم والعرب وغيرها تتخذ الرقيق ، وتستخدمه فى أشق الأعمال ، وتعامله بمنتهى القسوة والظلم ، وقد أقرته الديانتان اليهودية والنصرانية وظل الرق مشروعا عند الافرنج الى أن حررت الولايات الأمريكية المتحدة رقيقها فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ، وتلتها انكلترا

باتخاذ الوسائل لمنعه من العالم كله في أواخر القرن التاسع عشر ، ولم يكن عمل كل منهما خالصا لمصلحة البشر العامة ـ فان لهم فيها مصالح خاصة ـ ولا جنوحا للمســاواة بينهم ، فان الأولى لا تزال تفضل الجنس الأبيض الأوروبي المتغلب على الجنس الأحمر الوطني الأصلي بما يقرب من الاستعباد الســياسي المباح عند جميع الأفرنج للشعوب ، بل يستبيح الشعب الأبيض تعذيب المخالف له في لونه في الولايات المتحدة على كل ذنب بما لا يبيحه القانون • فيتخطفــه دعارهم من أيدي الحكام والشرطة ، وينكلون به أشد تنكيل ، ويمثلون به أفظع تمثيل ، كما أن انكلترا تحتقر الهنود وتستذلهم ، ولــكن النهضة الهندية في هذا العهد قد خفضت من غلوائهم ••• وطامنت من كبريائهم ، وغيرهما من الافرنج المســتعمرين شر منهما ظلما وقسوة وكل منهم يأبون أن يصلوا في كنائس مستعمراتهم مع أبناء البلاد فيتناوبون الصلاة فيها • فلما ظهر الاســلام وأشرق نوره الماحي لكل ظلام كان مما أصلحه من فساد الأمم ، أبطال ظلم الرقيق وارهاقه ، ووضع الأحكام الممهدة لزوال الرق بالتدريج الممكن بغير ضرر ولا ضرار ، ولا بغي ولا استكبار اذ كان ابطاله دفعة واحــدة متعذرا في نظام الاجتماع البشري من الناحيتين : ناحية مصــالح الســادة المسترقين وناحية معيشة الارقاء المستعبدين •

فان الولايات المتحدة لما حررت رقيقها كان بعضهم يضرب في الارض يلتمس وسيلة الرق فلا يجد ما يحسنه أو يقدر عليه ، فيرجع الى سادته يرجو منهم العود الى خدمتهم كما كان •

وكذلك جرى في السودان المصري • فقد جرب الحــكام من الانجليز أن يجدوا لهم رزقا بعمل يعملونه مستقلين فيه مكتفين به فلم يكن فاضطروا الى الأذن لهم بالرجوع الى خدمة الرق الســابقة بشرط أن لا تسمح للمخدومين ببيعهم والاتجار بهم •

وتعليقنا على ما جاء في كلام الشيخ رشيد رضــا من تصرف الأمريكان والانجليز لتحرير الأرقاء • انهم لم ينظروا لمشروع الرق نظرة عميقة ، كما نظر اليها الاسلام • فهم عمدوا لتحرير الرقيق دون أن يعمدوا الى اصلاح النظرة الفلسفية المنحرفة التي تقــول : ان بعض الناس خلقوا للحكم والسيادة ، وبعضهم خلقوا للأسترقاق

وهى النظرية القديمة التى كان يقولها أفلاطون وأرسطو من اليونان، ومنو من الهنود ، ولم ينظر الانجليز والامريكان الى الفساد الاقتصادى ، الذى تقوم عليه مجتمعاتهم . فان الرأسمالية فى كلتا الدولتين مهيمنة على السياسة الاقتصادية ، كما أن الاحتكارات (الامتيازات) قائمة لديهم . أما الإسلام فقد نظر الى الفساد الاقتصادى فاصلحه بما فصلناه فى فصول هذا الكتاب ، وقضى على كل ألوان التمايز ، كما قضى على جميع الفلسفات المنحرفة ، كما بيناه فى مواضعه من هذا الكتاب .

وبذلك استطاع الاسلام أن يحرر الرقيق وأن يبطل الرق ويسد منابعه حتى لم يعد لها أثر فى التنظيم الاسلامى لحياة الجماعة .

ونعود الآن لما جاء فى (الوحى المحمدى لمؤلفه السيد رشيد رضا) يقول السيد رشيد فى صفحة ٢٩٠ تحت عنوان (هداية الاسلام فى تحرير الرقيق) .

« منع الاسلام جميع ماكان عليه الناس من استرقاق الاقوياء للضعفاء بكل وسيلة من وسائل البغى والعدوان وقيده باسترقاق الأسرى والسبايا فى الحرب التى اشترط فيها ما تقدم بيانه من دفع المفاسد وتقرير المصالح ومنع الاعتداء ومراعاة العدل والرحمة،(١) وهى شروط لم تكن قبله مشروعة عند المليين ولا عند اهل الحضارة فضلا عن المشركين الذين لاشرع لهم ولا قانون ولست أعنى باستثناء أن الله تعالى شرع لنا من هذا النوع من الاسترقاق كل ماكانت الامم تفعله معاملة لهم بالمثل بل شرع لأول الامر من المسلمين مراعاة المصلحة للبشر فى امضائه وابطاله بأن خيرهم فى أسرى الحرب الشرعية بين أمرين (أولهما) المن عليهم بالحرية فضلا واحسانا ورحمة (ثانيهما) الفداء بهم وهو نوعان : فداء بالمال ، وفداء بالأنفس اذا كان لنا أسارى أو سبى من قومهم .

ثم يقول : « ولما كنا مخيرين فيهم بين اطلاقهم بغير مقابل

---

(١) راجع المقصد الثامن من مقاصد القرآن فى كتاب الوحى المحمدى للسيد رشيد رضا .

والفداء بهم جاز أن يعدهذا أصلا شرعيا لابطال استئناف الاسترقاق في الاسلام ، فان ظاهر التخيير بين هذين الأمرين أن الأمر الثالث الذى هو الاسترقاق غير جائز » . انتهى ما نقلنـــــاه عن الشيخ رشيد رضا .

وانى اكتفى بما نقلته عنه ولكن الشيخ رشـــيد افاض فى الموضوع بما أرانى لست فى حاجة الى نقل افاضـــــــته ، فمن أرادها فليرجع اليها فى كتابه الوحى المحمدى ص (٢٩٠) وما بعدها .

والذى يحسن أن أقوله ان كلمات : رق ، واسترقاق ، ورقيق لم تأت فى القرآن الكريم ، ولم تذكر فى أحاديث الرسول ويغلب على ظنى ان هذه الكلمات لم تتسرب الى كتب الفقهاء والمحـــدثين والمفسرين الا من القانون الرومانى .

الشيخ محمد محمد المدنى :

وننقل أيضا رأى الشيخ محمد محمد المدنى عميد كليـــة الشريعة بالقاهرة من كتابه «المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء» .

يقول الاستاذ محمد محمد المدنى فى صفحة ٢٨١ وما بعدها من كتابه المذكور تحت عنوان : « ليس فى القرآن الكريم أمـــر بالرق ولا بالتسرى » .

بيان ذلك أن القرآن يتحدث عما ملكت الأيمان فى نحو خمسة عشر موضعا فلا يقول أكثر من «ملكت ايمانكم» أو «ماملكت يمينك» أو « ما ملكت أيمانهن » .

نعم قد عبر فى بعض الآيات بقوله تعالى «والذين هم لفروجهم حافظون . الا على أزواجهم او ماملكت ايمانهم فانهم غير ملومين» .

ولكن هذا لم يزد عن كونه نفيا للوم عنهـــم ملاحظة على أنهم على واقع فعلى[1] تقضى الحكمة بمسايرته حتى يغير .

---

(١) قد سبق أن قلنا ان هذه التشريعات لرواسب الرقيق من زمن الجاهلية للحروب التى كانت مشتعلة بين المسلمين وأعــــداء الدعوة الاسلامية ، وهاهو ذا الأستاذ محمد محمد المدنى يؤيدنا فيما ذهبنا اليه . لقوله «واقع فعلى» .

للاسلام خطة يجري عليها لتصفية الاسترقاق والتسرى ·

كل ذلك — كما ترى — يحدث عن الواقع وليس فيه تعرض قولى للأمر به · وأقول : ليس فيه تعرض دولى لانى أعلم أن السكوت عليه أو الحديث عنه كواقع يستلزم اقراره ، وأنا لا اعارض ذلك بل أقرر أنه يستلزم هذا الاقرار ، ولكنه اقرار لاعموم له لا فى كل الأحوال ولا فى كل الأزمان · فان من الجائز ان يكون هذا الأقرار السكوتى ملاحظا فيه ظروف خاصة يومئذ والدلائل تدل على ذلك · فقد كان العالم كله معترفا بالرق ، وكان التعامل العام قائما على الاعتراف به ، فلم يكن من صالح المسلمين يومئذ أن يبطلوا هـذا اللون من التعامل العام دفعة واحدة ، أو أن ينفردوا عن العـالم بذلك فلا يعاملوا بالمثـل فيتخذوا الأسرى أرقاء كغـيرهم من الأمم ، فقضت الحكمة الالهية بأن يتدرج فى هذا الالغاء ورسمت لذلك خطة محكمة تتألف من النقط الآتية :

(ا) لم يرد فى القرآن الذى هو النصوص الأصلية الأساسية اى نص يدل على الامر بالاسترقاق أو اتخاذ الاماء سرارى · وان كان ذلك لايمنع أن يتحدث القرآن عن هذا حديث من يعرفه ويقره كواقع ويرتب الاحكام التشريعية على أساس واقعيته التى تقضى الحكمة أن تترك مؤقتا ·

(ب) تتكفل النصوص من الكتاب والسنة ببيان أن الرق واقع مكروه وبتشريع مايكفل تصفيته من العتق فى مناسـبات متعددة كالكفارات وألوان القرب والزكاة والصدقات وعقوبة من يمثـل بعبده بعتقه عليه ونحو ذلك ·

(ح) يقصر مورد الرق على الأسر فى حرب لاعلاء كلمة الله تعالى وفى هذه الحرب لا يجوز للمسلمين أن يتخذوا أسرى حتى يثخنوا فى الارض أى حتى يظهروا فيها ويعلوا كلمة الحق والتوحيد فاذا أثخنوا فى حرب وانتصروا كان لهم أن يأسروا حينئـذ · ثم كان لأولياء الأمر الخيار المقرر بقوله تعالى «فاما منا بعد واما فداء» اى فاما ان تمنوا عليهم منا فتطلقوهم تفضلا عليهم واحسانا بغير مقابل واما أن تأخذوا منهم فداء أى تطلقوهم بمقابل · وعلى هذا فلا ذكر صراحة للاسترقاق وانما يتكلف بعضهم فيجعل الاسترقاق داخلا

المن ، لان المن اما أن يكون كاملا باطلاقهم دون مقابل ، واما أن يكون جزئيا باعفائهم من القتل مع استرقاقهم ، وبعضهم يحاول ادخال الاسترقاق تحت الفداء فيقول : ان فداء حيـــاتهم · اما أن يكون بمقابل يبذلونه ، أو بنفس الأسير حيث يستعبد ويسترق ثمنا لابقائه حيا دون قتله ، ولا يخفى أن هذا وذاك تكلف يراد به تبرير الاسترقاق ، ومحاولة اثبات أنه مخير فيه بنص القرآن(١) ·

تلك هى الخطة التى وضعها الاسلام لتصفية الرق : وتضييق فى مداخله ، وتوسيع فى مخارجه · ولا ينبغى أن يؤخذ الاســـلام بفعل المسلمين فيما بعـــد حينما كان الاسترقاق خارجا على هذه الخطة ، أو كان الخلفـاء من أمويين وعباسيين وغيرهم من الاغنياء يتخذون السرارى بغير تقيد بل بتوسع واسراف ، فان ذلك مناف لروح الاسلام (٢) وان أدخل على النصوص بالآراء والاقوال وتأويل الرجال ·

والآن وقد اتفق العالم على منـــع الرق فليس فى نصوص الشريعة مايمنع من مجاراة الدنيا فى هذا الاتفاق الانسانى ، بل ان المسلمين اذا أبوا الا استمراره والتعامل به فيما بينهم يكونون قد أساءوا الى أنفسهم والى تعاليم شريعتهم لقاء التمسك بأمر لم يوجبه الله ولم يقره تشريعا دائما كما أوضحنا · انتهى مانقلناه عن الأستاذ محمد محمد المدنى ·

الاستاذ ابراهيم أبو الخشب :

وهذا أستاذ من أساتذة كلية الشريعـــة بالقاهرة يقول فى

---

(١) لاشك انه تكلف سخيف لايقوله الا مغرض يدفعه الغرض الدنىء لمثل هذا السخف وما أكثر السخفاء والمغرضين الذين شوهوا ديننا وحملوا لغتنا مالا تحتمل· ولوثوا الأذهام وأبعدوها عن الصفاء والاستقامة ·

(٢) وما زالت هذه المخازى التى يكرهها الاسلام ويحاربها القرآن جارية فى قصور بعض الحكام باسراف كاسراف العباسيين والأمويين · وما زال بعض الذين يدعون أنهم علماء الدين يبيحون ذلك لانفسهم ولأولياء أمورهم ، وما زال فى تلك المجتمعات الجاهلة من يقلدهم ويتأسى بهم وبئست الأسوة السيئة ·

كتابه « الاسلام المظلوم (ص (١٩) وما بعـــدها) ومن مفتريات خصوم الاسلام ودعواهم انه في الوقت الذى ينادى محمـــد فى البشرية كلها بأن الناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب لافضل لعربى على عجمى الا بالتقوى كان الاسترقاق عنده مشروعا وعبودية الناس بعضهم لبعض قائمة وهو تمويه للحق وبهتان على التاريخ ، لان الاسلام جاء والرق ضارب أطنابه لا فى البلاد العربية وحدها ولكن فيما حولها ــ كذلك ــ من الممالك والامصار ، ولم يـكن له طريق واحد وأسلوب خاص ، وانما كانت طرقه متنوعة كلها يحمل عليها الحاجة » أو يلجأ اليها السلطان الغاشم ، والجبروت الظالم ، والحاكم المسلط ، والمستبد الجائر الذى كان يرى من حقه على الرعية أن يكونوا عبيدا له من دون الله ٠

كما قال فرعون «ماعلمت لكم من اله غيرى» والويل كل الويل لمن يشذ عن الخضوع له والتفانى فى طاعته ، ولذلك امثـلة يطول شرحها ، ويتراخى بنا الحديث عنها والتعرض لها ٠

وقد كان فى كثير من الاوقات الحاح الضرورة على الفقير المعوز، والبائس المعدم ، يسوقه الى أن يبيع نفسه بيع السلعة ، ويبذل كرامته بذل الصفقة لانه لا يجد مخلصا من الضيق ، ولا فكاكا من الكرب ، ولا سبيلا الى الخروج من المآزق التى تورط فيها سوى أن يعرض آدميته هـذا العرض الذليـــل ٠ وكان الرق الذى يجىء من الحروب وينجم عن أسرى القتال أقل من أن يذكر ٠ والحـــــديث عن احساس الارقاء بالحياة ٠ وشعورهم بوجودهم وتقديرهم لمعنى آدميتهـــم يندى له الجبين ٠ وتنقطع له نياط القـــلوب ، وتتفتت من هوله الأحشاء ٠ وهذا تصوير يدل على أن الناس كانوا يعيشون فى هذه الدنيا عيشة الوحوش الكاسرة ، والجرائيم التى لا يجدى بها سوى الاستئصال ٠ فقد أخبرنا القـرآن الكريم عن لون من تلك الالوان البغيضة التى كانت فى الجزيرة حينئذ (١) مما يظهر منـه

---

(١) ليس فى الجزيرة وحدها بل فى كل العالم وقد مر بنا فى الفصول السابقة ما كان يصنعه الرومان والاسبرطيون والاثينيون وغيرهم من أنواع البغاء الذى كانوا يدفعون اليه الفتيات والنساء، ومنه ما كان يسمى بالبغاء الدينى عند الاغريق وغيرهم ٠

أن النفوس خلت من الشعور النبيل ، والذوق السليم • ذلك أنهم كانوا يسخرون الجارية لاحتراف الزنا طمعا فى الحطام الفانى ، والمال الحقير • على الرغم من كراهيتها له ونفورها منه وعدم رغبتها فيه ونزلت الآيه (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) تندد بهم وتسفه أحلامهم وتعلن اليهم أنهم انحدروا الى أقصى ما تنزل اليه العقول الوضيعة ، والأفكار الحقيرة ، والميول السفيهة •

ولما آذن الله لهذه الانسانية المعذبة أن تخرج من الظلمات الى النور • وجاء محمد صلى الله عليه وسلم لانقاذ البشرية من ذلك الموت الذى كانت تعانيه ، كانت تعاليمه الرشيدة وآدابه الحميدة تجعل هؤلاء الارقاء اخواننا فى الدين وشركاءنا فى الحياة وزملاءنا فى الانسانية ولايصح أن تكون الظروف التى أحاطت بهم ، والنوازل التى أصابتهم جريمة يؤاخذون بها ووزرا يحاسبون عليه « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون » وهناك أخذ الاسياد يعاملونهم معاملة أخرى • ويزنونهم بميزان كونهم بنى آدم وبنات حواء بصرف النظر عن غير ذلك من الملابسات التى ليس لهم فيها يد متصرفة ، أو حيلة موجهة ، أو اختيار متسبب •• وجعلت الشريعة الغراء تحرير الرقبة ، وعتق العبد أو الجارية بابا من أبواب الطاعة ، ومعنى من معانى الزلفى الى الله سبحانه حيث قبلها جزاء لبعض أنواع القتل (ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله » ورغب المولى فى أن يفتح باب الحرية واسعا ليتقذ منه الرقيق على أى شكل أراد من طريق المكاتبة أو غير ذلك من الطرق والجهات •

وجاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : دلنى على عمل يدخلنى الجنة فقال له « عتق النسمة وفك الرقبة » • والاسلام يشدد النكير على من ينادى العبد أو الجارية بهذا الوصف الذى يشعر بالذلة •• وينبىء عن المهانة « يا عبد أو يا جاريه » ويجعل مكانهما يا فتى أو يافتاة • وينبغى على من يبالغ فى العنف معهما « من لطم مملوكا أو ضربه فكفارته أن يعتقه » •

ولو أننا رحنا نستقصى الفرص التى أتاحها الدين للعبد أو

للامة لتنتهى حياتهما بالحرية المحبوبة والانطلاق من اسار الرق البغيض لوجدناها أكثر من فرصة ولكننا ننتقل الى أسلوب آخر من الاساليب لجعل ما بين السيد والمملوك من صلة لا تقل عن الصلة التى تكون بين اثنين يجمعهما نسب واحد ذلك أنه يجعل المولى مسئولا عن بعض مغارمه وجناياته ، ومطالبا بتسديد ديونه ان كان عاجزا عن سدادها ، ووليا له فى عقد النكاح وفى القصاص والمطالبة بالدية وغير ذلك من الاسباب التى تدل على تمكن الوشائج وقوة الروابط .

وعلى هذا فان الاسلام لم يشرع الرق بل قضى عليه وأزاله »

السيد عبد الحميد الخطيب :

وهذا أحد علماء الحجاز الاعلام ، وأحد المدرسين بالمسجد الحرام « السيد عبد الحميد الخطيب » يقول فى كتابه القيم « أسمى الرسالات » تحت عنوان (نظام الرق) ص « ٥٥٠ وما بعدها » :

فسر علماء الاسلام الرق بمعنى استعباد الانسان لفريق من اخوانه فى الانسانية وبينوا أحكامه ، ولم يتعرضوا لحقيقة ذلك والغاية منه ، فاتخذ الغربيون من ذلك سبيلا للطعن فى الاسلام وفاتهم أن الاسلام الذى جاء لتحرير الانسان من رق العبودية لغير الله لايمكن أن يقر استعباد شخص لآخر . وقد قال سيدنا عمر : « متى استعبدتم الناس وقد جعلهم الله أحرارا » والاسلام الذى قام على احترام الحقوق واقامة العدل لا يتصور أن يقر الظلم بأى حال من الأحوال خصوصا اذا علمنا ان تملك الانسان لأخيه الانسان أمر كان شائعا فى العصور الأولى ، وكان فى الأمم المتوحشة أناس يسرقون بعض الناس من الامم المستضعفة ويمتلكونهم بهذه السرقة ويبيعونهم فى الأسواق . حتى كان المصريون ، والبابليون ، والفرس والهنود واليونان والروم ، والعرب يتخذون المماليك، ويستخدمونهم فى أشق الاعمال ، وكان من عادة بعض الامم الفقيرة أن يبيع الرجل بعض أبنائه ليشترى بثمنه ما ينفق على نفسه، فجاء الاسلام محرما كل هذا .

هذه حقيقة اذا سلمنا بها وجب أن نبحث عن السر فيما يسمونه

الرق فى الاسلام وقبل أن نبحث فى هذا الموضوع نريد أن نشرح كلمة الرق فى لغة العرب • فالرق مشتق من رق الشىء ضد غلظ ونحن يقال : رق له قلبه أى رحمه وعطف عليه ، ومعنى نظام الرقيق نظام الرحمة أو شفقة الانسان على أخيه الانسان (١) • أما كيف ذلك ؟ فهذا ما ينجلى من ايضاح الرق وما يجب أن يعامل به الأرقاء •

لقد جاء الاسلام يدعو الى الحرية ، ولكنه منى بجماعة تصدوا لمقاومته وحربه فأمر الله نبيه بحربهم حتى يلقوا سلاحهم ، وعندئذ يؤخذون أسرى حرب • والحرية بعد ذلك أن يعفو عنهم من القتل او يطلق سراحهم مقابل لأخذ الفداء منهم حيث قال تعالى : «فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها (٢) » ، وتنفيذا لهذا الامر الالهى جمع الرسول الأسرى ، وشد وثاقهم ، ووزعهم على المسلمين ليطعموهم ويأووهم لديهم الى ما بعد انتهاء المعركة • وجمع الرسول صحبه واستشارهم فاشار عليه فى أمرهم سيدنا عمر بقتلهم اجمعين ، ليأمن المسلمون من شرهم وكيدهم • وقال أبو بكر : بل نمن عليهم فنتركهم أحياء ونستبقيهم ، ونطالبهم بفداء أنفسهم بالمال مقابل تعويضات الحرب المشروعة حيث أن المسلمين فى أشد الحاجة الى المال ، ونكون بهذا قد أحسنا اليهم بالابقاء على حياتهم التى هى اغلى شىء عندهم ، ولربما أسلموا فكانوا جنودا للاسلام وأعوانا للمسلمين فارتضى عليه الصلاة والسلام هذا الرأى ، ولما لم يكن هنالك خزينة للدولة ينفق منها على الاسرى ، ولم يكن هناك حكومات تفدى أسراها أو تقوم بتعويضات الحرب لم ير النبى بدا من توزيع الاسرى على رجاله وأن يملكهم رقابهم على أن يقوموا بجميع نفقاتهم ، ويستخدموهم

---

(١) ان نظام الرقيق لم يخترعه الاسلام حتى يمكن موافقة السيد عبد الحميد على ذلك وانما هو من مخلفات الشرائع والفلسفات القديمة فى اليونان والرومان والهنود وغيرهم • وقد قلنا : ان كلمة رق ورقيق دخيلة على الفقه الاسلامى اما القرآن والسنة فليس فيهما شىء اسمه الرق والرقيق •

(٢) سورة محمد •

فى أعمالهم الخاصة الى أن يتسنى لهم دفع الفدية المطلوبة منهم ، أو يرق قلب مخدوميهم فيحررونهم من الاسر .

فسر الأسرى بهذا الحكم ، وفدى كثير منهم نفسه بالمال حتى انه كان من ضمن الاسرى زوج ابنتـه فأرسلت زوجتـه للرسول بفدائه فأطلق سراحه ، وأمر بفك ابنة حاتم الطائى نظرا لما كان عليه أبوها من مكارم الاخلاق . وعاد صلى الله عليه وسلم . فلم تقبل نفسه الشريفة أن يسوى بين ذوى العلم والجهلاء من الاسرى فأمر بفك أسرى العلماء على أن يعلم كل أسير عشرة من المسلمين مما علمه الله وكان من أهم العلوم لديه القراءة والكتابة ، لكى يقضى على الأمية بين قومه ، ثم عاد فقدر ضعف المرأة وحاجتها الى الرحمة فأباح للرجل الاستمتاع بها بدون عقد ليكون من هذا وسيلة لتبادل الالفة والمحبة واحكام روابط القربى والرحم والاخوة،وجعل من استيلادهن سبيلا لتحريرهن من رق الاسر ، وأخذ يدعو الى تحرير من بقى من الأسرى بمختلف الوسائل فشرع مكاتبتهم على شىء معين يتحررون بادائه من حالة الاسر ، وحض على معونتهـم عليه حتى أن جويرية بنت الحارث وقعت فى الاسر ، وكانت من نصيب ثابت بن قيس ابن شماس ، فكاتبها على نفسها . فذهبت الى النبى صلى الله عليه وسلم تسأله أن يعينها بما يمكنها من دفع ما تعاقدت عليه من فداء، فأجابها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى طلبها ، وقال لها : بل لك ما هو خير من هذا . فقالت : وما هو يا رسول الله قال أقضى عنك كتابك ، وأتزوجك ؟ فقالت : نعم . فقال : لقد فعلت ،ودفع عنها ما عليها وتزوجها . فلما علم الناس بهذا قالوا : لقد أصبح بنو المصطلق أصهار النبى وسارعوا الى تحريرهم من الاسر . وفى هذا يقول تعالى : «والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » (١) ولم يكتف بهذا ، بل أخبر الناس بأن الاحسان اليهم بالعتق من أهم القربات الى الله المنجية من عذابه ، حيث قال : « فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو اطعام فى يوم ذى مسغبة » (٢) .

---

(١) سورة النور

(٢) البلد .

وجعله تعالى كفارة لكثير من الجرائم والآثام وقال صلى الله عليه وسلم : « أيما رجل أعتق امرأ مسلما استنقذ الله بكل عضو عضوا منه من النار » ·

وأخذ يوضح للناس معنى الرق وما يجب أن يعامل به الارقاء حيث قال : « هم اخوانكم وعونكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان اخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ،ولاتكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم فأعينوهم عليه » ونهى أن يلقبوا بالعبيد حيث قال صلى الله عليه وسلم : « لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى ، ولا يقولن المملوك ربى وربتى ، وليقل المـــالك فتاى وفتاتى ، وليقل المملوك سيدى وسيدتى فانكم المملوكون والرب الله تعالى » ·

وأمر بالعفو عنهم فى حالة ما اذا بدا منهم قصـــور فى عملهم يوجب المؤاخذة اذ جاء رجل وقـال : يا رسول الله كم أعفـــو عن الخادم فصمت ثم قال: اعف كل يوم سبعين مرة ، ونهى عن ضربهم، وقال من لطم مملوكا أو ضربه فكفارته أن يعتقه ·

وروى ابن مسعود، قال : كنت أضرب غلاما لى بسوط فسمعت صوتا من خلفى يقول : اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام · فالتفت فوجدت القائل رسول الله صلى الله عليه وسلم فحرمت أن أضرب مملوكا بعد ذلك أبدا (١) ·

وقال أيضا : « من قذف مملوكه وهو برىء مما قال أقام الله الحد عليه يوم القيامة · »

لقد أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى فى معاملة الموالى اذ قرب اليه زيدا عتيقه وزوجه بابنة عمته ،وولاه قيادةجيش الشام ، ولما بلغه خبر موته بكى عليه وعطف على ابنه أسامة وقال « من أحبنى فليحب أسامة » ثم ولاه قيادة الجيش مكان والده ، وهو فتى فى العشرين من عمره وجعل أكابر الصحابة منجنده ، وقد سمى الله أولئك الارقاء باسمهم الحقيقى وهو (الاسرى) وأمر رسـوله أن

(١) قد تقدم نقلنا لهذا الحديث وقد أعتق ابن مسعود غلامه وقال الرسول لولا أنك لم تفعل للفحتك النـار أو لمستك النـار · راجعه فى موضعه ·

يطيب خواطرهم حيث قال : « يا أيها النبي قل لمن فى أيديكم من الاسرى ان يعلم الله فى قلوبهم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفــور رحيم » (١) والمعنى أنكم ان تؤمنوا بقلوبكم بالله يثبكم على الايمان والرضاء بقضاء الله أكثر مما انتزع منكم من الحرية التى كنتم فيها مع التردى فى الضلال . هذه هى حقيقة الرق فى الاسلام ، وتلك هى تعاليمه فى معاملتهم ، أين منها ما نراه اليوم من معاملة الاسرى لدى الأمم التى تدعى الحضارة والمدنية ، وتمقت الرق وتحــاربه من أنواع التعسـف والاضطهاد والتنـكيل بهم ، واستخدامهم فى الاعمال الشاقة دون رحمة أو شـفقة ؟ لا بل أين هذا مما تقدم عليه الدول المستعمرة من استعباد الشعوب الضعيفة ، وامتصاص دمائهم ، والتحكم فى مقدراتهم بما يتنافى وحق الانسان على أخيه الانسان .

أما استرقاق العبيد والجوارى فى عصرنا هــذا عن غير طريق الجهاد بوسائل أخرى غير مشروعة وبوساطة القراصنة ، فهذا ما لا يقره الاسلام، ولا تنطبق عليه أحكامه خصوصا فيما يتعلق بالاستمتاع بالجوارى منهن فلا يكون عمل المسلمين فيه حجة على الاسلام . شأنهم فى ذلك كشأنهم فى جميع تعاليم الاسلام التى أهملوا اتباعها ، واتوا ضدها نتيجة تقليدهم لأقوال بعض العلماء (٢) دون الرجوع الى كتاب الله وسنة رسوله .

الشيخ عبد العزيز جاويش :

والشيخ عبد العزيز جاويش أشهر من أن يعرفه مثلى ، فهو من العلماء الاحرار الذين جاهدوا فى الله حق جهـــاده ، وممن فهموا

---

(١) سورة الانفال .

(٢) ان الذين يبيحون الرق والاستمتاع بالجوارى ليسوا علماء وانما هم من أجهل الجاهلين . ولـكنهم من سوء الحظ استطاعوا فى غفلة من الزمن أن يرتفعوا الى مقام العلمـاء ، وأن يضللوا بالمحاصم وسواكاتهم كثيرا من المسلمين . فاصـــابوا المسلمين فى مقـاتلهم ، فكانوا الثغرة التى نفذ منها أعداء الاسلام لطعن الاسلام والمسلمين

الاسلام على حقيقته ، ووقفوا حياتهم للذب عنه ، وتخليص الافهام مما علق بها من اعوجاج وانحراف .

يقول الشيخ عبد العزيز جاويش فى كتابه (الاســلام دين الفطرة) ص ٥٨ وما بعدها .

(١) سوى الاسلام بين الامم من غير اعتبار اختلاف أصنافهـا والوانها فسوى بين الأسود والأبيض ، والبدوى والمتحضر، والرعايا والمرعيين ، والرجال والنساء، والمسلمين والنصارى واليهود ماداموا فى سلم . انظر الى المسلمين فى المسجد يؤدون الصلاة ، أو فى مكة وهم يحجون البيت الكريم أو فى المحاكم الشرعية فى صدر الاسلام افتجد فيهم من مقدم ومؤخر ، أو من فاضل ومفضول ؟ .

كيف والله تعالى جعل المؤمنين اخوة كما لم يجعل بينهم تفاوتا الا بقدر ما يتفاضلون به من الحق فلقد قال عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع :

« أيها الناس ، انما المؤمنون اخوة ، ولا يحل لامرىء مال أخيه الا عن طيب نفس ، فلا ترجعن بعدى كفـارا يضرب بعضـكم رقاب بعض، فانى قد تركت فيـكم ما ان أخـــذتم به لن تضلوا بعدى ، كتاب الله أيها الناس ان ربكم واحد ، وان أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربى فضـــل على عجمى الا بالتقوى . »

أين هذا مما يفعله أهل امريكا حتى الآن وهم فى مقدمة الامم حضارة وعلما ؟؟.

ازدرى البيض منهـم السـود ، وامتهنوهم لســواد الوانهم ، وتجنبوهم ؛ وحرموهم كثيرا من المزايا التى استمتع بها البيض ؛ ولطالما نشرت الجرائد ما يفعلون بهم من الفتك، والمقت والتجافى عن مخالطتهم حتى لقد خصصوا لهم فى مراكب السكك الحديدية مقاصير خاصة بهم لا يجوز أن يتجاوزوها الى غيرها .

زعم كثير من الناس لا سيما من غير المسلمين أن الاسلام أباح للناس اختطاف غيرهم من السود أو البيض مستدلين على ذلك بما

كان يفعله النخاسون من اهل الباديه وأهل السودان وكثير من الاتراك ـ وقد تقدم لنا (١) انه لا ينبغى الاستدلال على صحة الدين أو فساده بما يفعل أهله ، فان هذا من العبث الذى ينبغي أن تصان عقول العقلاء عنه .

ان الشرع لا يبيح أن يسترق مسلم أصلا ، ثم انه لا يبيح بعد ذلك الا استرقاق أسرى حرب شرعية ، لم تقم الا لاعلان كلمة الله تعالى مراعى فيها أن تكون مسبوقة باعتداء غير المسلمين عليهم ، فمن هنا يؤخذ ان اسرى الحروب التى اقامها كثير من امراء المسلمين وخلفائهم لا لغرض سوى السلب والنهب والبطش مع العدوان على الغير لا يجوز استرقاقهم بحال سواء أكانوا مسلمين أم كتابيين ام وثنيين أم مجوسا .

أما استرقاق غير المحاربين ممن لا كتاب لهم ولا شبه كتاب كعبدة الاوثان فقد قال مالك والشافعى وأحمد فى احدى روايتيه ان ذلك لا يجوز مطلقا .

فماذا ترى فيمن يذهبون الى الصحارى ، ويختطفون ما وصلت اليه أيديهم من السودان وغيرهم (٢)، ثم يجلبونهم كما يجلبون المتاع فيعرضونهم فى الاسواق عرض الحيوانات العجماء . وكثير منهم مسلمون ؟؟ وماذا ترى فى كثير من الأمراء وشيوخ المسلمين يجيئون اليهم ويسومونهم كما يسام المتاع ، ثم يسوقونهم الى بيوتهم اما للخدمه ، واما للافتراش ؟.

وماذا ترى فى الذريه التى ينتجها افتراش ابتنى على هذا الاسترقاق الفاسد ؟.

---

(١) راجع كتابه «الاسلام دين الفطرة» فان به مباحث اسلامية قيمة .

(٢) ممن يسمونهم بلوشيات وكرجيات ويفترشونهن ويهدونهن الى ضيوفهم يفترشونهن أيضا . ان ذلك واقع أناس يزعمون الاسلام ويتبجحون عند كل مناسبة أنهم حماة الاسلام والمسلمين .. هل هؤلاء يخادعون أنفسهم أم يخادعون خالقهم ، أم يخادعون الناس ؟ دعهم فى ضلالتهم وجهالتهم حتى تأتيهم القارعة .

ان الدين لبرىء مما جنى عليه أولئك الطغاة الجهلة ، وطاهر مما الصقوه به من ذلك الدنس والرجس . قد سولت لهم نفوسهم الخبيثة ما شاءت أن تسول فافتاتوا على الله ، وتسبوا اليه ما نسبوا متقولين عليه ، وهذا قرآنه الكريم قائم ناطق بتكذيبهم وتأنيبهم .

واعلم أن هناك نوعا من الاسترقاق فشا فى المسلمين أيضا وهو لا يبيحه الشرع أيضا. ذلك أن بعض أمم آسيا كالقوقاز وغيرهم قد يحدو بهم الفقر المدقع (١) الى جلب بناتهم بأيديهم الى أسواق المدن الاسلامية ـ وهن صغار جدا ـ ليبيعوا الى الامراء والمترفين من الرجال ، ولقد يكون منهن المراهقات والنساء حتى اذا صارت احداهن فى ملك أحد استباح منها واتخذها فراشا ، يخادع الله بما عقده من البيعة الفاسدة . وما يخدع الا نفسه من حيث لا يشعر . فيظل طول حياته مستبيحا ما حرمه الاسلام ، ويدخل فى دينه ما أملته عليه الوساوس والاوهام .

هذا ولنعد بك الى ما يتعلق بالرقيق فى الاسلام . فنقول :

١ ـ كل من أسلم من الاسرى عصم نفسه وماله .

٢ ـ مجرد دخول العدو المحارب دار الاسلام آمان له من السبى عند مالك والشافعى وأحمد بن حنبل .

٣ ـ للرقيق فى الاسلام أن يتزوج بنت سيده فينقلب بذلك سيد البيت .

أين هذا مما سبق لنا نقله (٢) من قوانين أوربا فى القرن الثالث عشر من تحريم الزواج بين الارقاء وكذا بينهم وبين الاحرار ، وأنه يجب قتل المرأة التى يتزوجها عبد كما يجب احراقه حيا .

ولنكتف بما نقلناه من كتاب الشيخ عبد العزيز الجاويش بهذا

---

(١) ان سبب ذلك فساد النظام الاقتصادى الذى أصلحه الاسلام . ولكن المسلمين لم يستجيبوا لله ولرسوله ، فكانوا سبة على الاسلام .

(٢) راجع كتاب (الاسلام دين الفطرة) .

القدر ، فانه اتم بحثه بالأحاديث الواردة عن معاملة الاسرى ، وقد تقدم ذكرها فى غير موضع من هذا الكتاب ٠

الاستاذ سيد قطب :

والاستاذ سيد قطب داعية اسلامى مشهور يقول فى تفسيره المسمى « فى ظلال القرآن » (ج ٢ ص ٦١ وما بعدها) عندما يتعلق الأمر او النهى بمسألة اعتقادية أو أخلاقية فان الاسلام يقضى فيها بما يريد قضاء حاسما منذ اللحظة الاولى ٠

ولكن عندما يتعلق بعادة شعورية ، أو بوضع اجتماعى ، فانه يتريث ويأخذ الامر باليسر والتدرج حتى يبلغ الى الهدف الذى يرمى اليه فى رفق وهوادة ٠

فعندما كانت المسألة مســألة عقيدة كالشرك أمضى أمــره بتحريمه فى خطــوة جازمة قاطعة ، كذلك صنع فى تحريم الزنا والسرقة والغش والخيانة ٠٠ الخ لأن التحريم البات هنا ابطال لأمر ليس عميق الجذور فى أعماق النفس أو أعماق المجتمع ، ولا يترتب عليه انتقال مفاجىء من عادة الى عادة ، أو من وضع الى وضع ٠

فأما فى الخمر والميسر فقد كان الأمر امر عادة شعورية والف وعرف ، والعادة تحتاج أحيانا الى التدرج فى تركها ٠ فبدأ بتحريك الوجدان الدينى ،والمنطق التشريعى فى نفوس المسلمين بأن الاثم فى الخمر والميسر أكبر من النفع وفى هذا اشارة الى ان تركها أولى ٠٠ ثم جاءت الخطوة التاليه بتحريم الصــلاة على الســكارى حتى يعلمــوا ما يقولون ٠ « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » ٠

والصلاة تقع فى خمسة أوقات معظمها متقارب لا يكفى مابينها للسكر والافاقة ٠ وفى هذا تضييق لفرص المزاولة العملية لعــادة الشرب بعد تضييق الفرص الشعورية بما قدم من أن الاثم أكبر من النفع ٠٠ حتى اذا تمت هاتان الخطوتان جاء النهى الحازم والاخــير بتحريم الخمــر والميسر « انمــا الخمر والميسر والأنصــاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » ٠

وأما فى الرق فقد كان الأمر أمر وضع اجتماعى ، وعرف دولى فى استرقاق الاسرى ، وفى استخدام الرقيق ! والاوضاع الاجتماعية تحتاج الى تعديل شامل لمقوماتهـا وارتباطاتها . والعرف الدولى يحتاج الى اتفاقات دولية ، ومعاهدات جماعيه ، ولم يأمر الاسلام بالرق قط ، ولم يرد فى القرآن نص على استرقاق الاسرى ، ولكنه جاء فوجد الرق نظاما عالميا ، ووجد استرقاق الأسرى عرفا دوليا . فلم يكن بد أن يتريث فى علاج هذا الوضع الاجتماعى القائم والنظام الشامل ، وقد اختار ان يجفف منابع الرق وموارده حتى ينتهى بهذا النظام كله مع الزمن الى الالغاء دون احداث هزة اجتماعية لا يمكن ضبطها ولا قيادتها .

بدأ بتجفيف موارد الرق ومنابعه كلهـا فيما عدا أسرى الحرب الشرعية ذلك أن المجتمعات المعادية للاسلام كانت تسترق الأسرى المسلمين حسب العرف الدولى العـام فى ذلك الزمان . وما كان الاسلام قادرا يومئذ على أن يجبر المجتمعات على مخالفة ذلك العرف الدولى . ولو أنه قرر ابطال استرقاق الاسرى لكان هذا اجراء مقصورا على الاسرى الذين يقعون فى أيدى المسلمين .

بينما الأسارى المسلمون يلاقون مصيرهم السيىء فى عالم الرق هناك . وفى ذلك أطماع للمعادين للاسلام فى أهل الاسلام .

لهذا الوضع الاجتمـاعى القائم لم ينص القرآن على استرقاق الأسرى بل قال « فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » ولكنه كذلك لم ينص على عدم استرقاقهم . وترك الدولة المسلمة تعامل اسراها حسب ماتتفق عليه مع محاربيها فتفدى من تفدى من الاسارى من الجانبين ، وتتبادل الاسرى بين الفريقين ، وتسترق من يسترقون المسلمين كي لا يصـبح الاسارى من المسلمين أرقاء والاسارى من الكفار طلقاء وذلك الى أن يتسنى تنظيم هـذا العرف باتفاق .

وبتجفيف موارد الرق كلها فيما عدا هذا المورد الذى لا اختيار للاسلام فيه يقل العدد ، وهذا العدد القليل أخذ يعمل على تحريره . بمجرد أن ينضم الى الامة الاسلامية ويقطع صلته بالكفار المحاربين . فجعل للرقيق حقه كاملا فى طلب الحرية بدفع فدية عنه يكاتب عليها

سيده . وعند هذه اللحظة يملك حرية العمل ، وحرية الكسب والتملك ، فيصبح أجر عمله له . وله ان يعمل فى غير خدمة سيده ليحصل على فديته . ثم له نصيبه من بيت المال فى الزكاة ، والمسلمون مكلفون فوق هذا ان يساعدوه بالمال على استرداد حريته . وذلك غير الكفارات التى لا تقضى الا بعتق رقبة كالقتل الخطأ ، وفدية اليمين والظهار وما اليه . وبذلك ينتهى وضع الرق نهاية طبيعية مع الزمن لانه عميق الجذور فى التنظيم الاجتماعى والعرف الدولى .

وعلى هذه الطريقة سار الاسلام فى أوامره ونواهيه وفى علاج انحرافات النفس ، وانحرافات المجتمع ، وتقويم الفطرة البشرية وردها الى سواء السبيل .

ثم يقول سيد قطب فى كتابه (فى ظلال القرآن) (ج ٤ ص ٨٣) عند تفسير قوله تعالى « ان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم » .

ان الزواج عن أمة لا يحتاج الى القول بانه رد لاعتبارها وكرامتها الانسانية فأما التسرى ففيه اهانة لآدميتها ما فى ذلك شك أيضا . ولكن الضرورة التى أباحت استرقاق الاسرى والتى عرضناها هناك (١) هى ذاتها التى اقتضت اباحة التسرى، لان مصير المسلمات حين يؤسرن كان كذلك بل هو شر من ذلك (٢) فهى اذن المعاملة بالمثل (٣) اذن حتى يمكن الاتفاق على نظام لأسرى الحرب خير من ذلك النظام الذى كان يسود العالم يومذاك .

على أنه يحسن ألا ننسى أن هؤلاء الأسيرات المسترقات لهن مطالب فطرية يحسب حسابها فى حياتهن فاما أن تتم عن طريق

---

(١) يقصد ما قدمناه من قوله الذى نقلناه من الجزء الثانى .

(٢) ان غير المسلمين يبحن الاسيرة لكل من أرادها . أما الاسلام فيحرم ذلك ولا يبيحها الا لمن هى فى يده .

(٣) ان عدم اباحتها لمن أرادها أشرف من اباحتها لكل من أرادها فهى معاملة بالمثل مع الفارق .

الزواج حين يتحررن ، واما أن تتم عن طـريق التسرى ما دام نظام استرقاق الاسرى بضروراته قائما ٠

أما ما حدث فى أيام بنى أميه وبنى العبـاس ومن بعدهم من تلك الحيوانيـة الشـهوانيه حيث كانت تزدحم القصـور بالجوارى والسرارى عن طريق الشراء فقـد لعبت فيه النخاسـه دورا هاما ، والاسلام برىء منه وهو مخالف لروح الشريعة بلا جدال ٠

الأستاذ محمد قطب :

والاستاذ محمد قطب شاب عربى مثقف ، يمتـاز بذهنية نيرة وخلق قويم وهو يلتهب غيرة على الاسلام ويمتلىء اخلاصا له ولمبادئه ونظمه وتشريعاته ٠ وله مؤلفات قيمةفى هذا الشأن ومن بينهاكتابه « شبهات حول الاسلام » وقد كتب فيه تحت عنوان (الاسـلام ٠٠ والرق) بحثا قوى الحجة ٠ شائق الاسلوب رأيت أن أنقـله حرفيا بجملته ٠ من صفحة (٢٧) الى صفحة (٦٣) ٠

يقول الاستاذ محمد قطب :

الاسلام ٠٠ والرق :

ربما كانت هذه الشبهه أخبث ما يلعب به الشيوعيون لزلزلة عقائد الشباب ! ٠ يقولون :

لو كان الاسلام صالحا لـكل عصر ــ كما يقول دعاته ــ لما إباح الرق ٠٠ وان اباحته للرق لدليل قاطع على أن الاسلام قد جاء لفترة محدودة ، وأنه أدى مهمته وأصبح فى ذمة التاريخ !٠

وان الشباب المؤمن ذاته لتساوره بعض الشكوك ! كيفأباح الأسلام الرق ؟ هذا الدين الذى لا شك فى نزوله من عند الله ولاشك فى صدقه ، وفى أنه جاء لخير البشرية كلها فى جميع أجيالهـا ٠٠ كيف أباح الرق ؟ الدين الذى قام على المسـاواة الـكاملة ، الذى رد الناس جميعا الى أصل واحد ، وعاملهم على أساس هذه المساواة فى الاصل المشترك ٠٠ كيف جعل الرق جزءا من نظامه وشرع له ؟٠

أو يريد الله للناس أن ينقسموا أبدا الى سادة وعبيد ؟ أو تلك

مشيئته في الارض ؟ أو يرضى الله للمخلوق الذى كرمه اذ قال : « ولقد كرمنا بنى آدم » ان يصير طائفة منه سلعة تباع وتشترى كما كان الحال مع الرقيق ؟ واذا كان الله لا يرضى بذلك ، فلماذا لم ينص كتابه الكريم صراحة على الغاء الرق ، كما نص على تحريم الخمر والميسر والربا وغيرها مما كرهه الاسلام ؟

وان هذا الشاب المؤمن ليعلم أن الاسلام دين الحق ، ولكنه كابراهيم : « قال : أو لم تؤمن ؟ قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبى ! »

أما الشباب الذى افسد الاستعمار عقله وعقائده ، فانه لايلبث حتى يتبين حقيقة الامر ، وانما يميل به الهوى فيقرر دون مناقشة ان الاسلام نظام عتيق قد استنفد أغراضه !.

وأما الشيوعيون خاصة فاصحاب دعاوى « علمية » مزيفة ، يتلقونها من سادتهم هناك فينتفشون بها عجبا ، ويحسبون أنهم وقعوا على الحقيقة الابدية الخالدة التى لا مراء فيها ولا جدال ، وهى المادية الجدليه التى تقسم الحياة البشرية الى مراحل اقتصادية معينة لا معدى عنها ولا محيص : وهى الشيوعيه الاولى ، والرق والاقطاع ، والراسمالية والشيوعية الثانية (وهى نهاية العالم !) وأن كل ماعرفته البشريه من عقائد ونظم وأفكار ، انما كانت انعكاسا للحالة الاقتصادية ، أو للطور الاقتصادى القائم حينئذ ، وأنها صالحة له ، متلائمة مع ظروفه ، ولكنها لا تصلح للرحلة التالية التى تقوم على أساس اقتصادى جديد . وأنه - من ثم - لا يوجد نظام واحد يمكن أن يصلح لكل الاجيال . واذا كان الاسلام قد جاء والعالم فى نهاية فترة الرق ومبادىء فترة الاقطاع فقد جاءت تشريعاته وعقائده ونظمه ملائمة لهذا القدر من التطور ، فاعترفت بالرق ، وأباحت الاقطاع(١) ولم يكن فى طوق الاسلام أن يسبق التطور الاقتصادى أو يبشر بنظام لم تتهيأ بعد امكانياته الاقتصادية لان كارل مركس - سبحانه قال ان هذا مستحيل !!.

ونريد هنا أن نضع المسالة فى حقيقتها التاريخيه والاجتماعية والسيكولوجية بعيدا عن الغبار الذى يثيره هؤلاء وأولئك فاذا حصلنا

---

(١) سنناقش فى الفصل التالى شبهة الاقطاع .

على حقيقة موضوعية فلا علينا حينئذ من دعاوى المتحرقين « و » العلماء « المزيفين !»

***

نحن ننظر اليوم الى الرق بعقلية القرن العشرين ! وننظر اليه في ضوء الشناعات التى ارتكبت في عالم النخاسة ، والمعاملة الوحشية البشعة التى سجلها التاريخ في العالم الرومانى خاصة فنستفظع الرق ، ولا تطيق مشاعرنا أن يكون هذا اللون من المعاملة امرا مشروعا يقره دين أو نظام ، ثم تغلب علينا انفعالات الاستبشاع والاستنكارات فنعجب كيف أباح الاسلام الرق ، وكل توجيهاته وتشريعاته كانت ترمى الى تحرير البشر من العبودية في جميع الوانها وأشكالها ، ونتمنى في حرارة الانفعال أن لو كان الاسلام قد أراح قلوبنا وعقولنا فنص على تحريمه بالقول الصريح .

وهنا وقفة عند حقائق التاريخ . ففظائع الرق في العالم الرومانى لم يعرفها قط تاريخ الاسلام . ومراجعة بسيطة للحالة التى كان يعيش عليها الارقاء في الامبراطورية الرومانية ، كفيلة بأن ترينا النقلة الهائلة التى نقلها الاسلام للرقيق ، حتى لو لم يكن عمل على تحريره — وهذا غير صحيح !.

كان الرقيق في عرف الرومان « شيئا » لا بشرا ، شيئا لا حقوق له البتة وان كان عليه كل ثقيل من الواجبات . ولنعلم أولا من أين كان يأتى هذا الرقيق : كان يأتى من طريق الغزو . ولم يكن هذا الغزو لفكرة ولا لمبدأ . وانما كان سببه الوحيد شهوة استعباد الآخرين وتسخيرهم لمصلحة الرومان . فلكى يعيش الرومانى عيشة البذخ والترف ، يستمتع بالحمامات الباردة والساخنة والثياب الفاخرة ، وأطايب الطعام من كل لون ، ويغرق في المتاع الفاجر من خمر ونساء ورقص وحفلات ومهرجانات ، كان لابد لكل هذا من استعباد الشعوب الاخرى وامتصاص دمائها . ومصر مثل لذلك حين كانت في قبضة الرومان ، قبل أن يخلصها من نيرهم الاسلام ، اذ كانت حقل قمح للامبراطورية ، وموردا للاموال ...

في سبيل هذه الشهوة الفاجرة كان الاستعمار الرومانى ، وكان الرق الذى نشأ من ذلك الاستعمار . أما الرقيق فقد كانوا

كما ذكرنا ـ أشياء ليس لها كيان البشر ولا حقوق البشر . كانوا يعملون فى الحقول وهم مصفدون فى الاغلال الثقيلة التى تكفى لمنعهم من الفرار . ولم يكونوا يطعمون الابقاء على وجودهم ليعملوا، لا لان من حقهم ـ حتى كالبهائم والاشجار ـ أن يأخذوا حاجتهم من الغذاء . وكانوا ـ فى أثناء العمل ـ يساقون بالسوط لغير شىء الا اللذة الفاجرة التى يحسها السيد أو وكيله فى تعذيب هذه المخلوقات . ثم كانوا ينامون فى « زنزانات » مظلمة كريهة الرائحة تعيث فيها الحشرات والفئران ، فيلقون فيها عشرات عشرات قد يبلغون خمسين فى الزنزانة الواحدة ـ بأصفادهم ـ فلا يتاح لهم حتى الفراغ الذى يتاح بين بقرة وبقرة فى حظيرة الحيوانات .

ولكن الشناعة الكبرى كانت شيئا أفظع من كل ذلك ، وادل على الطبيعة الوحشية التى ينطوى عليها ذلك الرومانى القديم ، والتى ورثها عنه الاوروبى الحديث فى وسائل الاستعمار والاستغلال .

تلك كانت حلقات المبارزة بالسيف والرمح ، وكانت من أحب المهرجانات اليهم ، فيجتمع اليها السادة وعلى رأسهم الامبراطور أحيانا ، ليشاهدوا الرقيق يتبارزون مبارزة حقيقية ، توجه فيها طعنات السيوف والرماح الى أى مكان فى الجسم بلا تحرز ولا احتياط من القتل . بل كان المرح يصل الى أقصاه ، وترتفع الحناجر بالهتاف والاكف بالتصفيق ، وتنطلق الضحكات السعيدة العميقة الخالصة حين يقضى احد المتبارزين على زميله قضاء كاملا ، فيلقيه طريحا على الارض فاقد الحياة !!.

كذلك كان الرقيق فى العالم الرومانى . ولا نحتاج أن نقول شيئا عن الوضع القانونى للرقيق عندئذ ، وعن حق السيد المطلق فى قتله وتعذيبه واستغلاله دون أن يكون له حق الشكوى ، ودون أن تكون هناك جهة تنظر فى هذه الشكوى أو تعترف بها ، فذلك لغو بعد كل الذى سردناه .

ولم تكن معاملة الرقيق فى فارس والهند وغيرها ، تختلف كثيرا عما ذكرنا من حيث اهدار انسانية الرقيق اهدارا كاملا ، وتحميله بأثقل الواجبات دون اعطائه حقا مقابلها ، وان كانت تختلف فيما بينها قليلا أو كثيرا فى مدى قسوتها وبشاعتها .

ثم جاء الاسلام ...

جاء ليرد لهؤلاء البشر انسانيتهم . جـاء ليقول للسـادة عن الرقيق : « بعضكم من بعض (١) » . جاء ليقول : « من قتل عبده قتلناه ، ومن جدع عبده جدعناه ، ومن أخصى عبده أخصيناه (٢) » . جاء ليقرر وحدة الاصل والمنشأ والمصير : « أنتم بنو آدم وآدم من تراب (٣) » . والله لا فضل لسيد على عبد لمجرد أن هذا سيد وهذا عبد ، وانما الفضل للتقوى : « ألا لا فضـل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسـود الا بالتقوى (٤) » . وليقرر ان السادة ليسوا أصحاب فضل حـين ينفقون على عبيدهم ، لأنهم جميعا فى وضع واحد بالنسبة لله خالق الجميع وحده ، ورازق الجميع وحده : « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فمـا الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم ، فهم فيه سواء» (٥) » . جاء ليأمر السادة أمرا أن يحسنوا معاملتهم للرقيق : « وبالوالدين احسانا ، وبذى القربى واليتـامى والمساكين والجار ذى القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختـالا فخورا (٦) » . وليقرر أن العلاقة بين السادة والرقيق ليست علاقة الاستعلاء والاستعباد ، أو التسخير والتحقير ، وانما هى علاقة القربى والاخوة . فالسادة « أهل » للجارية يستأذنون فى زواجها : « ... فما ملكت ايمانكم من فتياتكم المؤمنـات ... بعضكم من بعض ، فانكحوهن باذن أهلهن ، وأتوهن أجورهن بالمعـروف (٧) » . وهم اخوة للسادة : « اخوانكم خولكم ... فمن كان « أخوه » تحت يده

---

(١) سورة المائدة (٢٥) .

(٢) حديث رواه الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى .

(٣) حديث رواه مسلم وأبو داود .

(٤) أخرجه الطبرى فى كتاب « آداب النفوس » (باسناده عمن سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى) .

(٥) سورة النحل (٧١) .

(٦) سورة النساء (٣٦) .

(٧) سورة النساء (٢٥) .

فليطعمه مما يطعم ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فان كلفتموهم فأعينوهم (١) » · وزيادة فى رعاية مشاعر الرقيق يقول الرسول الكريم : « لا يقل احدكم : هذا عبدى وهـذه أمتى ، وليقل : فتاى وفتاتى (٢) » · ويستند على ذلك أبو هريرة فيقول لرجل ركب وخلفه عبده يجرى : « احمله خلفك ، فانه أخوك وروحه مثل روحك » ·

ولم يكن ذلك كل شيء · ولكن ينبغى قبل أن ننتقل الى الخطوة التالية أن نسجل القفزة الهائلة التى قفزها الاســلام بالرقيق فى هذه المرحلة ·

لم يعد الرقيق « شيئا » · وانما صــار بشرا له روح كروح السادة ، وقد كانت الامم الاخرى كلها تعتبر الرقيق جنسا آخر غير جنس السادة ، خلق ليستعبد ويستذل ، ومن هنا لم تكن ضمائرهم تتأثم من قتله وتعذيبه وكيه بالنــار وتسخيره فى الاعمال القذرة والاعمال الشاقة (٣) · ومن هنالك رفعه الاسلام الى مستوى الاخوة الكريمة ، لا فى عالم المثل والاحلام فحسب ، بل فى عالم الواقـع كذلك · ويشهد التاريخ ــ الذى لم ينكره أحد ، حتى الصليبيون المتعصبون من أهل اوروبا ــ بأن معاملة الرقيق فى صدر الاســلام بلغت حدا من الانسانية الرفيعة لم تبلغه فى أى مكان آخر · حدا جعل الرقيق المحررين يأبون مغادرة سادتهم السابقين ــ مع أنهم يملكون ذلك ــ لانهم يعتبرونهم أهلا لهم ، يربطهم بهم ما يشــبه روابط الدم ! ·

واصبح الرقيق كائنا انسانيا له كرامة يحميها القانون ، ولا

---

(١) حديث رواه البخارى ·

(٢) رواه أبو هريرة ·

(٣) يعتقد الهنود ان الرقيق (المنبوذين) خلقوا من اقدام الاله، ومن ثم فهم بخلقتهم حقراء مهينون ، ولا يمكن أن يرتفعوا عن هــذا الوضــع المقسوم لهم ، الا بتحمل الهوان والعذاب عسى أن تنسخ أرواحهم بعد الموت فى مخلوقات أفضل ! وبذلك تضاف الى لعنــة الوضع السيىء الذى يعيشون فيه لعنة أخرى روحية تقضى عليهم أن يرضوا بالذل ولا يقاوموه ·

يجوز الاعتداء عليها لا بالقول ولا بالفعل . فأما القول فقـــد نهى الرسول السادة عن تذكيرارقائهم بأنهم ارقاء ، وأمرهم أن يخاطبوهم بما يشعرهم بمودة الاهل ، وينفى عنهم صفة العبودية ، وقال لهم فى معرض هذا التوجيه : « ان الله ملككم اياهم ولو شـــاء لملكهم اياكم (١) » فهى اذن مجرد ملابسات عارضة جعلت هؤلاء رقيقا ، وكان من الممكن ان يكونوا سادة لمن هم اليوم سادة ! وبذلك يغض من كبرياء هؤلاء ، ويردهم الى الاصرة البشرية التى تربطهم جميعا . والمودة التى ينبغى أن تسود علاقاتهم بعضهم ببعض . واما الاعتداء الجسدى فعقوبته الصريحة هى المعاملة بالمثل : « من قتل عبـــده قتلناه ... » وهو مبدأ صريح الدلالة على المساواة الانسانية الكاملة بين الرقيق والسادة ، وصريح فى بيانات الضمانات التى يحيط بها حياة هذه الطائفة من البشر ــ التى لا يخرجها وضعها العارض عن صفتها البشرية الاصلية ــ وهى ضمانات كاملة ووافية .. تبلغ حدا عجيبا لم يصل اليه قط تشريع آخر من تشريعات الرقيق فى التاريخ كله ، لا قبل الاسلام ولا بعده ، اذ جعل مجرد لطم العبد فى غير تأديب (وللتاديب حدود مرسومة لايتعداها ، ولايتجاوز على أى حال ما يؤدب به السيد أبناءه) مبررا قانونيا لتحرير الرقيق !! .

ثم ننتقل الى المرحلة التالية ، مرحلة التحرير الواقعى .

لقد كانت الخطوة السابقة فى الواقع تحريرا روحيا للرقيق ، يرده الى الانسانية ، ومعاملته على أنه بشر كريم لا يفترق عن السادة من حيث الاصل ، وانما هى ظروف عارضة حدت من الحرية الخارجية للرقيق فى التعامل المباشر مع المجتمع ، وفيما عدا هذه النقطة كانت للرقيق كل حقوق الآدميين .

ولكن الاسلام لم يكتف بهذا ، لان قاعدته الاساســية العظمى هى المساواة الكاملة بين البشر ، وهى التحرير الكامل لكل البشر . ولذلك عمل فعلا على تحرير الارقاء ، بوسيلتين كبيرتين : هما العتق والمكاتبة .

---

(١) ذكره الامام الغزالى فى كتاب احياء علوم الدين فى الكلام عن حقوق المملوك ،فى حديث طويل قال انه آخر ما أوصى به الرسول صلى الله عليه وسلم .

فأما العتق فهو التطوع من جانب السادة بتحرير من فى يدهم من الارقاء . وقد شجع الاسلام على ذلك تشجيعا كبيرا.وكان الرسول الكريم القدوة الاولى فى ذلك ، اذ أعتق من عنده من الارقاء ، وتلاه فى هذا أصحابه وكان أبو بكرينفق أموالا طائلة فىشراء العبيد منسادة قريش الكفار ، ليعتقهم ويمنحهم الحرية . وكان بيت المـال يشترى العبيد من أصحابهم ويحررهم كلما بقيت لديه فضلة من مال . قال يحيى بن سعيد : « بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات أفريقية فجمعتها ثم طلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد فقيرا ولم نجد من يأخذها منا ، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشتريت بهـا عبيدا فأعتقتهم » .

وكان النبى يعتق من الارقاء من يعلم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة ، أو يؤدى خدمة مماثلة للمسلمين . ونص القرآن الكريم على أن كفارة بعض الذنوب هى عتق الرقاب . كما كان النبى يحث على العتق تكفيرا عن أى ذنب يأتيه الانسان . وذلك للعمل على تحرير أكبر عدد ممكن منهم ، فالذنوب لا تنقطع . وكل ابن آدم خطاء .كما يقول الرسول . ويحسن هنا ان نشير خاصة الى احدى هذه الكفارات لدلالتها الخاصة فى نظرة الاسلام الى الرق ، فقد جعل كفارة القتل الخطأ دية مسلمة الى أهل القتيل وتحرير رقبة : « ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله (١) » . والقتيل الذى قتل خطأ هو روح انسانية قد فقدها أهلها كما فقدها المجتمع قبل أوانها ، لذلك يقرر الاسلام التعويض عنها من جانبين : التعويض لاهلهـا بالدية المسلمة لهم ، والتعويض للمجتمع بتحرير رقبة مؤمنة ! فكأن تحرير الرقيق هو احياء لنفس انسانية تعوض النفس التى ذهبت بالقتل الخطأ . والرق على ذلك هو موت أو شبيه بالموت فى نظر الاسلام ، على الرغم من كل الضمانات التى أحاط بها الرقيق ، ولذلك فهوينتهز كل فرصة « لاحياء » الارقاء بتحريرهم من الرق (٢) .

ويذكر التاريخ أن عددا ضخما من الارقاء قد حـرر بطريق العتق ، وأن هذا العدد الضخم لا مثيل له فى تاريخ الامم الاخرى

---

(١) سورة النساء (٩٢) .

(٢) عن « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » .

لا قبل الاسلام ، ولا بعده بقرون عدة حتى مطلع العصر الحديث . كما أن عوامل عتقهم كانت انسانية بحتة ؛ تنبع من ضمائر الناس ابتغاء مرضاة الله ، ولا شيء غير مرضاة الله .

أما المكاتبة فهي منح الحرية للرقيق متى طلبها بنفسه ، مقابل مبلغ من المال يتفق عليه السيد والرقيق . والعتق هنا اجبارى لايملك السيد رفضه ، ولا تأجيله بعد أداء المبلغ المتفق عليه ، والا تدخلت الدولة (القاضي او الحاكم) لتنفيذ العتق بالقوة ، ومنح الحرية لطالبها .

وبتقرير المكاتبة فتح في الواقع باب التحرير في الاسلام ، لمن أحس داخل نفسه برغبة التحرر ، ولم ينتظر أن يتطوع سيده بتحريره في فرصة قد تسنح أو لا تسنح على مر الايام .

ومنذ اللحظة الاولى التي يطلب فيها الرقيق المكاتبة ـ والسيد لايملك رفض المكاتبة متى طلبها الرقيق ولم يكن في تحريره خطر على من الدولة الاسلامية ـ يصبح عمله عند سيده بأجر ، أو يتاح له ـ اذا رغب ـ أن يعمل في الخارج بأجر ، حتى يجمع المبلغ المتفق عليه .
ومثل ذلك قد حدث في أوربا في القرن الرابع عشر ـ أي بعد تقرير الاسلام له بسبعة قرون ـ مع فارق كبير لم يوجد في غير الاسلام ، وهو كفالة الدولة للارقاء المكاتبين وذلك الى جانب مجهود الاسلام الضخم في عتق الارقاء تطوعا بلا مقابل ، تقربا الى الله ووفاء بعبادته .
تقول الآية التي تبين مصارف الزكاة : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ... وفي الرقاب ... (١) » فتقرر أن الزكاة تصرف من بيت المال ـ وهو وزارة المالية في العرف الحديث ـ لمعاونة المكاتبين من الارقاء لاداء ثمن التحرير ، اذا عجزوا بكسبهم الخاص عن أدائه .

وبهذا وذاك يكون الاسلام قد خطا خطوات فعلية واسعة في سبيل تحرير الرقيق ، سبق بها التطور التاريخي كله بسبعة قرون على الاقل ، وزاد على هذا التطور عناصر ـ كرعاية الدولة ـ لم يفيء اليها العالم الا في مطلع تاريخه الحديث . وعناصر أخرى لم يفيء اليها

---

(١) سورة التوبة (٦٠)

أبدا ، سواء فى حسن معاملة الرقيق ، أو فى عتقه تطوعا ، بغير ضغط من التطورات الاقتصادية أو السياسية التى اضطرت الغرب اضطرارا لتحرير الرقيق كما سيجىء .

وبهذا وذاك تسقط حذلقة الشيوعيين ودعاواهم « العلمية » الزائفة ، التى تزعم أن الاسلام حلقة من حلقات التطور الاقتصادى جاءت فى موعدها الطبيعى حسب سنة المادية الجدلية ـ فها قد سبقت موعدها بسبعة قرون ـ والتى تزعم أن كل نظام ـ بما فى ذلك الاسلام ـ ان هو الا انعكاس للطور الاقتصادى القائم وقت ظهوره ، وأن كل عقائده وأفكاره تلائم هذا التطور وتستجيب له ، ولكنها لا تسبقه ، ولا تستطيع أن تسبقه ، كما قرر العقل الذى لا يخطىء ولا يأتيه الباطل من فوقه ولا من تحته ، عقل كارل ماركس تقدست ذكراه ! فها هو ذا الاسلام لم يعمل بوحى النظم الاقتصادية القائمة حينئذ فى جزيرة العرب وفى العالم كله ، لا فى شأن الرقيق ، ولا فى توزيع الثروة ، ولا فى علاقة الحاكم بالمحكوم أو المالك بالاجير (١) ، وانما كان ينشىء نظمه الاجتماعية والاقتصادية تطوعا وانشاء على نحو غير مسبوق ، ولا يزال فى كثير من أبوابه منفردا فى التاريخ .

***

وهنا يخطر السؤال الحائر على الافكار والضمائر : اذا كان الاسلام قد خطا هذه الخطوات كلها نحو تحرير الرقيق ، وسبق بها العالم كله متطوعا غير مضطر ولا مضغوط عليه ، فلماذا لم يخط الخطوة الحاسمة الباقية ، فيعلن فى صراحة كاملة الغاء الرق من حيث المبدأ ، وبذلك يكون قد أسدى للبشرية خدمة لا تقدر ، ويكون هو النظام الاكمل الذى لا شبهة فيه ، والجدير حقا بأن يصدر عن الله الذى كرم بنى آدم ، وفضلهم على كثير ممن خلق ؟.

وللاجابة عن هذا السؤال ينبغى أن ندرك حقائق اجتماعية وسيكلوجية وسياسية أحاطت بموضوع الرق ، وأخرت هذا الاعلان المرتقب بالغاء الرق ، وان كان ينبغى أن ندرك انه تأخر فى الواقع

---

(١) انظر الفصول التالية .

كثيرا جدا عما أراد له الاسلام ، وعما كان يمكن أن يحدث لو سار الاسلام فى طريقه الحق ، ولم تفسده الشهوات والانحرافات .

يجب أن نذكر أولا أن الاسلام جاء والرق نظام معترف به فى جميع أنحاء العالم ، بل كان عملة اقتصادية واجتماعية متـــداولة ، لا يستنكرها أحد ، ولا يفكر فى امكان تغييرها أحد . لذلك كان تغيير هذا النظام او محوه أمرا يحتاج الى تدرج شديد وزمن طويل . وقد احتاج ابطال الخمر الى بضع سنوات . والخمر عادة شخصية قبـل كل شيء ، وان كانت ذات مظاهر اجتماعية ، وكان بعض العرب أنفسهم فى الجاهلية يتعففون عنها ، ويرون فيها شرا لا يليق بذوى النفوس العالية .

والرق كان أعمق فى كيان المجتمع ونفوس الافراد ، لاشتماله على عوامل شخصية واجتماعية واقتصادية . ولم يكن أحد يستنكره كما أسلفنا . لذلك كان ابطاله فى حاجة الى زمن أطول مما تتسع له حياة الرســـول ، وهى الفترة التى كان ينزل فيها الوحى بالتنظيم والتشريع ، والله أعلم بمن خلق . فلو كان الله يعلم أن ابطال الخمر يكفى فيه اصدار تشريع ينفذ لساعته ، لما حرمها ــ سبحانه وتعالى ــ فى بضع سنوات .

ولو كان يعلم أن ابطال الرق يكفى له مجرد اصدار «مرسوم» بالغائه لما كان هناك سبب لتأخر هذا المرسوم ! وقد ظل الرق نظاما معمولا به فى أوربا ألف سنة بعد الاسلام،حتى ألغته الثورة الفرنسية من حيث المبدأ . وظل فى أمريكا بعد ذلك حتى ألغاه ابراهام لنكولن من حيث المبدأ أيضا سنة ١٨٦٣ . وكان موجودا فى الحبشة الى ما قبل الغزو الايطالى الاخير . ولا يزال موجودا بصفة رسمية فى بعض أجزاء العالم التى لم تصلها الاديان ، ولم تنفذ اليها الحضارة . فلم يكن فى وسع الاسلام أن يتخطى هذه الاجيال كلها ، ويصدر تشريعا يحتاج تنفيذه الى ألف سنة ! وليس معنى قولنا ان الاسلام قد نزل للبشرية جميعا وللاجيال جميعا ، وانه يحمل العناصر الصالحة للبقاء والاستمرار ، انه قد وضع التشريعات التفصيلية « لكل » مايجد من الملابسات فى جميع الاجيال ، فهو يصنع ذلك فقط فى المسائل التى لا تتغير فى جيل عن جيل ، لانها تتعلق بالكيان البشرى فى أعماقه ،

والنزعات الفطرية فى منبتها . أما الملابسات المتغيرة على الدوام فحسبه فيها أن يضع الاسس العامة التى ينبغى أن تتطور البشرية فى حدودها . وكذلك صنع فى مسألة الرق ، اذ وضع الاسس الكاملة للتحرير ، عتقا ومكاتبة ، وأشار الى الطريق الذى ينبغى أن تسلكه الانسانية للخلاص من هذه المشكلة القديمة ، حتى يجىء الوقت المناسب للقضاء عليها نهائيا .

والاسلام لم ينزل لتغيير طبائع البشر . وليس فى وسع أى نظام مهما يكن مصدره أن يغير طبائع الناس بالقوة وانما نزل الاسلام لتهذيب البشر فى حدود واقعهم السيكلوجى ، والارتفاع بهم ـ دون كبت ولا قهر ـ الى اقصى ما يستطيعونه من ارتفاع . وقد وصل الى حد الاعجاز فى تهذيب بعض الافراد فكأنهم ملائكة لا بشر . ووصل فى ذلك من حيث النوع والكم الى ما لم يصل اليه نظام آخر فى التاريخ ولكنه مع ذلك كله لم يكن مكلفا أن يحول جموع الناس الى ملائكة . ولو أراد الله ذلك لخلق الناس منذ البدء ملائكة ، وكلفهم تكاليف لانضاجهم . ويكفى الاسلام على أى حال أن يكون هو الذى بدأ حركة التحرير فى العالم ، قبل أن تفىء اليها البلاد التى لم تعتنق الاسلام بسبعة قرون ، وأنه فى الواقع قد جفف منابع الرق القديمة كلها فى الجزيرة العربية ، وكان قمينا أن يلغيه بالنسبة للمستقبل فى العالم الاسلامى ، لولا منبع جديد ظل يفيض بالرق من كل مكان ، ولم يكن فى وسع الاسلام يومئذ القضاء عليه ، لانه لا يتعلق به وحده ، وانما يتعلق بأعدائه الذين ليس له عليهم سلطان ، ذلك هو رق الحرب ، وسنتحدث عنه بشىء من التفصيل بعد قليل .

ويجب أن نذكر ثانيا ان الحرية لا تمنح وانما تؤخذ . وتحرير الرقيق باصدار مرسوم لم يكن ليحرر الرقيق ! والتجربة الامريكية فى تحرير الرقيق بجرة قلم على يد ابراهام لنكولن خير شاهد لما نقول فالعبيد الذين حررهم لنكولن ـ من الخارج ـ بالتشريع ، لم يطيقوا الحرية ، وعادوا الى سادتهم يرجونهم أن يقبلوهم عبيدا لديهم كما كانوا ، لانهم ـ من الداخل ـ لم يكونوا قد تحرروا بعد .

والمسألة على غرابتها ليست غريبة حين ينظر اليها على ضوء الحقائق النفسية . فالحياة عادة . والملابسات التى يعيش فيها الانسان هى التى تكيف مشاعره وتصوغ احاسيسه وأجهزته

النفسية (١) • والكيان النفسى للعبد يختلف عن الكيان النفسى للحر، لا لانه جنس آخر كما ظن القدماء ، ولكن لان حياته فى ظل العبودية الدائمة جعلت أجهزته النفسية تتكيف بهذه الملابسات ، فتنمو أجهزة الطاعة الى أقصى حد • وتضمر أجهزة المسئولية واحتمال التبعات الى أقصى حد •

فالعبد يحسن القيام بكثير من الامور حين يأمره بها سيده ، فلا يكون عليه الا الطاعة والتنفيذ • ولكنه لا يحسن شيئا تقع مسئوليته على نفسه ، ولو كان أبسط الاشياء ، لا لان جسمه يعجز عن القيام بها ، ولا لان فكره ــ فى جميع الأحوال ــ يعجز عن فهمها ، ولكن لان نفسه لا تطيق احتمال تبعاتها ، فيتخيل فيها اخطارا موهومة ، ومشكلات لا حل لها ، فيفر منها ابقاء على نفسه من الاخطار ! •

ولعل الذين يتعمون النظر فى الحياة المصرية ــ والشرقية ــ فى العهود الاخيرة يدركون أثر هذه العبودية الخفية التى وضعها الاستعمار الخبيث فى نفوس الشرقيين ليستعبدهم للغرب • يدركونها فى المشروعات المعطلة التى لا يعطلها ــ فى كثير من الاحيان ــ الا الجبن عن مواجهة نتائجها ! والمشروعات المدروسة التى لا تنفذها الحكومات حتى تستقدم خبيرا انجليزيا أو أمريكيا •• الخ ، ليتحمل عنها مسئولية المشروع ويصدر الاذن بالتنفيذ ! والشلل المروع الذى يخيم على الموظفين فى الدواوين ويقيد انتاجهم بالروتين المتحجر ، لان احدا من الموظفين لا يستطيع أن يصنع الا ما يأمره به « السيد » الموظف الكبير وهذا بدوره لا يملك الا اطاعة « السيد » الوزير ، لا لان هؤلاء جميعا يعجزون عن العمل ، ولكن لان جهاز التبعات عندهم متضخم ، فهم أشبه شىء بالعبيد ، وان كانوا رسميا من الاحرار •

هذا التكيف النفسى للعبد هو الذى يستعبده وهو ناشىء فى أصله من الملابسات الخارجية بطبيعة الحال ، ولكنه يستقل عنها ،

---

(١) يقول دعاة المذهب المادى ان الملابسات الخارجية هى التى « تخلق » المشاعر • ونحن لا نؤمن بذلك لان فيه مغالطة صارخة • فهناك رصيد نفسى سابق فى وجوده لهذه الملابسات ، وهى « تكيف » هذا الرصيد ولكنها لا تخلقه من العدم •

يصبح شيئا قائما بذاته ، كفرع الشجرة الذى يتدلى الى الارض ثم يمد جذورا خاصة به ويستقل عن الاصل . وهذا التكيف النفسى لا يذهب به اعلان تصدره الدولة بالغاء الرقيق بل ينبغى أن يغير من الداخل ، بوضع ملابسات جديدة تكيف المشاعر على نحو آخر ، وتنمى الاجهزة الضامرة فى نفس العبد ، وتصنع كيانا بشريا سويا من كيانه المشوه الممسوخ .

وذلك ما صنعه الاسلام .

فقد بدأ أولا بالمعاملة الحسنة للرقيق . ولا شيء كحسن المعاملة يعيد توازن النفس المنحرفة ، ويرد اليها اعتبارها ، فتشعر بكيانها الانسانى ؛ وكرامتها الذاتية ؛ وحين ذلك تحس طعم الحرية فتتذوقه، ولا تنفر منه كما نفر عبيد أمريكا المحررون .

وقد وصل الاسلام فى حسن المعاملة ورد الاعتبار الانسانى للرقيق الى درجة عجيبة ضربنا أمثلة منها من قبل فى آيات القرآن وأحاديث الرسول ، ونسرد هنا أمثلة أخرى فى التطبيق الواقعى .

كان الرسول يؤاخى بين بعض العبيد وبعض الاحرار من سادة العرب ، فآخى بين بلال بن رباح وخالد بن رويحة الخثعمى ، وبين مولاه زيد وعمه حمزة ، وبين خارجة بن زيد وأبى بكر ، وكانت هذه المؤاخاة صلة حقيقية تعدل رابطة الدم ، وتصل الى حد الاشتراك فى الميراث !.

ولم يكتف بهذا الحد ...

فقد زوج بنت عمته زينب بنت جحش من مولاه زيد ، والزواج مسالة حساسة جدا وخاصة من جانب المرأة ، فهى تقبل أن تتزوج من يفضلها مقاما ، ولكنها تأبى أن يكون زوجها دونها فى الحسب والنسب والثروة ، وتحس أن هذا يحط من شأنها ويغض من كبريائها . ولكن الرسول كان يهدف الى معنى أسمى من كل ذلك ، وهو رفع الرقيق من الوهدة التى دفعته اليها البشرية الظالمة الى مستوى أعظم سادة العرب من قريش .

ولم يكتف كذلك بهذا الحد ...

فقد أرسل مولاه زيدا على رأس جيش فيه الانصار والمهاجرون من سادات العرب ، فلما قتل ولى ابنه أسامه بن زيد قيادة الجيش. وفيه أبو بكر وعمر وزيرا الرسول وخليفتاه من بعده ، فلم يعط الرقيق بذلك مجرد المساواة الانسانية ، بل أعطاه حق القيادة والرياسة على « الاحرار » . ووصل فى ذلك الى أن يقول : «اسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله تبارك وتعالى (١) » . فاعطى العبيد بذلك الحق فى أرفع مناصب الدولة كلها ، وهو خلافة المسلمين . وقد قال عمر وهو يستخلف : « لو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا لوليته » فيسير على نفس المبدأ الذى سنه الرسول .

ويضرب عمر مثلا آخر من الامثلة الرائعة على احترام الرقيق، اذ يعارضه بلال بن رباح فى مسألة الفىء فيشتد فى معارضته ، فلا يجد سبيلا فى رده الا أن يقول : « اللهم اكفنى بلالا وأصحابه » ! ذلك وهو الخليفة الذى كان يملك ــ لو أراد ــ أن يأمر فيطاع ! .

هذه النماذج التى وضعها الاسلام كان المقصود بها تحرير الرقيق من الداخل ــ كما قلنا فى مبدأ هذا الفصل ــ لكى يحس بكيانه فيطلب الحرية ، وهذا هو الضمان الحقيقى للتحرير .

وصحيح أنه شجع على العتق واستحث عليه بكل الوسائل ، ولكن هذا نفسه كان جزءا من التربية النفسية للرقيق ؛ لكى يشعروا أن فى امكانهم أن يحصلوا على الحرية ويتمتعوا بكل ما يتمتع به السادة من حقوق ، فتزداد رغبتهم فى الحرية ، ويتقبلوا احتمال التبعات فى سبيلها ؛ وهنا يسارع فى منحها لهم ! لانهم حينئذ مستحقون لها ، قادرون على صيانتها .

وفرق كبير بين النظام الذى يشجع على طلب الحرية ويهيىء لها الوسائل ثم يعطيها لهم فى اللحظة التى يطلبونها بأنفسهم ، وبين النظم التى تدع الامور تتعقد وتتحرج ، حتى تقوم الثورات الاقتصادية والاجتماعية ، وتزهق الارواح بالمئات والالوف ؛ ثم لا تعطى الحرية لطلابها الا مجبرة كارهة .

---

(١) رواه البخارى .

وقد كان من فضائل الاسلام الكبرى فى مسأله الرقيق ، أنه قد حرص على التحرير الحقيقى له من الداخل والخارج ، فلم يكتف بالنية الطيبة كما فعل لنكولن باصدار تشريع لا رصيد له فى داخل النفوس ، مما يثبت عمق ادراك الاسلام لطبيعة البشرية ، وفطنته الى خير الوسائل لمعالجتها . وهذا الى جانب تطوعه باعطاء الحقوق لاصحابها ؛ مع تربيتهم على التمسك بها واحتمال تبعاتها على أساس الحب والمودة بين جميع طوائف المجتمع ، قبل أن يتصارعوا من أجل هذه الحقوق كما حدث فى أوربا ، ذلك الصراع البغيض الذى يجفف المشاعر ويورث الاحقاد ، فيفسد كل ما يمكن أن تصيبه البشرية من الخير فى أثناء الطريق .

وأخيرا نعود الى العامل الاكبر الذى غل يد الاسلام عن تحريم الرق قبل أربعة عشر قرنا من الزمان .

قلنا ان الاسلام قد جفف منابع الرق القديمة كلها ، فيما عدا منبعا واحدا لم يكن فى طوقه أن يجففه ، وذلك هو رق الحرب . والآن نأخذ فى شىء من التفصيل .

كان العرف السائد يومئذ هو استرقاق أسرى الحـــرب أو قتلهم (١) وكان هذا العرف قديما جدا ، موغلا فى ظلمات التاريخ يكاد يرجع الى الانسان الاول . ولكنه ظل ملازما للانسانيـــة فى شتى أطوارها .

وجاء الاسلام والناس على هذا الحال . ووقعت بينه وبين أعدائه الحروب فكان الاسرى المسلمون يسترقون عند أعداء الاسلام، فتسلب حرياتهم ، ويعامل الرجال منهم بالعسف والظلم الذى كان يجرى يومئذ على الرقيق ، وتنتهك أعراض النساء لكل طالب ، يشترك فى المرأة الواحدة الرجل وأولاده وأصدقاؤه ممن يبغى الاستمتاع منهم .

---

(١) جاء فى الموسوعة التاريخية المسماة « تاريخ العـــالم » Universal History of the World . فى ص ٢٢٧٣ ما ترجمته : « وفى سنة ٥٩٩ رفض الامبراطور (الرومانى) موريس — بسبب رغبته فى الاقتصاد — أن يفتدى بضع ألوف من الاسرى وقعوا فى يد الآوار ، فقتلهم خان الآوار عن بكرة أبيهم » .

بلا ضابط ولا نظام ، ولا احترام لانسانية أولئك النساء أبكارا كن ام غير أبكار . أما الاطفال ـ ان وقعوا أسرى ـ فكانوا ينشأون فى ذل العبودية البغيض .

عندئذ لم يكن فى وسع الاسلام أن يطلق سراح من يقع فى يده من أسرى الاعداء . فليس من حسن السياسة أن تشجع عدوك عليك باطلاق أسراه ، بينما أهلك وعشيرتك وأتباع دينك يسامون الخسف والعذاب عند هؤلاء الاعداء . والمعاملة بالمثل هنا هى أعدل قانون تستطيع استخدامه ، أو هى القانون الوحيد .

وقد مرت على الاسلام أربعة عشر قرنا ، وتقلبت البشرية فى نظم شتى ؛ ودخلت فى حروب لا نهاية لها ، ثم ها هى ذى فى نهاية المطاف لا تجد قانونا ترجع اليه فى مسألة الاسرى،غير قانون المعاملة بالمثل ! والحرب الكورية الاخيرة ما تزال ماثلة للاذهان ؛ والمشكلة القائمة بشأن أسراها لا تزال موضع النزاع .

واذن فقد كانت ضرورة لا فكاك للاسلام منها ، ما دام العدو مصرا على استرقاق الاسرى . والاسلام لا سلطان له عليه . ضرورة تظل قائمة حتى يتفق العالم على مبدأ آخر فى معاملة هؤلاء الاسرى غير مبدأ الاسترقاق . ومع ذلك فينبغى أن نلاحظ فروقا عميقة بين الاسلام وغيره من النظم فى شأن الحرب وأسرى الحرب .

كانت الحروب ـ وما تزال ـ فى غير العالم الاسلامى لا يقصد بها الا الغزو والفتك والاستعباد . كانت تقوم على رغبة أمة فى قهر غيرها من الامم ، وتوسيع رقعتها على حسابها أو لاستغلال مواردها وحرمان أهلها منها ، أو لشهوة شخصية تقوم فى نفس ملك أو قائد حربى ؛ ليرضى غروره الشخصى وينتفش كبرا وخيلاء ، أو لشهوة الانتقام ... أو ما الى ذلك من الاهداف الارضية الهابطة . وكان الاسرى الذين يسترقون لا يسترقون لخلاف فى عقيدة ، ولا لانهم فى مستواهم الخلقى أو النفسى أو الفكرى أقل من آسريهم ، ولكن فقط لانهم غلبوا فى الحرب .

وكذلك لم تكن لهذه الحرب تقاليد تمنع من هتك الاعراض أو تخريب المدن المسالمة أو قتل النساء والاطفال والشيوخ ، وذلك منطقى مع قيامها لغير عقيدة ولا مبدأ ولا هدف رفيع .

فلما جاء الاسلام أبطل ذلك كله ، وحرم الحروب كلها . الا ان تكون دفعا لعدوان أو مخافة الفتنة من المفرقين : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم،ولاتعتدوا ان الله لايحب المعتدين (١) » . « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله (٢) » .

وعلى ذلك لا يبدأ المسلمون الحرب العدوانية أبدا ، ولايكونون هم المعتدون أبدا . أما نشر الدعوة فلا يقوم على الحرب بادىء ذى بدء ، فهى دعوة سلمية لا تكره أحدا : « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى (٣) » . وبقاء اليهود والمسيحيين فى العالم الاسلامى على دينهم حتى اللحظة . برهان قاطع لا يقبل الجدل ولا المماحكة ، يثبت أن الاسلام لم يكره غيره على اعتناقه بقوة السيف (٤) .

فاذا قبل الناس الاسلام ، واهتدوا الى دين الحق . فلا حرب ولا خصومة ، ولا خضوع من أمة لأمة ، ولا تمييز بين مسلم ومسلم على وجه الارض : ولا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى .

فمن أبى الاسلام وأراد أن يحتفظ بعقيدته ـ مع ايمان الاسلام بانه خير من هذه العقيدة وأقوم سبيلا ـ فله ذلك دون اكراه ولا ضغط . على أن يدفع الجزية مقابل حماية الاسلام له ، بحيث تسقط الجزية أو ترد ان عجز المسلمون عن حمايته (٥) . فاذا أبوا الاسلام

---

(١) سورة البقرة (١٩٠) .

(٢) سورة الانفال (٣٩) .

(٣) سورة البقرة (٢٥٦) .

(٤) شهد بذلك مسيحى أوربى هو السير ت . و . أرنولد فى كتابه (الدعوة الى الاسلام) .

(٥) الامثلة على ذلك كثيرة ، منها مثالان وردا فى كتاب أرنولد (الدعوة الى الاسلام) ص ٥٨ : قال : «وكذلك حدث أن سجل فى المعاهدة التى أبرمها مع بعض أهالى المدن المجاورة للحيرة: فان منعناكم فلنا الجزية والا فلا ، وقال : « . . . فلما علم أبو عبيدة قائد العرب بذلك (بتجهيز هرقل لمهاجمته) كتب الى عمال المدن المفتوحة فى الشام يامرهم بان يردوا عليهم ماجبى من الجزية من هذه المدن ، وكتب الى الناس يقول : «انما رددنا عليكم أموالكم لانه بلغنا ماجمع لنا من

والجزية فهم اذن معاندون متبجحون ، لايريدون للدعوة السلمية ان تأخذ طريقها ، وانما يريدون أن يقفوا بالقوة المادية فى طريق النور الجديد يحجبونه عن عيون قوم ربما اهتدوا لو خلى بينهم وبين النور .

عند ذلك فقط يقوم القتال ، ولكنه لايقوم بغير انذار واعلان ، لاعطاء فرصة أخيرة لحقن الدماء ونشر السلم فى ربوع الارض : «وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله (١) » .

تلك هى الحرب الاسلامية ، لاتقوم على شهوة الفتح ولا رغبة الاستغلال ولا دخل فيها لغرور قائد حربى أو ملك مستبد ، فهى حرب فى سبيل الله ، وفى سبيل هداية البشرية حين تحقق الوسائل السلمية كلها فى هداية الناس .

ولها مع ذلك تقاليد ، الرسول فى وصيته :

اغزوا باسم الله فى سبيل الله . قاتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا (٢) » .

فلا قتل لغير المحارب الذى يقف بالسلاح ليقاتل المسلمين ، ولا تخريب ولا تدمير ، ولا هتك للأعراض ، ولا اطلاق لشهوة الشر والافساد : «ان الله لايحب المفسدين» .

وقد راعى المسلمون تقاليدهم النبيلة هذه فى كل حروبهم ، حتى فى الحروب الصليبيه الغادرة ، حين انتصروا على عدوهم الذى كان فى جولة سابقة قد انتهك الحرمات واعتدى على المسجد الأقصى فهاجم المحتمين فيه بحمى الله ـ رب الجميع ـ وأسال دماءهم فيه أنهارا، فلم ينتقموا لانفسهم حتى جاءهم النصر وهم يملكون الاذن من الدين ذاته بالمعاملة بالمثل : «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى

= الجموع . وانكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وانالانقدرعلى ذلك، وقد رددنا عليكم ماأخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم أن نصرنا الله عليهم .

(١) سورة الانفال (٦١) .

(٢) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى .

عليكم(١) » . ولكنهم ضربوا المثل الأعلى الذى يعجزعنه غير المسلمين فى كل الارض حتى العصر الحديث .

ذلك فارق أساسى فى أهداف الحرب وتقاليدها بين المسلمين وغير المسلمين . وقد كان الاسلام يملك لو أراد ـ والحق يسنده فى ذلك ـ أن يعتبر من يقع فى يديه من الأسرى ، ممن وقفوا بالقـــوة المسلحة يعاندون الهدى ، ويصرون على وثنيتهم الهابطة ، وشركهم المخرف ، قوما ناقصى الآدمية ، ويسترقهم بهذا المعنى وحده . فما يصر بشر على هذه الخرافة ـ بعد اذ يرى النور ـ الا أن يكون فى نفسه هبوط أو فى عقله انحراف ، فهو ناقص فى كيانه البشرى ، غـــير جدير بكرامة الآدميين ، وحرية الأحرار من بنى الانسان .

ومع ذلك فلم يلجأ الاسلام الى هـــذا الطريق . ولم يسترق الأسرى لمجرد اعتباره انهم ناقصون فى آدميتهم . وانما لجأ الى المعاملة بالمثل فحسب ، فعلق استرقاقه للأسرى على اتفاق الدول المتحاربة على مبدأ آخرغير الاسترقاق ، ليضمن فقط الا يقع الأسرى المسلمون فى ذلك الرق بغير مقابل .

ومما هو جدير بالاشارة هنا . أن الآية الوحيدة التى تعرضت لأسرى الحرب : «فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها(٢)» لم تذكر الاسترقاق للاسرى ، حتى لايكون هذا تشريعا دائما للبشرية ، وانما ذكرت الفداء ، أو اطلاق السراح بلا مقابل ، لان هذا وذاك هما القانونان الدائمان ، اللذان يريد القرآن للبشرية أن تقصر عليهما معاملتها للاسرى فى المستقبل القريب أو البعيد . وانما كان أخذ المسلمين بمبدأ الاسترقاق خضوعا لضرورة قاهرة لافكاك منها ، وليس خضوعا لنص فى التشريع الاسلامى .

ومع هذا فلم يكن تقليد الاسلام الدائم هو استرقاق الأسرى ، فحيثما أمن لم يسترقهم . وقد أطلق الرسول أسرى المشركين فى بدر منا بغير فداء ، واخذ من نصارى نجران جزية ورد اليهم أسراهم . ليضرب بذلك المثل لما يريد ان تهتدى اليه البشرية فى مستقبلها . حين تتخلص من وراثاتها الكريهة ، وتستطيع ان تضبط شهواتها .

---

(١) سورة البقرة (١٩٤) .

(٢) سورة محمد (٤) .

وترتفع الى الانسانية حتى فى القتال ، وحينئذ يكون الاسلام أول مرحب وأول مستجيب ٠

يضاف الى ذلك أن الأسرى الذين يقعون فى يد الاسلام كانوا يعاملون تلك المعاملة الكريمة التى وصفناها من قبل ، ولا يلقون الهوان والتعذيب ، وكان يفتح أمامهم باب التحرر حين تسعى نفوسهم اليه وتحتمل تبعاته ، وان كان معظمهم فى الواقع لم يكن حرا قبل أسره ، وانما كان من الرقيق الذى استرقه الفرس والرومان ودفعوه الى قتال المسلمين ٠

اما النساء فقد كرمهن ـ حتى فى رقهن ـ عما كن يلقين فى غير بلاد الاسلام ، فلم تعد أعراضهن نهبا مباحا لكل طالب على طريقة البغاء (وكان هذا مصير أسيرات الحروب فى أغلب الأحيان) وانما جعلهن ملكا لصاحبهن فقط ، لايدخل عليهن أحد غيره ، وجعل من حقهن نيل الحرية بالمكاتبة ، كما كانت تحرر من ولدت لسيدها ولدا ، ويحرر معها ولدها ، وكن يلقين من حسن المعاملة ما أوصى به الاسلام ٠

* * *

تلك قصة الرق فى الاسلام : صفحة مشرقة فى تاريخ البشرية فالاسلام لم يوافق على هذا الرق من حيث المبدأ ، بدليل أنه سعى الى تحريره بشتى الوسائل ، وجفف منابعه لكى لايتجدد ٠ وانما كانت هناك ضرورة لايملك الاسلام الخلاص منها ، لانها لا تتعلق به وحده ، وانما تتعلق بدول وأقوام لاسلطان للاسلام عليهم ، يسترقون الأسرى المسلمين ويسومونهم سوء العذاب ، فلا بد من معاملتهم بالمثل فى مبدأ الاسترقاق على الأقل وان لم يكن فى طريقة معاملة الرقيق ، والمعاملة بالمثل قانون دولى لايزال قائما الى اليوم بعد نزول الاسلام بما يقرب من ألف وأربعمائة عام ٠

وظل الاسلام مضطرا الى عدم الغاء الرق حتى يتفق العالم كله على تجفيف هذا المنبع الوحيد الذى يعترف به الاسلام مبررا للرق ، وفى اللحظة التى يحدث فيها هذا الاتفاق يرجع الاسلام الى قاعدته العظمى التى قررها بصراحة كاملة لامواربة فيها : وهى الحرية للجميع والمساواة للجميع ٠

أما ماحدث فى بعض العهود الاسلامية من الرق فى غير أسرى الحروب الدينية ، ومن نخاسة واختطاف وشراء لمسلمين لا يجـوز استرقاقهم أصلا ،فان نسبته الى الاسلام ليست أصدق ولا أعـدل من نسبة ملوك المسلمين اليوم الى الاسلام ، بما يرتكبونه من موبقات وآثام !

وينبغى ان نجمل فى بالنا عدة أمور فى هذا الموضوع :

الاول : هو تعدد منابع الرق عند الدول الاخرى بغير ضرورة ملجئة سوى شهوة الاستعباد ، من استرقاق امة لأمة ، وجنس لجنس واسترقاق للفقر ، واسترقاق بالوراثة من الميلاد في طبقة معينـة ، واسترقاق بسبب العمل في الارض الخ . والغاء هذه المنابع كلها فى الاسلام ، فيما عدا المنبع الواحد الذى لم يكن يملك امره ، وانمـا كان خاضعا فيه للضرورة ، وريثما تنتهى هذه الضرورة .

والثانى : ان أوروبا مع تعدد موارد الرق فيها بغير ضرورة ، لم تلغ الرق حين الغته متطوعة ـ ، وكتابهم يعترفون بأن الرق ألغى حين ضعف انتاج الرقيق ـ لسوء أحوالهم المعيشية وفقدان الرغبة أو القدرة على العمل ـ بحيث أصبحت تكاليف العبد من اعاشـة وحراسة أكثر من انتاجه ! فهى اذن حسبة اقتصادية لاغير ، يحسب فيها المكسب والخسارة ، ولا ظل فيها لاى معنى من المعانى الانسانية التى تشعر بكرامة الجنس البشرى ، فتمنح الرقيق حريته من أجلها ! هذا بالاضافة الى الثورات المتتابعة التى قام بها الرقيق فاستحال معها دوام استرقاقه .

ومع ذلك فان أوربا حينئذ لم تمنحه الحرية . ولكنها حولته من رقيق للسيد الى رقيق للأرض ، يباع معها ويشترى ، ويخدم فيها ، لايجوز له أن يغادرها ، والا اعتبر آبقا وأعيد اليها بقوة القانون مكبلا بالسلاسل مكويا بالنار . وهذا اللون من الرق هو الذى بقى حتى حرمته الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر، أى بعد أن قرر الاسلام مبدأ التحرير بما يزيد على ألف ومائة عام !

والأمر الثالث : انه لا يجوز أن تخدعنا الأسماء . فقد ألغت الثورة الفرنسية الرقيق فى أوربا ، وألغى لنكولن الرقيق فى أمريكا ثم اتفق العالم على ابطال الرق .. كل ذلك من الظاهر . والا فأين

هو الرق الذى الغى ؟ وما اسم مايحدث اليوم فى كل أنحاء العالم ؟ ماسم الذى تصنعه فرنسا فى المغرب الاسلامى وفى الهند الصينية ؟ وما اسم الذى تصنعه أمريكا فى الزنوج ؟ وانجلترا فى الملونين فى جنوب افريقيا ؟ .

أليس الرق فى حقيقته هو تبعية قوم لقوم آخرين ، وحرمان طائفة من البشر من الحقوق المباحة للآخرين ؟ أم هو شيء غير ذلك ؟ وماذا يعنى أن يكون هذا تحت عنوان الرق ، أم تحت عنوان الحرية والاخاء والمساواة ؟ ماذا تجدى العناوين البراقة اذا كانت الحقائق التى وراءها هى أخبث ماعرفته البشرية من الحقائق فى تاريخها الطويل ؟

لقد كان الاسلام صريحا مع نفسه ومع الناس فقال : هذا رق . وسببه الوحيد هو كذا ، والطريق الى التحرر منه مفتوح ، والطريق الى الغائه كذلك موجود ، ولكن فتحه مرهون باتفاق العالم على عدم استرقاق أسرى الحرب .

أما الحضارة الزائفة التى نعيش اليوم فى أحضانها فلا تجد فى نفسها هذه الصراحة ، فهى تصرف براعتها فى تزييف الحقائق وطلاء اللافتات البراقة . فقتل مئات الألوف فى تونس والجزائر ومراكش لغير شيء سوى أنهم يطالبون بالحرية والكرامة الانسانية وحريتهم فى أن يعيشوا فى بلادهم بلا دخيل ، وأن يتكلموا لغتهم ، ويعتقدوا عقيدتهم ، ولا يخضعوا الا أنفسهم ، وحريتهم فى التعامل المباشر مع العالم فى السياسة والاقتصاد .. قتل هؤلاء الأبرياء وحبسهم فى السجون القذرة بلا طعام ولا ماء . وانتهاك أعراضهم والسطو على نسائهم ، وقتلهن بلا مبرر ، وشق بطونهن للتراهن على نوع الجنين .. هذا اسمه فى القرن العشرين حضارة ومدنية ونشر لمبادىء الحرية والاخاء والمساواة . أما المعاملة المثالية الكريمة التى كان يمنحها الاسلام للرقيق قبل ثلاثة عشر قرنا تطوعا منه واكراما للجنس البشرى فى جميع حالاته ، مع اعلانه العملى بأن الرق وضع مؤقت وليس حالة دائمة ، فهذا اسمه تأخر وانحطاط وهمجية .

وحين يضع الأمريكان على فنادقهم ونواديهم لافتات تقول : «للبيض فقط» أو تقول فى وقاحة كريهة «ممنوع دخول السود

والكلاب» . وحين يفتك جماعة من البيض «المتحضرين» بواحـــد من الملونين فيطرحونه أرضا ، ويضربونه بأحذيتهم حتى يسلم الروح . ورجل البوليس واقف لايتحرك ولايتدخل ، ولا يهم لنجدة أخيه فى الوطن ، وفى الدين واللغة ، فضلا عن الأخوة فى البشرية . كل ذلك لانه — وهو ملون — تجرأ فمشى الى جانب فتاة أمريكية بيضاء لا عرض لها — وباذنها لا كرها عنها — يكون هذا اقصى ما وصل اليه القرن العشرون من التحضر والارتفاع .

أما حين يتهدد العبد المجوسى عمر بالقتل ، فيفهم عنه عمـــر ذلك ، ثم لايحبسه ولا ينفيه من الارض ، ولا تقول يقتله ، وهو مخلوق ناقص الآدمية حقا لانه يعبد النار ويصر على عبادتها تعصبا منه للباطل بعد أن رأى الحق بعينيه ، فما أشد همجية عمر ، وما أشد ازدراءه لكرامة الجنس البشرى لانه قال : «تهددنى العبد» ! ثم تركه حرا حتى قتله وهو خليفة المسلمين ، لانه لم يكن يملك عليه سلطانا قبـــل أن يقترف الجريمة .

وقصة الملونين فى أفريقيا ، وحرمانهم من حقوقهم البشرية ، وقتلهم أو « اصطيادهم » حسب تعبير الجرائد الانجليزية الوقحة ، لانهم تجرأوا فأحسوا بكرامتهم وطالبوا بحريتهم ، هذا هو العـــدل البريطانى فى قمته ، والحضارة الانسانية فى أوجها ، والمبـــادىء السامية التى تجيز لاوربا الوصاية على العالم . أما الاسلام فهـــو همجى جدا لانه يسترق أسرى الحرب معاملة بالمثل لا اقـــرارا لمبدأ الرق . وهو متأخر جدا لانه لم يتعلم «اصطياد» البشر والتلهى بقتلهم لانهم سود البشرة ، بل وصل توغله فى التأخر والانحطاط أن يقول : «اسمعوا واطيعوا ولو استعمل عليكم عبد حبشى كان رأسه زبيبة» .

* * *

أما المرأة فلها حساب آخر :

كان الاسلام قد أباح للسيد أن يكون عنده عدد من الجوارى من سبى الحرب(١) يستمتع بهن وحده ، ويتزوج منهن أحيانا اذا

(١) بذلك يخرج من دائرة الاسلام كل ما كان فى قصور «الخلفاء» والأمراء والأغنياء من الجوارى المشتريات من أسواق النخاسة .

شاء • وأوربا تستنكر هذا اليوم ، وتتعفف عن هذه الحيوانية البشعة التى تعتبر الجوارى متاعا مباحا ، وأجسادا لاحرمة لها ولا كرامة ، كل مهمتها فى الحياة اشباع لذة بهيمية بغيضة ، لرجل لا يرتفع عن مستوى الحيوان •

وجريمة الاسلام الحقيقية فى هذا الأمر أنه لم يستطع أن يبيح البغاء ! فقد كانت أسيرات الحرب فى البلاد الاخرى يهوين الى حمأة الرذيلة بحكم أنه لاعائل لهن ، ولان سادتهن لايشعرون نحوهن بحمية العرض ، فيشغلونهن فى هذه المهمة البغيضة ، ويكسبون من هذه التجارة القذرة – تجارة الأعراض • ولكن الاسلام – المتأخر – لم يقبل البغاء ، وحرص على حفظ المجتمع نظيفا من الجريمة ، فقصر هؤلاء الجوارى على سيدهن ، عليه اطعامهن وكسوتهن وحفظهن من الجريمة ، وارضاء حاجتهن الجنسية – عرضا – وهو يقضى حاجته •

ولكن ضمير أوربا لايطيق هذه الحيوانية • • ولذلك أباحت البغاء ومنحته رعاية القانون وحمايته ! وراحت تنشره عامدة فى كل بلد وطئته أقدامها مستعمرة • فما الذى تغير من الرق حين تغير عنوانه ؟ وأين كرامة البغى وهى لاتملك رد طالب – أى طالب – وما يطلبها أحد الا لأقذر معنى يمكن أن تهبط اليه البشرية : دفعة الجسد الخالصة التى لا تلطفها عاطفة ، ولا ترتفع بها روح ؟ وأين من هذه القذارة الحسية والمعنوية ماكان بين السادة والجوارى فى الاسلام ؟

لقد كان الاسلام صريحا مع نفسه ومع الناس ، فقال : هذا رق ، وهؤلاء جوار ، وحدود معاملتهن فى كذا وكذا • ولكنه لم يقل ان هذا هو الوضع الدائم للبشرية ، ولا الوضع الذى يليق بكرامتها فى المستقبل ، وانما هى ضرورة حرب تنتهى حين يتفق الناس على عدم استرقاق أسرى الحرب •

ولكن الحضارة المزيفة لاتجد فى نفسها هذه الصراحة ، فهى لاتسمى البغاء رقا ، وانما تقول عنه : «ضرورات اجتماعية» !

ولماذا هو ضرورة ؟

لان الرجل الأوربى المتحضر لايريد أن يعول أحدا : لا زوجة

ولا اولادا . يريد أن يستمتع دون أن يحتمل تبعة . يريد جسد امرأة يفرغ فيه شحنة الجنس . ولا يعنيه من تكون هذه المرأة ، ولا تعنيه مشاعرها نحوه ولامشاعره نحوها. فهو جسد ينزو كالبهيمة، وهى جسد يتلقى هذه النزوة بلا اختيار ، ويتلقاها لامن واحد بعينه ولكن من أى عابر سبيل .

هذه هى «الضرورة» الاجتماعية التى تبيح استرقاق النساء فى الغرب فى العصر الحديث . وما هى بضرورة لو ارتفع الرجل الأوروبى الى مستوى «الانسانية» ولم يجعل لأنانيته كل هذا السلطان عليه .

والدول التى الغت البغاء فى الغرب المتحضر لم تلغه لان كرامتها أوجعتها ، أو لان مستواها الخلقى والنفسى والروحى قد ارتفع عن الجريمة ، كلا ! ولكن لان الهاويات قد أغنين عن المحترفات ، ولم تعد الدولة فى حاجة الى التدخل !

وبعد ذلك يجد الغرب من التبجح مايعيب به نظام الجوارى فى الاسلام ، ذلك النظام الذى كان قبل الف وثلثمائة عام ــ وعلى أنه نظام مؤقت غير مطلوب له الدوام ــ أكرم بكثير وانظف بكثير من النظام الذى يقوم اليوم فى القرن العشرين ، وتعتبره المدنية نظاما طبيعيا ، لايستنكره أحد ، ولا يسعى فى تغييره أحد ، ولا يمانع أحد فى أن يظل باقيا الا ماشاء الله !

ولا يقل قائل ان هؤلاء « الهاويات » يتطوعن دون اكراه من أحد ، وهن مالكات لحريتهن الكاملة . فقد كان هناك كثيرون من العبيد يردون الحرية الممنوحة لهم ، ويتطوعون بالعبودية دون اكراه . ولكنا لم نعتبر ذلك مبررا للرق فى الاسلام ولا غير الاسلام. والعبرة بالنظام الذى يدفع الناس باوضاعه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية والروحية الى قبول الرق أو الوقوع فيه ، ولا شك أن «الحضارة» الاوربية هى التى تدفع الى البغاء وتقره ، سواء كان البغاء الرسمى أو بغاء المتطوعات الهاويات ! .

* * *

تلك قصة الرق فى أوربا حتى القرن العشرين : رق للرجال

والنساء والامم والاجناس . رق متعدد المنابع متجدد الموارد ، فى غير ضرورة ملجئة كالتى يوجهها الاسلام ، اللهم الا خسة الغرب وهبوطه عن المستوى اللائق لبنى الانسان .

الدكتور على عبد الواحد وافى :

والدكتور على عبد الواحد وافى شخصية متميزة ببحوثها فى مشكلة الرق والرقيق ، ويكاد يكون متخصصا فى دراسة هـــذا النظام « نظام الرق » فهو دكتور فى الآداب وعضو المجمع الدولى لعلم الاجتماع ، وكان رئيسا لقسم الدراسات الفلسفية والاجتماعيـــة بجامعة القاهرة وقد أصدر مؤلفين بالأفرنسية فيها دراسة وافيـــة عن الرقيق . ونحن ننقل هنا ماجاء فى كتابه (حقوق الانسان فى الاسلام) تحت عنوان « الحرية المدنية » ص ١٢٥ وما بعدها .

يقول الدكتور :

«يعنون بالحرية المدنية صفة المرشد المدنى التى تجعل الشخص أهلا لان يتحمل ، الالتزامات ، ويعقد باسمه مختلف العقودالمشروعة من بيع وشراء وهبة ، ووصية ، ورهن ، وزواج . وهلم جرا . ويقابل هذه الحال من الحرية حالة الرق ، وهى التى تجعل الشخص قاصرا من الناحية المدنية ، وتحول بينه وبين مباشرة أى عقد أو القيام بأى التزام ، وتنزع عنه أهلية التملك ، وتجعله هو نفسه مملوكا لغيره وتنزله من بعض النواحى منزلة السلعة .

وقد أخذ كثير من باحثى الفرنجة على الاسلام أنه أباح الرق ، وأن فى هذا وحده هدما لاعظم ركن من أركان الحرية الانســـانية . وردنا على هؤلاء يتلخص فى نقطتين :

احداهما : أن الظروف الاجتماعية التى كانت تكتنف العالم فى العصر الذى ظهر فيه الاسلام كانت تحتم على كل شارع حكيم أن يقر الرق فى صورة ما ، وتجعل كل محاولة لالغائه الغاء سريعا مقضيا عليه بالفشل والاخفاق ، وثانيتهما : أن الاسلام لم يقر الرق الا فى صورة تؤدى هى نفسها الى القضاء عليه بالتدريج .

١ - ظهر الاسلام فى عصر كان نظـام الرق فيه دعامة ترتكز

عليها جميع نواحي الحياة الاقتصادية ، وتعتمد عليهـــا جميع فروع الانتاج في مختلف أمم العالم • فلم يكن من الاصلاح الاجتماعي في شيء أن يحـــاول مشرع تحريمه تحريمـــا باتا لاول مرة ، لأن محاولة كهذه كان من شأنهـــا أن تعرض أوامر المشرع للمخالفة والامتهان • واذا أتيح لهذا المشرع من وسائل القوة والقهر ما يكفل به ارغام العـــالم على تنفيذ ما أمر به • فانه بذلك يعرض الحياة الاجتماعية لهزة عنيفة ، ويؤدى تشريعه الى اضرار بالغة لا تقل في سوء مغبتها عما تتعرض له حياتنا في العصر الحاضر اذا ألغي بشكل فجائي نظام البنوك أو الشركات المساهمة ، أو حرم اســـتخدام العمال ، وقضى على كل مالك أن يعمـــل بيده ، أو بطل استخدام التجار • فالرقيق كان عماد الحـــالة الاقتصادية في تلك العصور •

٢ ـ لذلك أقر الاسلام الرق ، لكنه أقره في صورة تؤدى هي نفسها الى القضاء عليه بالتدريج بدون أن يحدث ذلك أثرا سيئا في نظام المجتمع الانساني • بل بدون أن يشعر أحد بتغيير في مجرى الحياة والوسيلة التي ارتضاها للوصول الى هذه الغـــاية من أحكم الوسائل وأبلغها أثرا وأصدقها نتيجة ، وهي تتلخص في العمل على تضييق الروافد التي كانت تمد الرق وتغذيه وتكفـــل بقاءه ، وفي توسيع المنافذ التي تؤدى الى العتق والتحرير • وبذلك أصبح الرق أشبه شيء بجدول كثرت مصباته ، وانقطعت عنه منابعه التي يستمد منها الماء • وخليق بجدول هذا شأنه أن يكون مصيره الى الجفاف • وبذلك كفل الاسلام القضاء على الرق في صـــورة سليمة هادئة ، وأتاح للعـــالم فترة للانتقال يتخلص فيها شيئا فشيئـــا من هـــذا النظام •

(أ) كانت روافد الرق في العصر الذى ظهر فيه الاســـلام كثيرة متنوعة أهمها سبعة روافد :

أحدها ـ الحـــرب بجميع أنواعها : فكان الاسير في حرب أهلية أو خارجية لا يخرج مصـــيره عن القتل أو الاسترقاق • وثانيها ـ القرصنة والخطف والسبى ، فكان ضحايا هذه الاعتداءات يعاملون معاملة أسرى الحرب فيفرض عليهم الرق ، وثالثها ـ ارتكاب بعض الجرائم الخطيرة كالقتل والسرقة والزنا ، فكان يحكم على مرتكب واحدة منها بالرق لمصلحة الدولة أو لمصلحة المجنى عليه أو أسرته ،

ورابعها ـ عجز المدين عن دفع دينه ، فكان يحكم عليه بالرق لمصلحة دائنــه ، وخامسها ـ سـلطــة الوالد على اولاده ، فكــان يباح له ان يبيعهم بيع الأرقاء ، وسادسها ـ سلطة الشخص على نفسه لقاء ثمن معين (١) وسابعها ـ تنــاسل الأرقاء ، فكان ولد الأمة يولد رقيقا ولو كان ابوه حرا • وكانت هذه الروافد تقذف كل يوم فى تيار الرق بآلاف مؤلفة من الأنفس حتى أن عدد الرقيق كان يزيد فى كثير من الامم على عدد الأحرار زيادة كبيرة •

جاء الإسلام وروافد الرق على هذه الكثرة والغزارة ، فحرمهــا جميعا ما عدا رافدين اثنين وهما رق الوراثة وهو الذى يفرض على من تلده الأمة (٢) ، ورق الحرب وهو الــذى يفرض على الأسرى . وعمد الى هذين الرافدين نفسيهما فقيدهمــا بقيود تكفل نضوب معينها بعد أمد غير طويل •

فمن اهم القيود التى قيد بها رق الوراثة أنه استثنى منــه أولاد الجوارى من أسيادهن فقرر أن من تأتى به الجارية من سيدها يولد حرا اذا اعترف به السيد • واذا لاحظنا أن الغالب فى أولاد الجوارى أن يكونوا من مواليهن انفسهم ؛ لأن الاغنيــاء ما كانوا يقتنون الجوارى الا لمتعتهم الخاصة ، تبين لنا أن هـــذا القيد الذى قيد به الاسلام رق الوراثة كفيل بالعمل على جفاف هـــذا الرفــد نفسه ونضوب معينه بعد أمد غير طويل •

ومن أهم القيود التى قيد بها المورد الثانى وهو رق الحرب ، أنه استثنى منه الذين يؤسرون فى حرب بين طائفتين من المسلمين فهؤلاء لا يضرب عليهم الرق • ســواء أكانوا من الطائفة الباغية أم من الطـــائفة الاخرى • أما الحروب الاخرى ـ وهى التى تكون بين المسلمين وغيرهم ـ فلا تؤدى الى رق من يؤسرون فيها الا بشروط كثيرة • من أهمها أن تكون الحرب شرعية أى يجيزها الاســـلام ، وتنفذ وفق قوانينه ، ويعلنهــا خليفة المسلمين • ولا يكاد الاسلام

---

(١) قد سبق أن قلنا ان هذه الاسباب كان سببهـــا الفساد الاقتصادى واباحة العدوان وقد أصلح الاسلام الفساد الاقتصادى وحرم العدوان • « المؤلف »

(٢) وهذا ما كان راسبا من زمن الجاهلية • « المؤلف »

يبيح الحرب الا فى ثلاث حالات : حالة الدفاع قال الله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » . وحالة نكث العهد والكيد للدين الاسلامى ، قال تعالى : « وان نكثوا ايمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون » . أو حيث تقتضى ذلك اعتبارات تتعلق بسلامة الدولة والقضاء على الفتنة قال تعالى : «وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » .

ولم تتجاوز حروب الرسول عليه الصلاة والسلام هذه الحالات سواء ذلك فى حروبه مع العرب وحروبه مع اليهود . وحروبه مع الروم . فاذا لم تكن الحروب مشروعة بأن أعلنت فى غير الظروف السابقة ، أو لم تنفذ وفق المناهج التى وضعها الاسلام ، أو لم تكن معلنة من قبل الخليفة فانها لا تؤدى الى رق من يؤسرون فيها . وحتى مع توافر هذه الشروط فان الاسلام لا يجعل الرق نتيجة لأزمة للاسر بل يبيح للامام أن يمن على الأسرى بدون مقابل ، أو يطلق سراحهم فى نظير فدية ، أو عمل يؤدونه ، أو فى نظير أسرى من المسلمين عند العدو ، أو فى نظير جزية تفرض على رءوسهم - بل ان القرآن تحاشى أن يذكر الرق من بين الأمور التى يباح للامام أن يعامل بها الأسرى ، واقتصر على ذكر المن والفداء قال تعالى : (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) .

ومن هذا يظهر أن الاسلام قد سلك حيال الرق عن طريق الأسر المسلك نفسه الذى سلكه حيال الرق الوراثى ، فقد قيده بقيود تكفل القضاء عليه ، فهو لم يجعله نتيجة لأزمة للحرب بل جعله مسلكا من المسالك التى يصح أن يتخذها الامام ، ولم يرغب فيه ، بل رغب فى غيره ، وفضله عليه ، على أنه لم يجز الالتجاء اليه الا بشروط لا تكاد تتوافر الا فى الحروب التى اضطر اليها الاسلام فى مبدأ ظهوره . أما بعد استقراره وتنظيم العلاقات بين أمه والأمم اخرى ، فيندر أن تتوافر هذه الشروط . ومعنى هذا أن الاسلام لم يبح هذا النوع من الرق الا لأجل معلوم (١) .

---

(١) وكما قلنا انه لم يكن الا اجراء مؤقتا اتخذه الاسلام لظروف خاصة .

هذا ما فعله الاسلام حيال روافد الرق : قضى عليها جميعـا ما عدا رافدين اثنين ، وقيد هذين الرافدين بقيود تكفل نضـوب معينهما بعد أمد غير طويل .

(ب) وأبلغ من هـذا كله فى الدلالة على حرص الاسلام على مبادىء الحرية هو ماسلكه حيال العتق وتحرير الارقاء .

كانت منافذ العتق قبل الاسلام ضيقة كل الضيق ، فلم تكن له الا سبيل واحدة وهى رغبة المولى فى تحرير عبده ، فبدون هذه الرغبة كان مقضيا على الرقيق أن يظل هو وذريته راسفين فى أغلال العبودية أبدا الآبدين .

هذا الى أن معظم الشرائع كانت تحظر على السيد أن يعتق عبده الا فى حالات خاصة وبشروط قاسية وبعد اجراءات قضائية ودينية معقدة كل التعقيد .

وبعضها كان يفرض على السيد فضلا عن هـذا كله غرامة مالية كبيرة يدفعهـا للدولة ، لان العتق كان يعد تضييعا لحق من حقوقها .

جاء الاسلام وهذه حال العتق فى ضيق منافذه وقسوة شروطه فحطم كل هذه القيود ، وفتح للارقاء أبواب الحرية على مصاريعها ، وأتاح لتحريرهم آلافا من الفرص ، وتلمس للعتـق من الاسباب ما يكفى بعضه للقضاء على نظام الرق نفسه بعد أمد غير طويل .

فجعل الاسلام من أسباب العتق أن يجرى على لسان السيد فى أى صورة لفظ يدل صراحة على عتق عبده سـواء أكان قاصدا معنى اللفظ أم لم يكن قاصدا له بأن جرى خطأ على لسانه ، وسواء أكان جادا فى اصداره أم كان هازلا ، وسواء أكان مختارا أم كان مكرها عليه ، وسواء أكان فى حالة عادية أم فاقدا لرشده بفعـل الخمر أو غيرها من المحرمات . ومن هذا يظهر أن الاسلام يتلمس أوهى الاسباب لتحرير الأرقاء .

ومن أسباب العتق كذلك أن يجرى على لسان السيد فى أية صورة لفظ يفيد (التدبير) أى يدل على الوصية بتحرير العبد بعد موت سيده .

فبمجرد أن تصدر من السيد عبارة تفيد هذا المعنى تصبح الحرية مكفولة للعبد بعد وفاة سيده ·

وقد اتخذ الاسلام جميع وسائل الحيطة لضمان الحرية لهذا النوع من العبيد · فحظر على السيد فى أثناء حياته أن يبيع عبده المدبر أو يرهنه أو يهبه أو يتصرف فيه تصرفا ينقل ملكيته لشخص آخر ·

واذا كان (المدبر) جارية فان حكمها يسرى على ماتلده بعد تدبيرها ، فتعتق معها بعد وفاة سيدها ، أقر ذلك ورثته أم لم يقروه ·

ومن أسباب العتق فى الاسلام كذلك أن يأتى السيد من جاريته بولد يعترف ببنوته · ففى هذه الحالة يعتبر الولد حرا من يوم ولادته ، وتصبح الام نفسها مستحقة للحرية بعد وفاة سيدها · وقد اتخذ الاسلام لضمان الحرية لهذا النوع من الاماء الاحتياطات نفسها التى اتخذها حيال النوع السابق ، واذا جاءت أم الولد (وهذا هو الاسم الشرعى الذى يطلقه الفقهاء على كل جارية من هذا النوع) بعد ذلك بولد من غير سيدها يسرى حكمها عليه فيعتق بعد وفاة السيد ·

ومن أسباب العتق فى الاسلام كذلك أن يكاتب السيد عبده أى يتفق معه على أن يعتقه اذا دفع مبلغا من المال · وقد ذلل الاسلام لهذا النوع من العبيد جميع وسائل الحصول على المال فى صورة تدل أوضح دلالة على شدة حرصه على الحرية · فأباح لهم أن يتصرفوا تصرف الأحرار فيبيعوا ويشتروا ويتاجروا ويعقدوا العقود حتى يستطيعوا أن يجمعوا المبالغ التى كوتبوا عليها فتحرر رقابهم · وحث جميع المسلمين على مساعدتهم ، والتصدق عليهم فقال تعالى : (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا ، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) (١) ·

ولم يكتف الاسلام بذلك بل خصص جزءا من ميزانية الدولة لمساعدتهم من الرق كما أشرنا الى ذلك فيما سبق ، ويدل ظاهر

---

(١) النور آية ٣٢ ·

القرآن فى الآية التى ذكرناها على انه لا يصح للسيد أن يمتنع عن قبول المكاتبة متى أبدى العبد رغبته فى تحرير نفسه لقاء مبلغ يدفعه • وقد سأل ابن جريج عطاء بن رباح فقال : (أواجب على اذا طلب منى مملوكى الكتابة ان أكاتبه ؟) فأجابه بقوله : (ما اراه الا واجبا) واستدل بالآية الكريمة السابقة •

واذا كان المكاتب جارية سرى حكمها على من تلده بعد مكاتبتها ، فيعتق معها بدون عوض بمجرد أدائها المبلغ الذى تعاقدت مع سيدها عليه سواء أرضى السيد بذلك أم لم يرض به • وفضلا عن هذا كله فقد عمد الاسلام الى طائفة كبيرة من الجرائم والاخطار التى يكثر حدوثها • وجعل كفارتها تحرير الارقاء فجعله تكفيرا للقتل الناشىء عن خطأ وما فى حكمه قال تعالى : (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة) (١)

وللافطار فى رمضان ، وللحنث فى اليمين • قال تعالى : (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم او كسوتهم) (٢) •

وجعله وسيلة لمراجعة المرأة اذا أوقع عليها زوجها ظهارا أى قال لها : (أنت على كظهر أمى) أو عبارة من هذا القبيل قال تعالى : (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا) (٣) •

وتقرر الشريعة الغراء أن من وجبت عليه كفارة من هذه الكفارات ، ولم يكن يملك عبدا وجب عليه أن يشترى عبدا ويعتقه متى كان قادرا على ذلك (٤) •

---

(١) سورة النساء آية ٩٢ •
(٢) المائدة آية ٨٩
(٣) المجادلة آية ٣
(٤) من هذا نعلم أن كل هذه التشريعات لم تكن الا لرواسب الرقيق من زمن الجاهلية حتى يتحرر كل ما كان موجودا من الرقيق بهذه الوسائل • أما اذا خلا المجتمع من الرقيق فتكون الكفارة شيئا آخر • مما يتطلبه المجتمع الانسانى من اصلاح • (المؤلف)

وبجانب هذا كله حبب الاسلام الى الناس تحرير الرقيـــق، وجعله أكبر قربة يتقرب بها المؤمن الى الله تعـــالى حتى أن النبى صلى الله عليه وسلم ليضرب به المثل فى جلال العمل وعظم الأجر، فيقول : « من فعل كذا فكأنما أعتق رقبة أو يكون ثوابه عند الله ثواب من أعتق رقبة) .

ولم يكتف الاسلام بهـذا كله بل خصص كذلك سهما من مال الزكاة أى جزءا من ميزانية الدولة فى الانفاق على تحـــرير الارقاء وعتقهم ومساعدة من يحتاج منهم الى مساعدة فى سبيل تحريره كالمكاتبين ومن اليهم فقال تعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب » (١) أى فى فك قيود الرق عن رقاب الارقاء .

والمقصود بالصدقات فى الآية الزكاة التى كان يتألف منها أهم جزء من موارد الدولة .

ومن هذا يظهر صدق ما قلناه من أن الاسلام لم يقر الرق الا فى صورة تؤدى هى نفسها الى القضاء عليه بالتدريج . وذلك بأن ضيق روافده . لم يسمح ببقائهـا الا لأجل معلوم . ووسع منافذ العتق الى أبعد الحدود ، وبذلك أصبح الرق كما قلنـا أشبه شىء بجدول كثرت مصباته ، وانقطعت عنه موارده التى يستمد منهـا الماء . وخليق بجدول هذا شأنه أن يكون مصيره الى الجفاف .

الاستاذ محمد عبد المنعم خفاجه :

وهذا أحد علماء الازهر المناضلين الذين وقفوا جهودهم لخدمة العدل والحرية وبيان مزايا الاسلام وعدالته . وللاستاذ خفاجه مؤلفات لا تحصى فى هذا السبيل . هذا الاستاذ الفاضل يقول فى كتابه (الاسلام دين الانسانية الخالد) تحت عنوان (الاسلام ونظام الرق) ص ٢٨٨ وما بعدها :

« كان الرق ذائعا قبل الرسالة المحمـــدية فى كل مكان ، وكانت أسبابه متعـــددة كثيرة . فهناك أسرى الحـــروب الأرقاء

---

(١) سورة التوبة آية ٦٠

والارقاء بالسبى والخطف واللصوصية ، والارقاء بسبب اجرامهم ، والرق بسبب الدين ، والرقيق بالوراثة ، وكان يجوز للانسان أن يبيع نفسه وأولاده على أنهم أرقاء ، وكان بعض الاغنياء يعدون الفلاحين فى مزارعهم رقيقا مملوكا لهم ، وبعض المجتمعات تعد المرأة فى منزلة الرجل المملوك ٠

وقد ظهر الاسترقاق منذ العصور القديمة ، والفه بكثرة المصريون القدامى ، والبابليون والبراهمة ، والفرس ، واليونان ، والرومان ، وأقره أفلاطون ، وارسطو الذى ذهب الى أن أرواحهم غير مخلدة كأرواح الحيوانات ٠

واعتبرته الديانة المسيحية شرعيا ، واستمر المسيحيون على تلك الشريعة ، وكان الاوربيون يسترقون سكان أمريكا — بعد كشفها — ويعاملونهم أسوأ المعاملة ٠

أما الاسلام فقد حرم شتى أنواع الرق عدا الرق بسبب الاسر فى حرب اسلامية عامة بين المسلمين والمشركين ، وما عدا الرق بسبب الوارثة والتعامل ٠

ومع ذلك فقد قيد الاسلام — بعد ذلك — نظام الرق بقيود شديدة فجعل المملوكة بسبب الوارثة يولد ابنها من سيدها حرا اذا ألحقه بنسبه ، وتنال هى حريتها بعد وفاة السيد وجعل الرق فى الحرب قاصرا على الحرب فى سبيل الدين ، الحرب التى تحدث بين المسلمين والمشركين ، أو المسلمين وأهل الكتاب الذين يريدون أن يطفئوا نور الله ، وهى الحرب التى تكون للدفاع عن الدين من اعتداء معتد أثيم ، أو مكيدة من دولة كافرة ، أو للحنث بالعهود والالتزامات ، والتى ينص القرآن الكريم على مشروعيتها بقوله : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) ٠
، نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلو
الكفر انهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون) ٠ وجعل للحاكم الحق فى أن يمن على الاسرى ، وفى قبول الفداء (١) ٠

---

(١) هذه القاعدة القرآنية فيما يختص بأسرى الحرب (فأما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) ٠ أما ابقاء الاسرى فليس الا للمعاملة بالمثل فقط كأن نفتدى أسرانا من أيدى أعدائنا بالاسرى الذين هم فى أيدينا ٠ وليس فى القرآن رق ولا استرقاق ٠
(المؤلف)

ثم فتح الاسلام الابواب للحرية والعتق ، وحث على تحرير الأرقاء بكل طريق وسبيل ، وجعله مغنيا عن كثير من الاخطاء وفرض على الدولة أن تقوم بتحرير الأرقاء من أموال الزكاة الخ » .

ويقول فى مكان آخر من كتابه . تحت عنوان (حقوق الانسان فى الاسلام) ص ٢٣١ :

«كفل الاسلام حريات الأفراد والجماعات ، وناوأ الاستعباد البشرى فى جميع صوره وشتى مظاهره حتى قال عمر فيما بعد لأحد ولاته وقد اعتدى على رجل من الرعية : (كيف تستعبدون الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ؟ »

الاستاذ عبد الرحمن عزام

وهذا احد اعلام المسلمين وكان امينا للجامعة العربية . يقول فى كتابه الرسالة الخالدة فى صفحة (٨٧) وما بعدها تحت عنوان (ادب الحرب) :

« اجازت الدعوة المحمدية الحرب فى اضيق نطاق ، كما تغاضت عن الرق لانه كان ايضا نظاما عالميا ، وعملت تدريجيا على منع الحرب ، ومنع الرق بأساليبها المختلفة ، وجعلت القاعدة العامة بالنسبة للأسير المن أو الفداء ، فصار تشريعها العام بالنسبة للأسير مانعا للرق . وبالحض بجميع الوسائل على تحرير الرقيق ، وتخصيص سهم من الزكاة لفك الرقاب وبالاحسان اليه وفقا لآداب خاصة تستلزمها الشريعة ويستلزمها الورع ، قاومت الدعوة المحمدية الرق مقاومة كانت بالتدريج افعل فى تهيئة الضمير البشرى للقضاء عليه من المفاجاة بالتحريم البات .

كذلك الحرب . جاءت الدعوة المحمدية والقتال نظام عام متأصل فى نفوس البشر وفى حياتهم الاجتماعية فلم يبدأ بتحريمها، ولكنه حصرها فى دفع العدوان ، ونصرة المظلوم فحدد اغراضها ، ثم امر بوقفها بمجرد جنوح الخصم الى السلم ، وانهاها بالعهود والمواثيق التى لها حرمة الايمان ، حتى جعل حق الميثاق فوق صلة الاسلام ، فأحاط الحرب بحدود ونظم وأسباب ، وأغراض ، وعهود ، وعرف ، فى اثناء القتال مما يقلل وقوعها ، ويخفف من

ويلها . ولو ان المسلمين وفقوا فى هذه كما وفقت الدعوة المحمدية فى مقاومة الرق لشمل العالم سلام دائم كما شمله اليوم النفور من الرق . وانا لنرجو ان تدرك هدفها فى العصر الآتى وقد طغى شر الحرب الى درجة غير مسبوقة ، ولا يزال أمام العالم مجـــال اذا اهتدى بهدى الاسلام » .

ثم يستطر الاستاذ عبد الرحمن فى هذا الموضـــوع حتى يقول :

« وليس فى القرآن الكريم نص واحد على قتل الاسير ولا على استرقاقه ، ولم يرو عن رســـول الله صـــلى عليه وسلم انه استرق أسيرا ، والنص الصريح هـــو تخيير الامام بين أمرين لا ثالث لهما : المن والفداء . يقول تعالى : « حتى اذا اثخنتموهـــم فشـــدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحـــرب اوزارها » .

الاستاذ عباس محمود العقاد :

وهذا عملاق يربض على قمة الفكر العربى يقول فى كتابه (حقائق الاسلام واباطيل خصومه) صفحة ٢١٥ وما بعدها تحت عنوان (الرق) .

« شرع الاســـلام العتق ولم يشرع الرق اذ كان الرقيق مشروعا قبل الاسلام فى القوانين الوضعية والدينية بجميـــع انواعه : رق الاسر فى الحروب . ورق السبى فى غارات القبائل بعضها على بعض ،ورق البيع والشراء ، ومنه رق الاستدانة او الوفاء بالديون .

وكانت اليهودية تبيحه ، ونشأت المسيحية وهو مباح فلم تحرمه ، ولم تنظر الى تحريمه فى المستقبل ، وامر بولس الرسول العبيد باطاعة ساداتهم كما يطيعون المسيح ، فقـــال فى رسالته الى اهل أفسس : « ايها العبيد اطيعوا سادتكم حسب الجســـد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح ، ولا بخدمة العين كمن يرضى الناس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب ، خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس ،عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبدا كان أو حرا » .

واوصى الرسول بطرس بمثل هذه الوصية ، واوجبها آباء الكنيسة ، لأن الرق كفارة من ذنوب البشر يؤديها العبيد لما استحقوه من غضب السيد الاعظم ، وأضاف القديس الفيلسوف توما الاكويني رأى الفلسفة الى رأى الرؤساء الدينيين ، فلم يعترض على الرق بل زكاه لانه على رأى أستاذه أرسطو حالة من الحالات التى خلق عليها بعض الناس بالفطرة الطبيعية ، وليس مما يناقض الايمان أن يقنع الانسان من الدنيا بأهون نصيب » .

وبعد ان يستطرد الاستاذ العقاد فى الموضوع ، ويتحدث عن مذهب أرسطو فى الرق ومذهب افلاطون ، وبعد أن يوجز تاريخ الرق فى شتى البلاد وشتى العصور يقول :

« ونحن نحب ان نلخص ماصنعه الاسلام فى هذه المسألة قبل أربعة عشر قرنا فى بضع كلمات . انه حرم الرق جميعا ، ولم يبح منه الا ما هو مباح الى الآن ، وفحوى ذلك أنه قد صنع خير مايطلب منه أن يصنع ، وان الامم الانسانية لم تأت بجديد فى هذه المسألة بعد الذى تقدم به الاسلام قبل الف ونيف وثلثمائة عام .

فالذى أباحه الاسلام من الرق مباح اليوم فى امم الحضارة التى تعاهدت على منع الرقيق منذ القرن الثامن عشر الى الآن .

لأن هذه الامم التى اتفقت على معاهدات الرق تبيح الاسر واستبقاء الاسرى الى أن يتم الصلح بين المتحاربين على تبادل الاسرى أو التعويض عنهم بالفداء والغرامة .

وهذا هو كل ما أباحه الاسلام من الرق أو من الاسر على التعبير الصحيح .

وغاية ما هنالك من فرق بين الماضى قبل اربعة عشر قرنا ، وبين الحاضر فى القرن العشرين ، أن الدول فى عصرنا هذا تتولى الاتفاق على تبادل الاسرى أو على افتداء بعضهم بالغرامة والتعويض . أما فى عصر الدعوة الاسلامية فلم تكن دولة من الدول تشغل نفسها بهذا الواجب نحو رعاياها المأسورين . فمن وقع منهم فى الاسر بقى حتى يفتدى بعمله أو بماله اذا سمح له الآسرون بالفداء .

فماذا لو أن الدول العصرية بقيت على خطة الدول فى القرن السادس للميلاد ؟.

ماذا لو أن الحروب اليوم انتهت كما كانت تنتهى فى عصر الدعوة الاسلامية بغير اتفاق على تبادل الاسرى ، أو على افتكاكهم من الاسر بالتعويض والغرامة ؟

كانت حالة الاسرى اليوم تشبه حالة الاسرى قبل اربعة عشر قرنا فى حقوق العمل والحرية والتمتع بالمزايا الاجتماعية ، وكان كل أسير يظل فى موطن أسره رقيقا مسخرا فى الخدمة العامة او الخاصة محروما من المساواة فى حقوق المواطنة بينه وبين الامة الغالبة .

حالة كحالة الرق التى سمح الاسلام على كره واضطرار .

ولكن الاسلام لم يقنع بها فى ابان دعوته واضاف الى شريعته فى الرق نوافل وشروطا تسبق الشريعة الدولية بأكثر من ألف سنة ، فاذا كانت الشريعة الدولية لم تعرف الدولة فى فكاك رعاياها من الاسر ، فقد سبق الاسلام الى فرض هذا الواجب على الدولة ، فجعل من مصارف الزكاة انفاقها « فى الرقاب » أى فكاك الاسرى ، وأن يحسب للاسرى حق من الفىء والغنيمة كحق غيرهم من المقاتلين .

واذا كان ارتباط الاسرى ضربة لازب فى الحروب الحديثة ، فالاسلام لم يجعله حتما مقضيا فى جميع الحروب ، وحرص على التخفيف من شدته ماتيسر التخفيف منه ، وجعل المن فى التسريح أفضل الخطتين : « فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » (سورة محمد) .

وحث المسلمين على قبول الفدية من الاسير أو من أوليائه .

« والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا ، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » (سورة النور)

وقد كثرت وصايا النبى عليه السلام بالأرقاء فقال ـ فى بعض الاحاديث ـ : « لقد أوصانى حبيبى جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم » .

وكانت من آخر وصاياه قبل انتقاله الى الرفيق الاعلى وصيته « بالصلاة وما ملكت أيمانكم » .

ونهى المسلمين ان يتكلم أحد عما ملك فيقول : عبدى وأمتى، وانما يذكرهم فيقول : فتاى وفتاتى كما يذكر أبناءه وبناته ، وكان عليه السلام يعلم صحابته بالقدوة فى معاملة الرقيق ، كما يعلمهم بالفريضة والوصية ؛ فكان يتورع عن تأديب وصيفته ضربا بالسواك ، وقال لوصيفة أرسلها فابطأت فى الطريق : « لولا خوف القصاص لاوجعتك بهذا السواك » .

ومن الوسائل الفردية التى تجرى بها الاسلام تعميم العتق ، وتعجيل فكاك الاسرى انه جعل العتق كفارة عن كثير من الذنوب كالقتل الخطأ ، والحنث باليمين ، ومخالفة قسم الظهار .

***

«ومن قتل مؤمنا خطأ ، فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدقوا فان كان من قوم عدولكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة » (سورة النساء)

« لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من اوسط ما تطعمون اهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة » (سورة المائدة)

« والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا » . (سورة المجادلة)

***

ويحسب من الرذائل المأخوذة على الانسان السيء أنه لا يقتحم هذه العقبة أو لا ينهض بهذه الفدية المؤكدة :

« فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة » . (سورة البلد)

***

فالعتق اذن هو الذى شرعه الاسلام فى أمر الرق وأما نظام الرق بأنواعه فقد وجده مشروعا فحرمه جميعا ، ولم يبح ماهو مباح الى اليوم فى نظام الاسرى وتسخيرهم فى أعمال من

يأسرونهم من المتقاتلين . وسبق القوانين الدولية بتقريره الزام الدولة واجب السعي في اطلاق أسراها واعتاقهم بالفداء ، وشفع ذلك بالوسائل الفردية فيما تنتقل به الذمة الى الأفراد من مالكي الارقاء بعد وفاء الدولة بذمتها .

ولا يقال هنا : انه عمل كثير او قليل بل يقال انه العمل الوحيد الذي استطيع في محاربة نظام الرق ، ولم تستطع أمة الانسانية ما هو خير منه في علاج هذه المسألة الى الآن .

***

اى شفاعة كانت لاولئك المساكين المنسيين في عصر يصفونه بحق — في تاريخ العالم — بأنه عصر الجهالة والظلمات ؟

لقد كانوا — على كثرتهم او قلتهم — اهون شأنا ان يحفل بهم صاحب شريعة او ولاية ، ولم يبلغ من مسألتهم في جزيرة العرب ولا في بلد من بلاد العالم أن تسمى مشكلة تلح على ولاة الأمر ان ينظروا في حلها بما يرضى العبيد ، أو بما يرضى السادة المتحكمين فيهم . كانت مسألتهم من المسائل المفروغ منها او من مسائل العادة التي يتقبلها الناس على علاتها ، ولا يستغربون منها شيئا يدعوهم الى تعديلها بل الى الكلام فيها . فاذا بالاسلام يملي على المجتمع حلا كحل الظافر المنتصر في كفاح سام مغلوبه مالم يكن ليرضاه باختياره ، واذا بالنظام العريق في أمم الحضارة بقية من بقايا الامس رهينة بيومها الموعود .

شان الارقاء في الجزيرة العربية اهون يومئذ من أن يدعو ولاة الامر الى عناية به على قسر أو على اختيار .

وشان الاسرى في جدول الدول يومئذ كشان الطريدة من الحيوان لا تسلم من التمزيق الا لتغني غناء المطيعة المسخرة في غير رحمة ولا مبالاة بحساب ، وشرائع الدين — كشرائع العرف — قدوة لا قياس عليها ما شرعه الاسلام بغير سابقة في أمر الاسرى ولا في امر الارقاء .

شريعة العهد القديم كما نص عليها الاصحاح العشرون من كتاب التثنية تقول للمقاتل المؤمن بها :

« حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها للصلح فان إجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير وتستعبد لك . واذا لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، واذا دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف واما النساء والاطفال والبهائم وكل ما في المدينة وكل غنيمتها فتغتنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة اعدائك التى اعطاك الرب الهك . هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا . أما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب الهك نصيبا فلا تستبقى منها نسمة ما بل تحرمها تحريما .. »

واقسى من هذا الجزاء جزاء المدن التى ينجم فيها ناجم بالدعوة الى غير اله اسرائيل فانها كما جاء فى الاصحاح الثالث عشر من كتاب التثنية .

« فضربا تضرب بحد السيف ، وتحرم كل ما فيها مع بهائمها بحد السيف تجمع كل امتعتها الى وسط ساحتها وتحرق بالنار .. المدينة وكل امتعتها كاملة للرب الهك فتكون تلا الى الابد لا تبنى بعده » .

فالقدوة فى حروب الدين ، وحروب الفتح تغرى بالقسوة ، ولا تغرى بالعفو والرحمة . وأحرى بعرب الجاهلية ان يكونوا فى قسوة بنى اسرائيل او اشد منهم قسوة : لانهم أهل بادية مثلهم (يدهم على كل انسان ويد كل انسان عليهم) كما قيل عنهم فى العهد القديم .. فاذا عللت وصايا الرق فى الاسلام بالعلل الطبيعية التى تسيغها عقول منكريه ، فماذا يقول الذين ينكرون الدعوة الاسلامية تعصبا لدين آخر وماذا يقول الذين ينكرونها من الجاحدين للأديان ؟

يقول المنكرون المتعصبون لدين غير الاسلام ، ان الدعوة برمتها تلفيق رجل دجال . ولا ندرى كيف تسيغ عقولهم أن يكون الرسول الدجال ارفع أدبا وأشرف خلقا وأبر بالانسانية الضعيفة من الرسل الصادقين المصدقين .

ويقول المنكرون من انصار العلل الطبيعية ان الدعوة الاسلامية وليدة البلاد العربية خرجت من أطواء عقائدها وتقاليدها ومألوفاتها .

ولا ندرى كيف يكون الابهام والغموض اذا كان هذا هو التعليل والتفسير • فاننا لا نقول شيئا ترضاه العقول وتستريح اليه اذا قلنا ان البيئة العربية جاءت بنقيض المنتظر منها ونقيض المنتظر من العالم حواليها .

ان تصديق أعجب الخوارق لأجدر بعقول الفريقين فى قبول هذا اللغو الذى صدقوه ، واطمانوا اليه • ونحن أيضا نريد للدعوة الاسلامية سببها المعقول ، فلا نرى تناقضا بين هذا السبب وبين الواقع الذى لا غرابة فيه الا اذا اوجبنا نحن على عقولنا أن نستغربه متعسفين ، فالغريب عندنا أن يأتى رجل دجال بما لم تأت به أرفع الحضارات والديانات من قبله ، والغريب عندنا أن يكون محمد مبعوثا بارادة الامة العربية وهى ما هى فى أيام الجاهلية .

أما الواقع الموافق للعقل ،ولا مناقضة فيه لنواميس الكون فهو أن يخلق الله انسانا كاملا يلهمه الحق والرشد ، ويعينه الى الهداية عليهما بعمل يستطيعه ويستطيع الناس ان يفهموه — متى حدث — كما يفهمون جلائل الاعمال ، الا انهم لا يستطيعون أن يتوقعوه اذا قصروه على المألوف المعهود فى سياق التاريخ .

وهذا تفسيرنا لوصايا الرق فى الاسلام ترتضيه عقولنا ، ونقول عن يقين انه أقرب الى العقل من معجزة الدجل ومعجزة النقائض المستحيلة .

ونحسب أن المكابرة تقصر عن الذهاب الى الأمد الذى يدفعها اليه من لا يفرقون بين الدجل والصدق ، أو لا يفرقون بين الواقع والمستحيل .

* * *

وتنطوى القرون وينكشف الزمن عن أزمة الرق الكبرى فى التاريخ الحديث .

ان وصايا الاسلام فى مسألة الرق خولفت كثيرا وكان من مخالفيها كثير من المسلمين ، ولكن الاسلام — على الرغم من هذه المخالفة المنكرة — لا يضيره ولا يغض منه فضاء التجربة

العملية عند الموازنة بين جناية جميع المسلمين على الارقاء ، وجناية الآخرين من أتباع الأديان الكتابية .

فالقارة الافريقية ـ في بلاد السود ـ مفتوحة امام ابناء السواحل المجاورة لها منذ مئات السنين ، ولم تفتح للنخاسين من الغرب الا بعد اتصال الملاحة على ساحل البحر الاطلس في العالم القديم والعالم الجديد .

وفي اقل من خمسين سنة نقل النخاسون الغربيون جموعا من العبيد السود تبلغ عدد الباقين من ذريتهم ـ بعد القتل والاضطهاد ـ نحو خمسة عشر مليونا في الامريكتين : عدد يضارع خمسة أضعاف ضحايا النخاسين في القارات الثلاث منذ اكثر من الف سنة ، وهو فارق جسيم بحساب الارقاء يكفي للابانة عن الهاوية السحيقة في التجربة العملية بين النخاسين ، ولكنه فارق هين الى جانب الفارق في حظوظ اولئك الضحايا بين العالم القديم والعالم الجديد . فان في الامريكتين الى اليوم أمة من السود معزولة بأنسابها وحظوظها وحقوقها العملية . وليس في بلد من بلاد الشرق أمة من هذا القبيل ، لأن الاسود الذي ينتقل اليها يحسب من اهلها بعد جيل واحد : له ما لهم وعليه ما عليهم بغير حاجة الى حماية من التشريع او نصوص الدساتير .

ويقول الاستاذ العقاد في كتابه (المرأة في القرآن الكريم) ص ١٧٧ وما بعدها :

« والنساء المملوكات اقدم في التاريخ من الرجال المملوكين ، فقد أوشك الزواج في كثير من القبائل البدائية ان يكون كله سبيا واغتصابا من نساء القبائل الاخرى ، ولم تدع الحاجة قديما الى استرقاق الرجال الا بعد وجود الاعمال التي توكل الى الاسرى ، ويترفع عنها المقاتلون الاحرار . فكان استرقاق الاسرى ثقلا على مالك الرقيق يتحاماه أو يتخلص منه بقتله ، وكانت المرأة تقتنى للمعاشرة او لخدمة البيت والمرعى ، وهي خدمة سبقت ما يستخدم فيه الرجال من الصناعات . ومطالب المعاش .

وتعتبر قضية الاماء والسراري جزءا من قضية الرق على عمومه لولا أن المرأة المستعبدة تنفرد بمشكلاتها التي سبقت

مشكلات الرق فى المجتمعات البدائية ، لان سبى النساء أقدم من تسخير الرجال فى العبودية ، ولأن مشكلات الاماء على اتصال وثيق بمشكلة المراة في بيتها ، وفى بيئتها الاجتماعية ، ولم تكن حقوق الزوجات الحرائر فى القدم تفضل كثيرا نصيب الاماء المستعبدات .

ومن وجوه الخلاف بين رق المراة ، ورق الرجل ان العتق بر كبير بالانسان الذى سلبت حريته ، وهانت على الناس كرامته ، ولكن العتق لا يؤول بالجارية الى حرية تغبط عليها ، وهى بلا عائل ولا زوج ، وربما نقلها العتق من العبودية لسيد واحد الى العبودية لكل سيد تأوى اليه ، ولم يكفل لها رزقا ولا عملا اكرم من اعمال العبيد المسخرين بغير حرية لها ولا اختيار .

وقد نظرت شريعة القرآن الكريم الى الفارق بين الرجل والمراة فى امر العتق فعملت على نقل النساء المملوكات من رابطة العبودية الى رابطة الزوجية ، وامرت المسلمين بتزويجهن والبر بهن :

« وانكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله » (سورة النور) .

وفضلت الزواج بالجارية المملوكة على الزواج بسليلة البيوت من المشركات ولو حسن مرآها فى العين :

« ... ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو اعجبتكم »
(سورة البقرة)

وفرضت لهن حقوقهن كما فرضت الحقوق للأزواج :

« قد علمنا ما فرضنا عليهم فى ازواجهم ، وما ملكت ايمانهم »

(سورة الأحزاب)

وجعلت اصحاب المال ومن يملكونهم سواء فيما عندهم من رزق الله .

« فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ماملكت ايمانهم فهم فيه سواء » . (سورة النحل)

وحرص الاسلام على البر بهن فى عواطفهن واحساسهن ، كما حرص على البر بهن فى ارزاقهن ومعيشتهن فكان عليه السلام ينهى المسلم أن يقول : « عبدى وامتى » وانما يقول (فتاى وفتاتى) كما يتحدث عن ابنائه ، وكانت وصيته بالصلاة والرقيق من آخر وصاياه صلوات الله عليه قبل انتقاله الى الرفيق الاعلى .

ولم يحصل أولئك المستضعفون من النساء والرجال على تلك المعاملة طوعا لأوامر دين من الاديان قبل الاسلام ، ولا تلبية لسعيهم أو خوفا من تمردهم وعصيانهم ، ولم يكن أحد من اقوامهم يناصرهم أو يتقبل منهم شكايتهم ، بل لم يكن فى الارقاء انفسهم من يعتقد ان له حقا فى شكواه . ويحسب أن الرق مظلمة اصابته بغير حقه . وقد اسلم بعض الأرقاء من العبيد والاماء فلم يزيدوا عددا فى صدر الدعوة الاسلامية على اصابع اليدين ، ولم يكن لهم صوت مسموع فى شريعة الجاهلية ولا فى شريعة الاسلام ، اذ كانت شريعة الاسلام مما يتعلمه المسلمون من النبى ، ولم تكن مما يعلمونه اياه .

فمهما يأت من آية مطاعة من آيات البر بالنساء المستضعفات اللائى لا سند لهن ولا عائل يرحمهن ، فانما هى آتية من الوحى السماوى تجرى على نسق واحد مع آياته كافة فى تشريع الحقوق وتعليم الفرائض والواجبات .

وارتفع الاسلام باتباعه الى منزلة من الانصاف للرقيق والرفق به لم تبلغها الانسانية بآدابها وقوانينها ودساتيرها وانظمتها بعد أكثر من الف سنة . ولكن المسلمين مع هذا قصروا فى عهود شتى من الشأو الرفيع الذى دعاهم دينهم اليه ، وابيحت بينهم النخاسة التى حرمها الدين ونسيت بينهم الوصايا التى ذكرهم بها الكتاب والسنة ، واستبيحت فيهم حقوق الاحرار والعبيد على السواء ، الا أن الشريعة القرآنية المطهرة عملت بينهم عملها ، ولم تذهب آثارها سدى فى جملتها . ومن آثارها مايثبت بالاحصاء والمقارنة كما يؤخذ من المقابلة بين عدد الارقاء وبين حالتهم فى بلاد الحضارة الاسلامية ، وبلاد الحضارة الاوربية والامريكية بغير حاجة الى شرح طويل .

فكل من بقى من الارقاء فى البلاد الاسلامية بعد ثلاثة عشر

قرنا لا يزيدون على مليونين منهم أزواج وزوجات دخلوا فى الاسر الحرة على سنة المســاواة والمؤاخاة . ومما له دلالته فى هذا الصدد أن ارتفاع المهانة عن المماليك فى العالم الاسلامى مكنهم غير مرة من اقامة الدول ، وارتقاء المناصب ، وولاية الوزارة والقيادة ، ومصاهرة البيوتات من أصحاب الملك والامارة ، ولو لم تفارقهم مسبة الرق التى لصقت بهم فى كل بيئة غير البيئة الإسلامية لما تمكنوا من الصعود الى منازل الاجتماع فى هذه القمة ؛ ولا فارقوا قط منازل الموالى والعبيد .

وتنعقد المقابلة السريعة بين قسمة الرقيق فى ظل الشريعة الاسلامية وقسمته فى ظل الحضارة الغربية ، فتسفر عن الفارق البعيد بالارقام والحقائق والاوضاع .

فتجارة الرقيق خلال خمسين ســـنة جمعت فى القارتين الأمريكيتين أمة كبيرة تبلغ سلالتها اليـــوم ستة عشر مليونا فى الشمال والجنـوب ، وأهدرت بينهم جميع الحقوق حتى حق الحياة الى زمن قريب . فكان من المناظر المألوفة شنق الزنجى بغير سؤال ولا محاكمة على قارعة الطريق . وكان انصافهم بنص القانون خطوة متأخرة فى القرن العشرين لم تنفسح لهم فى الزمن الاخير الا بعد المطالبة والمواثبة ، وبعد الاقتدار على الطلب مشفوعا بالتهديد ، ومنه التهديد بالاضراب .

ونحن نكتب هذا الفصل وبين ايدينا المجلات الغربية نفسها تروى قصة سيد فى أمريكا الجنوبية ذهب الى المحكمة لأنه قتل زنجيا وعذبه بالنفخ المتواصل حتى انفجر جنباه ، فكان عقابه من المحكمة غرامة مائتين وعشرة دولارات مقسطة على ستة شهور . ولاحظ القضاء — الانسانى — فى هذه الرأفة أن السيد الابيض يحتمى بحق العزلة بين الأجناس Apartheid وحق الاشراف والوصاية Baaskap فلم تر الصحيفة فى رواية الخبر من حرج فى كتابته بعنوان « حق التعذيب »

هذه شريعة وتلك شريعة بينهما من الزمن قرابة أربعة عشر قرنا ، ومن الجهود الانسانية ثورات وأهوال وضحايا لا يحيط بهما الاحصاء .

الأستاذ امين الخولى :

وهذا ما يقوله الأستاذ امين الخولى نقلا عن مجلة العربى التى تصدر بالكويت فى العدد الثالث عشر الصادر فى جمادى الآخرة سنة ١٣٧٩ الموافق ديسمبر (كانون) سنة ١٩٥٩ .

عرضنا فى مقالنا السابق لفهم الاسلام بالامس ، فى الماضى البعيد ، وفهمه اليوم ، اى فى العصر الحديث من التاريخ ، ونعرض هنا لفهمه فى الغد ، أى المستقبل القريب الذى نحن طلائعه ، ثم المستقبل البعيد ايضا ، مهما يتسع مداه ، مادام الاسلام يريد أن يجد له مكانا دائما على تعاقب الأجيال وتتابع الأزمان ...

وقد أدركنا حتى الآن بوضـــوح ان هذا الفهم مهمـــة جليلة الخطر ، لا ينفع فيها النظر الخاطف ولا التناول العاجل .

ولكننا مع ذلك نستطيع تقديم الهيكل العـــام لهذا الفهم للاسلام غدا ، .. والغد نفسه يتكفل باكمـــال جوانب الفهم ، وايضاحه بالتمثيل والتطبيق .

على اننا ــ كما التزمنا ــ سنطبق هذا الفهم على قضية « الرق » ايضاحا وتحقيقا للغرض الذى أشرنا اليه منذ قررنا الحديث عن فهم الاســـلام فى أمسه وغده ورأينا ذلك الحديث ضروريا لا مفر منه ، قبل التحدث عن شيء من رأى الاسلام فى المشكلات الاجتماعية ، وقدرنا ان الرق وثيق الصلة بفكرة العنصرية التى هى المقصد الاول من هذا الحديث .

بلا تزيد ولا تأويل :

واسس هذا الفهم للاسلام غدا ، هى :

(١) فهم كتابه الاساسى ــ القرآن ــ أو تفسيره ، فهما لغويا أدبيا ، فى جو فنى من المستوى البلاغى الذى عرف للقرآن منذ أول العهد ، وأنه بليغ بلاغة معجزة .

وهو فهم محدود منضبط بالدلالات اللغوية ، التى عرفها العرب لكلماته ، فى القرن السابع الميلادى دون تزيد فى ذلك أو

خروج عنه .. فلا نريد بزعم للقرآن مثلا معانى باطنية له غير معانيه الظاهرة ، كما اشتغل بذلك بعض أصحاب الفرق الدينية قديما .. ولا نريد يعنى بتحميل عبارات القرآن معانى محدثة أو اصطلاحية عرفت لها اليوم أو قبل اليوم ، رغبة فى استخراج علوم منه أو جعله مصدرا لكل علم .

وهذا الفهم الذى نصفه هو ما تقتضيه طبيعة المنهج السليم فى فهم القرآن ، فسبق هذا التفسير لكل فهم خاص للقرآن هو المنهج المنطقى الصحيح ، وارتفاع هذا الفهم الذى نصفه على كل فهم ذى اتجاه خاص ، أو لون معين هو المنهج الصحيح .. لأن القرآن جاء قبل كل هذه الخلافات ، وقبل كل هذه العلوم الخاصة، وقبل كل هذه الدراسات الموجهة ، وجاء ليفهمه من يسمعه من أصحاب اللغة العربية ، ويفهم منه ما يدعو اليه الاسلام ،وما يرمى اليه دون أى احتياج فى فهمه الى شىء مما حدث بعد ذلك ، وكان حدوثه اثرا لظروف خاصة فى حياة الذين احدثوه . فيجب أن يبقى القرآن دائما صالحا لهذا الفهم الحر الطليق ، الذى لا يحده الا الدلالات اللغوية كما كان يفهمها العربى لعهده حين يسمعه . فان كان لتلك العبارات ايحاءات معينة ، أو دلالات استعمالية لذلك العهد ، فهى وحدها التى تتحكم فى التفسير الذى نرجوه ، والفهم الذى نريده .. وان كان الحس الادبى والذوق البيانى للعربية لفتات الى ملاحظ وجدانية ذوقية فتلك هى التى تظل تفهم من القرآن كل حين .. غدا وبعد غد .. الى آخر الدهر .

وعلى هذا الفهم الذى وصفناه يعرض كل ماعداه من قول الرسول وفعله ، فما كان له أصل فى القرآن على هذا الفهم فهو من الاسلام ، وما ليس له أصل فى القرآن على هذا الفهم فليس من الاسلام .

القرآن بين الواقعية والمثالية :

نعم .. ان فهم القرآن كله هذا الفهم الثابت الأساس، البارىء مما حمل عليه أو لون به مما ليس من لغته ، ولا من فنه ، ولا من ذوقه ، هذا الفهم يحتاج الى جهود كبيرة ، بل جبارة .. ويحتاج فى ذلك الى ازمان طويلة ، تستغرق حياة أجيال .. لكننا بعد

تاصيل منهج هذا الفهم نستطيع على هديه وفى ضـــوئه أن نعرف كلمة القرآن فى مسالة من المــنل ، بعد ان نفهم الآيت الخاصة بها هذا الفهم السليم ، كمسالة الرق التى نطبق عيها ، ونمهد بها لتقديم راى الاسلام فى العنصرية .

هذا هو الأساس الأول لفهم الاسلام غدا ، ويسانده ويكلمه :

(ب) الأسـاس الثانى .. وهو أساس يكشفه لنا فى سهولة ووضوح مابيناه سابقا من خطة الاسلام فى تفسير الحياة وتدبيرها .. وهو أن القرآن لا يقيد المستقبل ، ولايحد مدى التقدم والرقى ، مع انه يقدر الواقع المشاهد ويراعيه .. فخطته ان يبدا من الواقع الماثل ويقدره ، ويمضى فى التدريــج منه الى ما فوقه ، آخذا بيد البشرية الى اقصى ما تستطيع أن تبلغه من تقدم .. لافتا لهـا لفتا متصلا الى الامل الاعلى ، والمثل الأسمى ، يغريها به ويعدها عليه الجزاء الحسـن فى الدنيـا والاخـرة جميعا .. ويتركها مع هذه التوجيهات والاغراءات لتناضل فى سبيل مثال سام سام ، رفيع رفيع ، تظفر منه بما تسعفها عليه قوتها ، ويمكنها منه جهادها . ومن هنا ترى فيه الواقعية والمثالية جميعا .. دائما ، وفى كل شىء .

ترى فيه الواقعية الواضحة التى كان يستطيعها ــ ولا يقوى على اكثر منها ــ أولئك المخاطبون به ، ويطبقها هؤلاء المكلفون بحمل دعوته واداء رسالته .. فلا يعجزهم بما لا يتمثلون ، ولا ياخذهم بما لا يفهمون ، وهم فى ذلك المستوى العقلى والاجتماعى لحياة جزيرتهم ، وحياة الامم حولهم .. فهو يقر ماهم فيه او بعضه ، وينظمه .. ثم يلطفه ، ويهذبه .. وياخذ فى لفتهم برفق وأناة ــ ولكن بعمق واصالة ــ الى اهداف بعيـــدة ، وآفاق راقية ، لـــم يكونوا لهذا العهد يتصورونها الا صورا مبهمة ، خفيفة الألوان ، مظللة الملامح .. فإن استشرفوا ، أو استشرف الراقون منهم الى شىء من ذلك ، فبها والا فهى محفوظة فى الكتاب ، مرددة فيه ، يتعبدون بتلاوتها ، ويسمعونها ممسين ومصبحين ،غادين ورائحين، تيسر لهم الحياة ، ويخالطون الامم ، ويشاركون فى سير الحضارة المشترك ، المتكامل .. فكلما اتسع افقهم او رق حسهم ، زادت بصائرهم استشفافا لتلك الصورة اللائحة فى آفاقهم ، المرددة على

اسماعهم ، المرفوعة امام مدراكهم ، يرددونها في الكتب ، والمعهد ، والمعبد ـ والمنزل ، والموسم المفرح والميقات المحزن .. فيزدادون ـ على الزمن ـ تبينا لها ، ويستوضحون ـ على الاجيال ـ أسرارها .. ويسعفهم على ذلك جهدهم العقلى الخاص ، فى تفسير الحياة وتدبيرها ، وقد كلفوا من ذلك بالنظر ، والسير ، والتدبر ، والتفكير ، والبحث والتعقل ..

وهذه الواقعية وتلك المثالية ، تتوزع فى القرآن ، تتجاوز وتتفارق ، وتتصل وتنفصل ، لتظل على الايام طليقة ، غير محدودة.

فهم خاطىء لواقعية الاسلام :

وهذا الجمع فى القرآن بين الواقعية الصارخة ، والمثالية الشامخة هو ماتجده ـ عند النظر المتتبع ، والاستقراء الشامل ـ مطردا ، دائما ، ثابتا ، فى كل شأن من عقيدة عبادة ، ومعاملة .. فتجده فى علاقات الجماعات الصغرى والكبرى » كما تجده فى علاقات الافراد بعضهم ببعض ، وبمجموعهم ، فهو واضح فى الايمان والعقيدة ، واضح فى العبادة والرياضة ، واضح فى نعيم الآخرة وعقابها ، واضح فى نظام الحياة وتدبيرها .

ولا استطيع هنا أن اتتبع لك هذه الصنوف المختلفة ، وابرز فيها واقعية القرآن ، تجاورها مثاليته المتسعة لكل آمال الانسانية، حتى تحلق فى عالم الالوهية . الذى رأينا قدماء المفكرين المسلمين أنفسهم يعرجون اليه ويشتاقونه ..

لا استطيع هنا هذا التتبع الذى لا يفى به الا سفر مفرد مطول، واذا لم نستطع هنا التتبع التام لواقعية القرآن ومثاليته ، فحسبنا شاهد يتسع له هذا المجال ،وهو ـ عند القارىء ـ سهل المنال ، ذلك هو مالابد انه ترامى اليك ، لشهرته وتكراره ، وهو فهم الاسلام فى صورة عنيفة ، وهى صورة المحارب المتقلد سيفه ، ينشر بدعوته ، ويقيم جماعته ، على مايقول الذين رأوا جانبا واحدا من الهيكل القرآنى والكيان الاسلامى ، هو جانب الواقعية العتيقة التى كانت تعنو لها الحياة وتنحنى الجباه ، ولا تزال حتى اليوم تعطى الاقوياء كل مايريدون ، وتصون الحقوق اذا قامت الى جانبها . تلك هى القوة ، والحرب .. فعلى ما تبينا من خطة القرآن

كان لابد ان يدرك هذا الواقع الغالب الذى ظل قرونا واقعا غالبا .. وقد يظل كذلك مدى آخر .. وبتوجيه هذا الواقع حمى نفسه ودعوته ودولته بما لا حياة للحق الا به ومعه فكان ذلك الذى اسرف الناس فى تقديره .. على حين غفلوا وانصرفوا عن بقية التدبير وسائر الخطة التى اطمأننا الى أنها تسود التناول القرآنى، وتشمل كل ميادينه .. ألا وهى وضع المثالية الى جانب الواقعية. وفى هذا الشأن من تنظيم القوى ، كانت المثالية المسالمة الداعية الى سلام انسانى عام ، تقوم فى التناول القرآنى الى جانب الواقعية المحاربة الشاكية السلاح . وله فى هذه المثالية السليمة الوادعة الآملة محاولات كبرى ، وتدبيرات جليلة لا تستطيع كذلك أن تستوفيها بيانا هنا .. ولعله يكفيك منها آيته الداعية الى السلام العام بقوله : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ، ولاتتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين » (البقرة : ٢٠٨) .

على انه سيجيئك قريبا مثل آخر هو الذى جعلناه مجال المقارنة بين مختلف الفهم للاسلام ، الا وهو الرق . فسنعرض لك من نظرة الفهم الجديد للاسلام ما يزيد فكرة التزام الواقعية المثالية فى القرآن وضوحا وجلاء . والزمن كفيل بتتابع التطبيق وتوفية البيان لهذا الأساس الثانى من أسس فهم الاسلام غدا .. ألا وهو اضطراد الاتساق فى خطة القرآن بالتقاء الواقعية القريبة . والمثالية السامية الى ابعد المدى . .

النسخ محاولة للتخلص !

على اننى لا ادع القول فى هذا الأساس الثانى من أسس فهم الغد للاسلام حتى أصارحك بانه ليس عجيبا أن يكون فهم الاسلام أمس ، قد انصرف كل الانصراف عن هذا المسلك القرآنى الثابت المنسق فى تقدير الواقع والاستشراف العالى للمثال .. بل ليس عجيبا أن يكون فهم الاسلام أمس قد سد الطريق الى ادراك هذه الخطة ، وعمى السبيل .. وذلك حين واجهه هذا التناول القرآنى الآخذ بالطرفين المتناول للتدبيرين ، هو ملحوظ ، واضح ، بل بارز فى القرآن ، ولهذا نقرره اليوم ونلتزمه مطمئنين واثقين .. فلما واجه فهم الأمس هذا التنسيق للحاضر والمستقبل ، وهو لا يحس بهذا المستقبل ، ولا يوجه اليه بصرا ، لم يلبث أن تخلص من لفتات

الغد ، ولمحات المستقبل ، واضواء المثال — وفزع فى ذلك الى مايعرف عند الأولين باسم « النسخ » وهو : أن يزيل بعض آيات القرآن المتأخرة احكام وآثار آيات أخرى متقدمة ، على ماهو معروف فى المجال القانونى ، ولا نستطيع الخوض فيه هنا بأكثر من هذه الاشارة .

فالى هذا النسخ فزعوا فى التخلص مما يجاور الواقعية التى هى ما استطاعوا ادراكه من القرآن ، .. ومن الاتقان اللافت انك سترى فى المثلين الذين سقنا واحدا منهما الآن عن الحرب والسلام وسنسوق الآخر عن الرق .. فى هذين المثلين قد اخفى القوم أمس معالم المثالية القرآنية الرفيعة الذرى بهذا النسخ . فهناك فى الدعوة الى السلام حتى ولو كان خادعا ، على ما فى آية : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم . وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله » (الانفال) ان هذه الرغبة المخلصة فى السلام منسوخة . وستسمع مثل هذا قريبا فى آية المثالية القرآنية المبكرة للاسترقاق .

وهذا النسخ ان وجد ، وتقريره حين يكون يمكن ان يعد شاهدا على نزعة التجديد الاسلامية ، وتقدير سنة التدرج ، واللفت اليه بمثل هذه الازالة لبعض مقررات سابقة ... ولكن هذا النسخ بدل أن يكون مظهر حيوية اسلامية قد صار مظهر مجافاة للنماء والتدرج ، ووسيلة قريبة للتخلص من تقدير الغد البعيد ، والتطلع للمثل المرتقب ، الذى يحس بقوة لفت القرآن اليه .

على انا لا نحرم هذا الأمس من كلمة الانصاف فنقول : انه فى قضية النسخ العامة لم تكن كلمته الوحيدة هى وقوع هذا النسخ ، بل كان من اهل هذا الأمس من نفى هذا النسخ فى القرآن وقرر عدم وقوعه ، وعلى هذا الاساس عنده تخلص من تعطيل النسخ للأهداف المثالية القرآنية التى تبدو لنا جلية بجانب واقعيته .

كما أن القائلين بالنسخ انفسهم لم تتفق كلمتهم فى كل آية قرروا نسخها ، ومن حسن الاتفاق أن آية الجنوح الى السلم ولو كان خادعا ، وآية الرق التى ستتلوها بعد قليل ، قد انكر النسخ

فيهما منكر ، لقوله وزنه وخطره ، فآية الدعوة الجانحة الى السلام الانسانى كافة ، كما سمعتها ، تبقى دعوة عالية للسلام ولم تنسخ لأن علما من اعلام المفسرين القدامى يقول عن نسخها : « انه مما لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا فطرة عقل » .

والى هنا يتسق امامك الاصلان الاساسيان لفهم الاسلام غدا .. وهما فهم القرآن .. وتقدير مثاليته . واعتمادا على هذين الأصلين نتقدم الى المثل الذى اخترنا الوقوف عنده لنسمع فيه بقية كلمة الافهام المختلفة للاسلام ، وقد سمعنا فيه حتى الآن كلمة فهم الامس .. ثم كلمة فهم اليوم ولنسمع فيه الآن كلمة فهم الغد ، فنتحدث عن :

الرق : بين الواقعية والمثالية :

لقد كان الرق واقعا قديما متأصلا ، راى العرب منه حولهم ما رأوا وعرف العرب منه فى جزيرتهم ما عرفوا .. وسلك القرآن نحوه مسلكه الثابت الواضح ، من التدبير الواقعى : يعترف بالواقع المشهود ، الى حد ما .. ثم يمضى يلطف قسوته ، ويصلح بالتدريج اخطاءه .. ثم ينبه الى المثال الراقى ويغرى الانسانية منه بكل ما تمكنها منه ظروفها ، ويعينها عليه تقدمها ورقيها .. الى أبد الدهر ، وعلى مدى الزمن ، على نظام الأصلين الأساسيين عندنا لفهم الاسلام غدا .. واليك البيان :

فأول ذلك أن نفهم قول القرآن فى الرق ذلك الفهم اللغوى الادبى ، المنضبط ، المقدر لظروف آياته ، ومناسباته ، فى غير تجن على دلالة الكلمات ومفهومها عصر نزوله .. ومع تقدير ما للكلمات والأساليب من ايحاء أدبى وحس نفسى ، ووقع فنى .. على ما تجب مراعاته فى كتاب امتاز فى العربية بالبلاغة الى حد الاعجاز ، الذى قدره المؤمنون به ، والمنكرون له جميعا ، منذ سمعوه .

والمدد المتصل للرق هو الاسر فى الحرب ، كما كان عليه الامر فى واقع الحياة ، ومعاملة الاسرى اذ ذاك ، والقرآن يحدد هذه المعاملة فى السورة ٤٧ منه ، وتسمى سورة القتال ، وهى صالحة لهذا الاسم بموضوعها .. وتسمى كذلك سورة « محمد » وانها الجديرة بهذه التسمية ، لما فيها من مثالية تلك المعاملة التى

سنفهمها فى جلاء وقرب من الآية الرابعة وهى : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق. فاما منا بعد ، وأما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها » ..

فلنفهمها بحس اللغة العربية اللغوى والأدبى — على ما هو الاساس الاول الذى قررناه لفهم الغد — فسنرى : أن معناها هو دوران معاملة الأسرى ، بعد الغلبة ، بين أمرين ؛ لا ثالث لهما . وهما : أولا — المن عليهم باطلاق سراحهم دون شىء ما ، بل تفضلا ومنا .. وثانى الامرين : هو اطلاق سراحهم بمقابل وفداء شخصى. كمفاداة اسير بأسير ، أو غير شخصى كعوض يقدم من الأسير أو من سواه .. وتحديد معاملة الأسرى بهاتين المعاملتين ، دون غيرهما هو معنى « اما » فى العربية على ما هو معروف عند أهلها ، ولا نطيل هنا بشرحه .. ولا نعرف فى القرآن آية أخرى تدل على معاملة للاسرى بغير هاتين الحالتين .. ومن هنا نفهم فى اطمئنان أن القرآن ، أو قل الاسلام — كما ينبغى أن يفهم غدا — لا يسترق أحدا ، بل يقطع مدد الرق ، اذا ما كان الواقع — حتى اليوم — لا يقع استمرار الحرب، فليكن هذا الضرر المستمر ، وهو الحرب، حتى تبلغ الانسانية غير اليائسة من الرقى الصاعد مايقضى عليها، وليكن هناك أسرى فى هذه الحروب ، فما يفهم الاسلام لغد ، الا أن يعاملوا باحدى هاتين الحالتين : المن ، أو الفداء .

الاسلام لا يعترف بغير رق الاسر فى الحرب

هذا هو المعنى البين الذى يفهم من آية سورة القتال التى تصدت لبيان معاملة الاسرى ، أو سورة « محمد » الذى يستأصل بهذا التدبير الرق من جذره وأصله الوحيد . ولا يعترف طبعا برق مدين ، ولا برق خطف ، ولا يعرف ولا يجيز بيع الابناء — ولا غير ذلك من اسباب استمرار هذا المظهر الوحشى المهدر لانسانية الانسان .

هذا هو معنى الآية القرآنية اللغوى الواضح القريب ، دون تأول ، ولا تكلف ، ولا تحميل للعبارة مالا تحتمله أو تعطيه ، كما يفهمها العارف بالعربية ، فى عصر نزولها ، وبعده الى اليوم .

وفى أسلوب الآية ونظمها مجال لايحاءات معنوية تحسها

البلاغة العربية ـ فى غير تعمل ولا تكلف ابدا ـ فمن ايحائها تقديم المن على الفداء ، وفيه ايذان بتفضيله وايثاره على الفداء ، وانه أحب الى الاسلام منه وان اطلاق الأسير تكرما هو المعاملة المثلى عنده .. وفى غير هذا الموضع من القرآن مايدل على عدم الرضا عن ابتغاء عرض الدنيا بالاسر ، ولا نطيل عليك بهذا .

ومن ايحاء الآية اطلاق الفداء ، وعدم تعيين شيء مادى فى مقابله ـ وقد عرف من تصرف الرسول منذ اول عهد الاسلام انه جعل الفداء عملاً انسانيا معنويا هو ان يعلم الاسير عدداً من اصحابه القراءة وهو معنى اجتماعى كريم فى الاغراء بالعلم ، وبث النور .

وليس من بعيد ايحاء الآية ان يكون ما فى نهايتها من وضع الحرب أوزارها نتيجة وأثرا لهذه المعاملة ، وان يكون عدم استرقاق الأسرى ، واعتبارهم ثروة من غنائم الحرب سببا لوضع الحرب أوزارها ، وعدم المعاندة .

حس راق متلطف عطوف :

ومن هذا الجو مانجده فى غير هذه الآية الخاصة ، من حس القرآن العام نحو الرق وأنه حسن كريم ، راق ، متلطف ، يفيض عطفا على اولئك الذين قست عليهم ظروف الصراع المادى ، واخرجهم بعض اخوانهم ، من مفكرى البشر ، من كرامة الآدمية العامة ، وعدوهم طبقة نازلة ، خلقت الطاعة والخدمة .. فاذا هذا القرآن فى بيئة الجزيرة العربية الخشنة الطبقية ، المتعصبة، يتحدث الى أصحاب الشرف والنسب ، والسيادة المكاثرة بالمال والولد ، والعصبية القبلية . يتحدث الى هؤلاء عما بين الآدمى والآدمى فاذا به لا يستعمل ـ على كثرة ما حدث عن هذا الوضع ـ كلمة الرق ولا يذكر أرقاء .. بل يسميهم الرقاب ، والواحد منهم رقبة وهى جزء من جسم الانسان اصيل فى الحياة ، وضرب الرقبة هو ـ فى تعبير القرآن ـ هدم الحياة والقتل .

ومن حسه اللطيف انه لم يستعمل كلمة العتق . بل استعمل مكانها دائما التحرير ، أو فك رقبة .. والتحرير تصيير الآدمى حرا . والحر فى العربية هو الاصيل الكريم .. وفك الرقبة تجسيم

لخنق الحرية فى هذا الوضع الذى يضجر به القرآن فى نبل .. ومحمد أولى الناس شعورا بهذا الحس اللطيف ، وهو يمثله حين يوصى الناس بأن يسموا هؤلاء الناس عبيدا واماء فينهاهم عن أن يقول أحدهم عبدى وأمتى .. وانما يقولون بدل ذلك : فتاى وفتاتى .. لانهم اخوانهم كما يقول الرسول فى بيان أصـــل هذا الادب .

ومن افق هذا الحس اللطيف بالكرامة الانسانية أن القرآن فى العهد المكى الطويل لم يشتغل بالشئون العملية فى الحياة ، من نظام أسرة ، أو جماعة ، بل كانت عنايته موجهة الى الاصـــول الاعتقادية الكبرى فقط ، وفى المدينة بعد ذلك حدث عما عرض له من شئون هذا التنظيم فى زواج ، وطلاق ، او بيع ، او ميراث ، او حكم وقضاء .. وما الى ذلك من تدبير عملى ــ وهذا طابع معروف واضح فى قرآن العهدين ، المكى والمدنى .. لكن هذا يختلف فى الحرية الانسانية ، اذ نرى القرآن فى مكة يحدث ــ فى عناية كبرى قوية ــ على فك الرقبة ويقول للانســـان : فلا اقتحم العقبة ، وما ادراك ما العقبة فك رقبة أو اطعام فى يوم ذى مسبغة ... الخ ــ سورة البلد : ١١ ــ ١٦ فالعقبة الكبرى فى حياة البشرية عنده هى عائق مادى ومعنوى معا ، وازمة حياة الآدمية هى حاجة الحياة المادية التى تقيم كيان الجسم البشرى ، وحاجة الحيـــاة المعنوية التى يقوم بها كيان النفس الانسانية .. نعم هى الحياة كذلك كانت .. وتكون .. ولعلهـا تظل كذلك ، تحترب هذه البشرية فى سبيل حاجتها المادية ، وازماتها فيها هى المسغبات والمجاعات ، على اختلاف صـــورها ــ وتحترب هذه البشرية فى سبيل حاجتها الروحية من الحرية والانطلاق ، والشعور بالكرامة .. وعن هاتين الحاجتين يعبر القرآن بالعقبة ، وما أدراك ما العقبة .. وهو أسلوب معروف فى الاشياء الهائلة .. والعقبة الكبرى : فك رقبة .. أو اطعام فى يوم ذى مســـغبة .. هما الحاجتان اللتان اشرنا اليهما .. حاجة الجسم ، وحاجة الروح .. والقرآن اكثر حفاوة وأشد اهتماما بحاجة الروح ــ بالحرية ــ فهو لذلك يقدمها على حاجة الجسم المادية ويقول أولا : فك رقبة .. وأكرم به حسا وأعظم به شعورا .

الرق فى القرآن سواة اجتماعية :

وبهذا الفهم اللغوى الادبى لآية من سورة القتال مع شعور بحس القرآن نحو الرق ننتهى الى مثالية كريمة متسامية فى النظر الى الرق ، وعده آفة مدنية ، وسوأة اجتماعية يقضى عليها بانضاب معينها ، وهو الأسر فى الحرب ...

ولعلك تذكر ما أشرنا اليه فى الفقرة السابقة من هذا الفصل، وهو ان فهم الاسلام امس لم يتجه الى هذه المثالية ؛ بل انهم بعد ماقرروا من أحوال الرق وتنظيمه عملا ، قد صدمتهم الى حد ما هذه النزعة القرآنية الواضحة فى عدم استرقاق القرآن أسرا ، فاذا هم يقررون ان هذه الآية من سورة القتال منسوخة ! كما قرروا مثل هذا فى آية الدعوة العامة الى السلم العالى ــ على ما سمعت قريبا .. لكن حسن حظ الانسانية لا يزال يجد المخلص عند منكرى هذا النسخ ، بل يجد مخلصا أوسع وأكبر فى قول امامهم السابق الذى انكر نسخ آية الجنوح الى السلام ولو خادعا فهو هو نفسه لا يزال ينكر نسخ آية معاملة الاسرى التى لا تسترقهم ؛ ويقول فى هذا ان هذه الآية محكمة غير منسوخة ــ تفسير الطبرى جـ ٢٦ ص ٢٧ ط اولى .

الانتقال من الواقعية الى المثالية :

واذا انتهينا الى هذه الغاية من فهم القرآن وحسه نحو الرق فاشرفنا على أفق فسيح من المثالية المرجوة التى نجدها دائما فى القرآن، فانا ننتقل الى النظر فى الأساس الثانى من أسس فهم الغد للاسلام ، وهو رياضة البشرية تدريجيا من الواقعية فى حالها القائمة ، الى المثالية فى عوالمها الفسيحة الراقية . وتوافر الامرين دائما فى تدبير الاسلام للحياة .

ننظر الى الواقعية بادية فيما بقى فى القرآن والاسلام من الرق عملا ، وحال الارقاء ومعاملتهم ، فنرى فى ذكر ملك اليمين ، واستحلال فروج المملوكات ، واختلاف عقوبة الرقيق عن عقوبة الحر ، وغير هذا فنجد انها عنده خطة مقررة ، لا يفاجأ الناس معها بما يتمثلون ولا يدركون ، بل يسايرهم ، ريثما يدبر لتغييرهم ورفع مستواهم .. وعلى هذه الخطة نفسها تراه يمضى الى تخفيف

حدة هذا الوضع المهين للانسان ، ويتلطف لذلك ، ويطب له بما كان بعضه قد عرفته الرحمة والكرامة ، عند قلة قليلة ، او يدبر لذلك التخفيف والتلطيف بالمبتكر ، والفعال ، حتى يكون الهدف الاخير ألا يسترق احد بحرب . .وفى اطار من نفحات هذه المثالية فى شعورها اللطيف ، تتدرج الواقعية فى مقاومة الرق . والضجر به ، والعمل للقضاء عليه .. فبعد الحث الدينى على فك الرقاب ، ووعد الثواب الأخروى الكبير عليه ، فى معنى يحسم المماثلة البشرية بين السادة والمسودين ، اذ تقول التوصية الدينية أن من يفك رقبة بالعتق ، يخلص من العذاب ، كل عضو منه بعضو أعتقه .. ولا يقف الامر عند استثارة الشعور بالتحرير وحسن ثوابه ، بل يتقدم الى التشريع العملى فيوجب تحرير الرقاب فى أعمال كثيرة يعرض لها الناس فى معاملاتهم الحيوية ، وعباداتهم الدينية فهو يوجب تحرير الرقبة على انه جزاء متعين ، عند الافطار عمدا فى رمضان مادام عند المفطر رقاب مملوكة .. وهو كذلك جزاء متعين فى احوال من عقوبة القتل ، وفى ضرب من الاختلاف بين الزوجين بما يسمى الظهار ، .. كما أن تحرير الرقبة جزاء تخييرى عند الحنث فى اليمين .. الخ .

ثم يمتد التدبير العملى لتحرير الرقاب الى نظام عام يلزم الدولة برصد اعتماد فى ميزانيتها من مورد ثابت هو الزكاة ـ احدى قواعد الاسلام وأركانه ـ يصرف منها ١٢ ونصف٪ لتحرير الرقاب كما هو نص القرآن ..

مثالية القرآن تحرم الرق وتبتر جذوره :

وهكذا تدرجت الواقعية المعترفة بالرق الى بث الكراهية لهذا الرق بقوة وعنف .. ثم الى الترغيب فى التحرير . ثم الى الزام الافراد به .. ثم الى الزام الدولة ، فى نظام مالى ثابت .. فهيأت بذلك كله ـ وانه لكثير ـ الى مثالية تنكر الرق وتحرمه وتبتر جذوره حين لا تجعل له موردا من أسرى الحرب ، على ما سمعنا قريبا .. وبذلك تمضى الانسانية الى اقصى ما تستطيع من تكريم للبشرية، وتقديس للحرية وتتقدم الى ذلك صادقة ، جادة عادلة، فان هذا القرآن يحلق بها الى اسمى ما تستطيع أن تبلغ من غايات ـ بما تتسمنا من أنسام حسه الكريم .

ومن الواجب أن نشير ـ كما فعلنا في الحديث عن السلام ـ الى ان فهم الأمس للاسلام قد يضع العقبات في طريق هذا التدرج القرآني بواقع الرق الى مراحل مصلحة تنتهي الى مثاليته وذلك حين يجيزون قتل الأسير وحين يجيزون لحاكمهم أن يسترق الاسرى . لكنا لحسن حظ الانسانية كما قلنا ، نظل نجد المنافذ غير الضيقة للارتفاع على المستوى الذى فهم به الأمس هذا الاسلام .. فانه على فرض أن للحاكم وصاحب السلطة حق ضرب الرق على الأسرى ، فعليه كذلك واجب تنفيذ النظام المالى الملزم لمالية الدولة بأن تقدم تلك النسبة المئوية من اكثر ضرائبها حصيلة ·· وهى الزكاة ـ لتحرير الأرقاء ·· فهل سيرى هذا الحاكم حين تكون المسألة مالية أن يستكثر من الارقاء ، ليبذل مال الدولة في تحريرهم ؟ او سيرى الخير في ان يقلوا لئلا يبذل هذا المال في تحريرهم . !! وهلا تكون روح النظام الاسلامى ، في التدرج بواقعية الرق روحا واضحة القوة . صادقة الرغبة في القضاء عليه ، حتى على الصورة التى فهم بها الامس هذا النظام .. ولم يستشرف لمثاليته الواسعة .

انسانية القرآن أعمق من دعاوى المتشدقين بحقوق الانسان:

وما اسلفنا من النظرة العامة الى فهم الاسلام أمس ، وفهم الاسلام اليوم فافتقدنا به تحقيق هذين الفهمين لميزات الاسلام التى تبيناها ـ مااسنفنا من هذه النظرة نستطيع أن نجد به هنا أن ما عرضنا من فهم الاسلام غدا يحقق الى حد كبير ـ خصائص الاسلام التى تميز بها عمومه ، ودوامه .. وختمه لرسالات السماء .

ولعل القارىء يكون قد أحس في وضوح أن هذا الفهم الاخير للاسلام يحقق كل التحقيق ما عنى به الاسلام من تقدير التجدد المستمر للحياة .. ومن احترام المحاولات الانسانية في تدبير الحياة ·· ومن اعتراف بحق الانسانية في المشاركة البشرية في تدبير الحياة ، مع وجود التدبير الدينى .. فانا نجد في قبول الواقعية للترقى المتدرج ، وفى احاطتها بأحاسيس كريمة ، ورغبات مثالية ، كل ما تطمع فيه الانسانية من حدب عليها ، وثقة

بمستقبلها ، وأمل فى ترقيها ، ومضى الى مثل مارنت اليه حتى اليوم ، بل دفع لها الى ابعد منه ، وارقى واكرم .

وفى التطبيق المكرر على الرق تجسمت الفروق بين فهم الاسـلام ، فى المراحل الثلاث من سير الحيـاة من الأمس ، الى الغد .. وفى هذا الفهم الاخير تجلت فى القرآن الروح الانسانية المتفائلة ، المستبشرة ، رغم تكاثف الظلمات .. وبدا جليا أن ما طمحت اليه الانسانية من تحريم الرق ، واتفقت عليه ليس هو فى القرآن شيئا من غير الممكن .. ولا انه لم يكن فى حساب الاسلام ، لأنه لا يغير الطبائع الآدمية ، ولا يصير الناس ملائكة — بل أن الانصاف فى تقدير الفروق بين الازمنة المختلفة يقضى علينا بأن نعد ما فى الاسلام من النفحات الخيرة الشاعرة بانسانية من جنت عليهم الظروف واسترقوا ، مما يجب ان يعد عملا اكثر لطفا ، واعمق حسا ، مما شعرت به الانسانية نحو هؤلاء المغاولى الرقاب حتى اليوم .. بل حتى غد غير قريب .. فان هذه الآدمية لا تزال اليوم تعانى ما يأسى له ضميرها الحى من تقرير التمايز بين الطبائع البشرية بالدعاوى العتيقة للعنصرية ، وبالاضطهاد الملون الذى تتجاوب به الأصـداء فى الدنيا الجديدة والقديمة على السواء .

اجمـاع

هذا ما كتبه جمع من العلماء والمفكرين . والذى يستخلص من كتاباتهم — كما هو واضح — أن القرآن الكريم لم يشرع الرق وانما شرع تحرير الرقيق .

لقد قالوا جميعا ان الاسلام حرم جميع أنواع الاسترقاق . ولم يبق الا على أسرى الحروب . والنص القرآنى الخاص بهؤلاء الأسرى لا يدل الا على المن وذلك فى المرتبة الاولى فان لم يكن فالفداء . وليس فى القرآن نص يبيح الاسترقاق .

وقد اجمع أيضا هؤلاء العلماء الاعلام أن الاسلام فرض على الدولة اخراج جزء من الزكاة لتحرير الرقيق الذى يرسب فى المجتمع الاسلامى ، كما حض على عتق الأرقاء ، واطلاق الأسرى

من قيود اسارهم بكل طريقة ، وجبب الاسراع فى ذلك ، وقد مر بنا أن القرآن الزم الاغنياء – كما الزم الدولة – باخراج جزءمن أموالهم لتحرير الرقيق وفى ذلك تتضافر الدولة والافراد على تصفية الرقيق .

***

ولم نكثر من نقل أقوال العلماء والمفكرين الا ليتضح أن كل هؤلاء الاعلام على اختلاف ثقافاتهم وتنوع مشاربهم واتجاهاتهم الفكرية ، اتفقوا على شيء واحد هو : ان القرآن عالج مشكلة الرقيق علاجا حاسما وخلص الناس من نظام بشع ردىء يهدر آدمية الآدميين . ولا يقيم لكرامتهم وزنا ، وأعاد للانسانية شرفها وكرامتها بانهاء هذا النظام واحلال الحرية والكرامة محله .

نعم ان كل المتحدثين الذين نقلنا أقوالهم ، لم يتعرضوا فيما كتبوه لمشكلة الرق الا على أنها مشكلة قائمة ، عمل الاسلام لحلها ولم يتحدثوا عن الاسباب المتنوعة التى أدت الى قيام هذه المشكلة حتى أصبحت نظاما متبعا أو عادة مألوفة ، لا تستحق من أحد التفكير فيما يؤدى لحلها . لذلك لا يبعد أن يقوم معترض يقول : ان مشكلة الرق لم تدرس دراسة منهجية من هؤلاء الكتاب والمفكرين والعلماء . دراسة تتفق ومنهج الاسلام فى تقرير القواعد واقامة المبادىء التى حفل بها لسعادة الناس .

فاذا أراد هذا المعترض بالدراسة المنهجية دراسة تاريخ الرق قبل الاسلام والنظرة الفلسفية التى كان ينظر بها اليه والاوضاع السياسية ، والاقتصادية ، والعقيدية ، والعنصرية ، والاخلاقية التى كانت سائدة فى القديم ، ثم التحدث عن نظرة الاسلام الى كل تلك الامور ، وموافقته أو مخالفته لها ، وماذا وضع من مبادىء ونظريات ونظم ، فلعل المعترض يجد فى كتابنا هذا الدراسة المنهجية التى يريدها .

والحقيقة ان الاسلام الذى مجد الانسان فصعد به الى مكانة عالية جدا لايمكن أن يسمح باسترقاقه . ولكننا ابتلينا فى عصورنا المظلمة بأناس باعدوا بيننا وبين البحث لمعرفة ديننا معرفة صحيحة منزهة عن الانحراف والاخطاء ، ولكن القرآن لا تحجبه ظلمات

العصور وانحراف العقول والافكار . فهو مازال غضا جديدا كاليوم الذى نزل فيه • وما علينا الا أن نتدبره ، ونسترشد بهديه فى كل عصر وعند كل مشكلة • وعلينا أن نحطم كل الاسوار التى أقيمت لتحول بيننا وبينه • لانها أسوار لم يقمها الا ضلال المضللين وجمود الاغبياء وأغراض المغرضين • والنتيجة التى نخرج بها هى أنه : لا رق فى الاسلام ، وليس فيه الا أسرى الحروب من الذين يشنون عليه الحروب ، ويقفون معاندين فى سبيل ابلاغ دعوته — بالحكمة والموعظة الحسنة للناس — وهو فى هذه الحالة مضطر لان يقابل أعداءه بالمثل ، حتى يدينوا بمبدأ الحرية والمساواة للناس جميعا •

ولذلك نجده لا يبيح الأسر اذا اقتتلت طائفتان من المسلمين ، لأن كلا الطائفتين تدين بالحرية والمساواة اللتين منحهما الاسلام لجميع الناس •

ولم يحدثنا التاريخ أن رابع الخلفاء الراشدين عليا بن أبى طالب أسر احدا من مخالفيه الذين كانوا يحاربونه لانهم جميعا يدينون بالاسلام .

وكذلك لم يحدثنا التاريخ أن معاوية أو غيره من الذين كانوا يحاربون عليا اسروا أحدا من جنوده • وعلة ذلك أن الجميع يدينون بمبدأ الحرية للجميع ، وان الاعتداء على هذه الحرية مخالف لعقيدة الاسلام .

فاذا اعتنق الناس مبدأ الحرية للجميع ، وطبقوه فى واقعهم فتلك هى الغاية التى يريدها الاسلام لاهل الارض جميعا •

واظننا لسنا فى حاجة بعد كل ذلك لان نقول : ان الذين يتهمون الاسلام باقرار الرق اما أن يكونوا جاهلين بالاسلام ، واما أن يكونوا منحرفين عن طريقه القويم ، واما أن يكونوا مكابرين • ولا يسعنا الا أن نسأل الله الهداية لكل أولئك فان اهتدوا فقد أراد الله بهم خيرا ، والا فلن يخسروا الا أنفسهم • أما القرآن — كتاب الله الخالد — فلن يضيره مكابر ، ولن يطمس آياته البينات معاند ، ولن يضر الشمس الساطعة شيئا اذا لم يرها العميان •

فى بعض بـــلاد الاسلام

ان بعض بلاد المسلمين ما زالت تستبيح الرقيق امتلاكا ، وتجارة وافتراشا • ولا نعلم كيف تتحمل ضمائرهم مزاولة هذا الوزر العظيم ؟

وكيف يستبيح العلماء منهم لانفسهم هذا المنكر الصارخ ؟

لقد رأينا فيما مر بنا من صفحات هذا الكتاب أن الاسلام لم يشرع الرق ، ولكنه شرع تحرير الرقيق الـــذى رسب فى المجتمعات الاسلامية من عصور الجاهلية ، ومن أسرى الحروب التى كانت تنشب بين أنصار الدعوة الى الاسلام وأعدائها • ورأينا أن جميع العلماء الذين نقلنا آراءهم يقررون أن المسلمين ارتكبوا فى مسألة الرقيق مالا يقره الاسلام • ان الاسلام حرم الرق بكل أنواعه المعروفة ، بما وضع له من نظم ، وما أقامه من مبادىء ، وما ثبته فى القلوب المؤمنة من عقيدة الحرية والاخاء والمســاواة : الحـــرية للناس جميعا والأخوة بين الناس جميعا ، والمســـاواة فى الحقوق والواجبات للجميع •

ولم يبق فى عصرنا شبهة ولا شبيه بالشبهة فيتعلق بهـا الذين فى قلوبهم مرض اذا أرادوا استباحة ما حرمه الله من استرقاق الناس ، واستباحة الفروج والاموال عن هذا الطريق • فليس هناك حروب مشروعة قائمة حتى نقول : ان ما بأيديهم من ارقاء انما هم أسرى تلك الحروب ان كل ما هو موجود ممن يطلق عليه رقيق ـ بهتانا ـ لم يأت الا عن طريق الخطف والقرصنة واللصـــوصية واباحة استرقاق هؤلاء الاحرار المخطوفين لم يقره الاسلام بوجه من الوجوه (١) •

---

(١) يقول الأستاذ محمد حسن عواد فى كتابه محرر الرقيق فى صفحة ١٢١ هامش ان الاســلام نفسه ـ وليست السياسة ـ هو الذى يمنع هذه التجارة الخاطئة ، بوصفه دينا يدعو الى =

بل ان الاسلام يفرض العقوبات الصارمة على من يأتى بمثل هذه المنكرات ..

وعجب لهؤلاء المسلمين اذ يظهرون فى المنظمات الدولية وعليهم مسوح الرهبان ، ويشاركون فى التوقيع على ميثاق حقوق الانسان ، واتفاقية تحريم المتاجرة بالرقيق ، بينما هم فى مقدمة من يروجون لهذه التجارة الملعونة فى بلادهم ، وان قصورهم لتشهد بانهـا مكتظة زاخرة بالغلمان والجوارى من جميع الأجناس .

انهم يخشون الناس ، ولا يخشون الله . ويظنون أن الناس فى غفلة عمـا يعملون . ان الأستار الصفيقة التى يضفونها على انفسهم لم تستطع اخفاء الحقائق . وهم بذلك انما يريدون الطينة بلة – على حد تعبير المثل العامى – فهم يضيفون الى وزر استباحتهم ما حرمه الله وزر النفاق والرياء والمخادعة فيجلبون لانفسهم اللعنة وليت اللعنة تقف عند حد أشخاصهم ولكنها تتعدى الى شعوبهم . فيحسبونها مثلهم فى المخادعة والتضليل والنفاق ، بل تتعدى الى الاسلام نفسه والى مقدسات المسلمين ، وأماكن شعائرهم ، ويدعون الألسنة المسمومة تنطلق بالحط من شأن الملة الحنيفية السمحة ، ورسولها الكريم ، صاحب الخلق العظيم ، صلى الله عليه وسلم .

واننا حيال ذلك لايسعنا الا أن نعلن ابراء للذمة واحقـاقا للحق أن الاسلام لا يقر الرق ولا يعترف به ، وأن ما يرتكبه بعض المسلمين من استباحة الرقيق تجارة وامتلاكا وافتراشا مخالف للاسلام . وأن من يرتكب ذلك انما يرتكب كبيرة من الكبـائر يعاقب الاسلام مرتكبها عقابا صارما شديدا .

= الحرية والأمن والدعوة بالحكمة والرفق حتى ولو أن المخطوفين والمخطوفات من غير المسلمين . فالاسلام لايبيح الخطف ولا السرقة ولا الاعتداء ولا يسوغ التجارة فى المواد المنتهبة سواء أكانت بشرية أم غير بشرية .

الرق في الأمم الغربية الحديثة

لقد بينا نظرة الدين الاسلامى الى نظام الرق الذى كان يسود العالم قديما ، وكيف أن الاسلام حرر الرقيق وقضى على أسبابه ، وجفف منابعه ، ووضع لها السدود الواقية حتى لا تعود الى التفجر مرة أخرى .

وان كان فى بعض البلاد الاسلامية النذر اليسير من الرقيق فليس ذلك ذنب الاسلام ، وانما هو ذنب المنحرفين عن الاسلام ، ويكفيهم خزيا أنهم يتوارون خجلا من الناس عندما تضمهم المحافل العالمية . اذ ليس لديهم من المنطق ما يبرر أفعالهم . ويعترفون فى قرارة انفسهم أن ماهم عليه انما هو منكر لايقره دين ، ولاشرف ولا انسانية فاذا تركنا هؤلاء المارقين عن الدين الاسلامى الحنيف . ونظرنا الى هؤلاء الغربيين الذين يملأون الدنيا ضجيجا بادعاءاتهم المكررة زاعمين انهم انما هم رسل الحضـــارة فى العصر الحديث ومنقذوا الانسانية ودعاة الحق والعدل والحرية والانصاف . هؤلاء الغربيون الذين طالما تجنوا على الاسلام ووصموه بالهمجية والرجعية والقسوة والجمود تارة ، وتارة أخرى بدعواهم ان الاسلام قد استنفد أغراضه ولم يعد صالحا للعصر الحديث ، ولا يمكن أن يساير الحياة المتطورة التى يأتى انسانها كل يوم بشىء جديد . فماذا نجدهم صنعوا لحل مشكلة الرقيق بعلومهم ومعارفهم وحضارتهم ودعاواهم الطويلة العريضة التى يزعمون فيها بأنهم رسل الانسانية ودعاة الحرية ؟

فى سنة ١٦٨٥ صدر قانون اسمه (القانون الأسود) لتنظيم أحوال الرقيق فى جميع المستعمرات الفرنسية تقرر فيه تخويل الحق المدنى والسياسى للاحرار الملونين . يعنى ان الملونين تنظر اليهم اوربا على أنهم رقيق لها . ولكن الجمعية الدستورية صادفت صعوبات عنيفة ومعارضات قوية . فلم يعمل بهذا القانون الا فيما

يختص بالاحكام الصارمة التى تنزل بهم ، اما الحقوق التى اراد القانون منحها للملونين فلم تعط لهم . وكان من مواد هذا القانون اذا اعتدى الملونون باقل اكراه على سادتهم أو ارتكبوا اخف السرقات فجزاؤهم القتل ، وكان عقاب الآبقين فى المرة الأولى والثانية قطع الآذان والكى بالحديد المحمى ، وفى المرة الثالثة القتل .

ومثله القانون الانجليزى الذى صدر فى المستعمرات الانجليزية مثل (جاميكا) و (انتيجوا) (١) وقد كتب «هيليار دوبر توى» فى ملاحظاته على مستعمرة دومنيك البريطانية قال: (ان المرسوم الصادر فى سنة ١٦٨٥ لا يمنع من هلاك الارقاء فى كل يوم بسبب تكبيلهم بالسلاسل ، أو جلدهم بالسياط ، أو ضربهم ضرب العنف والازهاق أو حرقهم عسفا واستبدادا ، وكل هذه الفظائع يرتكبها القوم فى المستعمرة ولا رادع يردعهم حتى أن كل ذى لون أبيض يعامل الاسود بالغلظة والقسوة ولا حرج عليه فى ذلك ، واذا الحق ضررا بعبد من العبيد فالقضاة اعتادوا عدم النظر الى هذا الضرر الا من حيث أنه ينقص ثمن العبد .

وقد أيدت الجمعيات الاستعمارية فى كل زمان هذه القاعدة وهى انه لا يسوغ للمشرعين أن يتوسطوا ويتدخلوا بالشرائع بين العبد ومولاه ، وكان الاحرار من ذوى الالوان محرومين من وظائف النفوذ والاعتبار بل قد صدرت أوامر متنوعة من نظارات الحكومة بمنع التوسع فى تأويل مواد القانون الأسود ، فمنها ما كان بالنهى عن البحث فى الاوراق المثبتة أن صاحبها من طبقة الاشراف متى تزوج بامرأة امتزج بها دم الارقاء . وكان ذلك الرجل يعد غير جدير بأية وظيفة فى المستعمرات ، بل يعتبر ساقطا من درجة ذوى اللون الأبيض . ومنها ما كانت بتحريم حضور ذوى الالوان الى بلاد فرنسا لطلب العلم ، ومنها ما تضمن عبارات صريحة هذا تعريفها (ان حسن النظام مما يوجب اقلال الصغار والاحتقار المرتبط بالجنس الأسود مهما كانت درجته ومنزلته ، وقد صمم جلالة الملك على ابقاء الحكم الاعتبادى الذى بمقتضاه يحرم الى الابد الآبدين ذوو الالوان وذريتهم من المزايا الخاصة بالجنس الابيض

---

(١) جاميكا . وانتيجوا جزيرتان فى بحر انتيشليا

يناير سنة ١٧٦٧) ، ومضى الحال على هـــذه الوتيرة حتى قامت الثورة الفرنسية فى سنة ١٨٤٨ .

اما فى أمريكا فان الحال فيها لا يختلف عن الحال فى فرنسا وبريطانيا ، فالمولى له حق الملك المطلق على عبده فله بيعه واجارته ورهنه وخزنه واجراء الجرد عليه والمقـــامرة به . وغير ذلك من التصرفات كأنما هو أثاث .. ومحتوم على هذا الذى فى حكم الجماد . أن يتقمص شخصية الانسان فيحترم سيده ويحترم عائلة سيده اطفالا ونساء وشيوخا وشبابا . ويطيعهم طاعة لا حد لها .

وليس له أن يدافع عن نفسه ، ليس له حق المجىء والذهاب والخروج عن المزرعة الا بتصريح قانونى مستوفيا جميع الشروط المفروضة . وليس للأرقاء الحق فى أن يجتمع أكثر من سبعة منهم فى الطريق ، والا اعتبروا مخالفين للأوامر ، وينزل بهـم العقاب الشديد . ولأى رجل أبيض الحق فى أن يلقى القبض عليهم ويجلد كل منهم عشرين جلدة ، وقد نص القانون الأسود على أن العبيد لا نفس لهم ولا روح ولا فطانة ولا ذكاء ولا ارادة وأن الحياة لا تدب الا فى أذرعتهم .

ارايت الى اى حد يبلغ الظلم . انهم يجردونه من الروح ومن الفطنة ومن الحيـاة ، ولكنهم يحملون هـــذا المجرد من كل شىء مسئولية من له روح وارادة وفطنة وذكاء وحياة ، فهم يحكمون عليه بالجلد بالسياط وبالموت ، ويلزمونه بشتى الواجبات التى ان قصر فى أدائها نزل به العقاب الاليم ، ويعاقبونه على الجناية والجريمة التى يعفى من ارتكابها البيض . الى غير ذلك من القوانين الجائرة . تلك كانت حالتهم حتى قامت الحرب الاهلية سنة ١٨٦٢ .

هذا ما كانت عليه أوربا وأمريكا منذ قرنين ونصف تقريباً .

فما هى تطوراتهم التقدمية فى هذا الشأن الآن وبعد مضى قرنين ونصف من الزمان ؟ لاشك انهم تطوروا فى العلوم والمعارف والفنون والاكتشافات والمخترعات ... الخ ولكن نريـد رؤيـة تطورهم فى الاخلاق والانسانية . وفى هذه المشكلة المستعصية .

لقد قامت فى هـــذه الفترة الثورة الفرنسية وصدر قانون

بتحريم تجارة الرقيق . وقامت حرب ابراهام لنكولن فى أمريكا لتحرير الرقيق .. ولا نقول ان كلتا الثورتين لم تكونا جادتين فى تحرير الارقاء . ولكننا نقول ان الثورتين لم تبتيا رغبتهما فى تحرير الرقيق على أساس ثابت ، ولم تنظر الى المشكلة بعمق كما فعل الاسلام فى معالجته لهذه المشكلة . كلتا الثورتين تركتا الرقيق يعانى الاضطهاد والجوع والبطالة ، وما زال الزنوج فى أمريكا نفسها منبوذين يعاملون من الامريكان معاملة تخجل وجه الانسان وتثقل ضميره ، ولم يزدهم التقدم العلمى والاقتصادى والتطور الحضارى الذى بلغوه فى القرن العشرين الا قسوة وهمجية وانحطاطا بالنسبة لنظرتهم الى الزنوج الذين يعتبرون اخوانهم فى الوطن والانسانية . وأوربا مثل أمريكا تماما فى معاملة الزنوج خاصة والملونين بوجه عام .

وكان الأجدر بهؤلاء الذين يتطلعون الى غزو القمر بصواريخهم أن يسلطوا صواريخ المقت الى ضمائرهم لعلها تفيق من غفلتها فيرأفوا باخوانهم فى الأرض وشركائهم فى الانسانية ويمنحوهم ما منحه الاسلام لهم من حرية واخاء ومساواة . ويعترفوا بآدميتهم ولا يهدروها هذا الاهدار المزرى بسمعتهم كرسل للحضارة فى القرن العشرين كما يزعمون .

***

ان بريطانيا حينما كانت تحتل الهند كانت تفقر الفلاحين وترهقهم بالضرائب وأرباح الربا التى لا تقف عند حد . فاذا عجز الفلاح المسكين عن دفع ما تطلبه منه السلطة الحاكمة المتمثلة فى القضاء البريطانى ، يحكم عليه هذا القضاء باغتصاب بناته وزوجاته ، واجبارهن على مزاولة البغاء الرسمى . والبريطانيون هم الذين يحددون أجور هذا البغاء الجبرى ، ويستولون عليها حتى يسدد الدين الذى صوروه على المدين .

وكذلك كانت تفعل فى الصين وفى غيرها من المستعمرات حتى انقشع ظلها الكريه عن الهند وغيرها ، واستراحت البلاد التى كانت ترزح تحت نير بريطانيا من الكابوس البغيض الذى كان يجثم على صدور أبنائها .

وهولندا كانت تتخذ من أندونيسيا مزرعة لها ومن اهلهـــ ارقاء يعملون لتوفير الرفاهية والرخاء لأبنـــــاء هولندا ، ويعيش الاندونيســـيون فى شظف وارهاق وعمل متواصل . تلهب ظهورهم سياط الحضارة الغربية . حضارة الحرية والمساواة . حتى تخلصت أندونيسيا من الوحوش التى كانت ترتدى ثياب الآدميين . وها هى ذى أندونيسيا سعيدة بحريتها ، وان كان الثمن الذى دفعته غاليا .
وما زال الكنغو يئن تحت وطأة بلجيكا ويرزح فى ســـــــلاسل وحشيتها وقسوتها . ولكن الفجر قريب البزوغ على أرضها التى تضرجت بدماء أبناء الكنغو الابرياء فى سبيل حريتهم .

وأنت يا فرنسا لماذا تسفكين دماء الاحرار فى الجزائر ؟ وأين ميثاق الثورة التى قام شعبك بها لتحرير الانسانية ؟

أمن التحرير اغتصاب الجزائر والحاق هذا القطر العربى الحر المسلم بأرض فرنسا ؟ أليس هذا هو الاستعباد فى أبشع صـــوره والهمجية فى أحط ألوانها ؟ أين ميثاق الحرية يا فرنسا ؟

أما بريطانيا فهى حامية القرصنة واللصوصية ومبدعتها . والا فما لبريطانيا وعمـــــان ؟ وما لبريطانيا واليمن ؟ لا تزعمى يا بريطانيا المحافظة على الحقوق فان أهل عمان أحفظ لحقوقهـــم وأدرى بهـــا منك ! وأهل اليمن ليسوا فى حاجة الى تدخلك فى شئونهم ، انهم فى الشرق وأنت فى أقصى الغرب ، أنهم عرب وأنت سكسونية . ولقد بلوناك يابريطانيـا . فلم نحمـــد لك أمرا . غش وخديعة ، وغدر وخيانة ونهب للأموال ، واستعباد للأنفس . واحتقار للآدميين .. ان العالم كله يشهد عليك بأنك أصل بلاء العالم ومصدر شقاء الانسانية . ومثيرة الفتن والحروب .

نهرو يتحدث :

وهذا هو الزعيم الهندى الكبير جواهر لال نهرو يقول عنك يا بريطانيا فى كتابه (لمحات من تاريخ العالم) حينما كنت تحتلين الهند: «اننا تعيش تحت سيطرة آلة ضخمة جشعة تعصر وتسحق الملايين من الهنود . هذه الآلة هى الاستعمار الجديد الذى ولده رأس المال الصناعى . ثم يقول : وقد اتضح لنا عيب هذا النظام الاستعمارى

الرأسمالى فى الهند ، واذا التفتنا الى الصين ومصر وجدنا آلته الضخمة تعصر وتسحق أهلها أيضا » .

ان دول الغرب تزعم أنها تنشر الحضارة فى اقطار البشرية والذى نعرفه أن من يتصدى لمثل هـــذه الرسالة يسعى لاصلاح الفساد ونشر العدل والاخاء ، وتحرير النفوس والعقول والقلوب من كل ما يخفيها ويقعد بها عن العمل المنتج النافع .

فهل فعل الغربيون ذلك فى جميع البـــلاد التى نكبت بسلطانهم ؟ . انهم ينشرون فى كل بلد يدخلونه الفساد والانحلال ويشايعون الجهل والجمود والرجعية ، ويناصرون الظلم والاستبداد، ويفرقون بين الأسرة المترابطـة ، ويستغلون دماء الاحـــرار ، ويستعبدون الشعوب ويثيرون النعرات العصبية والطـــائفية ، ويزرعون الأحقاد ويثيرون الفتن : ولا يتركون البلاد - ان تركوها قسرا أو اختيارا - الا خرابا يبابا مثقلة بالأوزار والمشاكل . ذلك ما صنعوه فى كل بلد وطأته أقدامهم .

وهذا ما يقوله عن انكلترا جواهر لال نهرو زعيم الهنـــد وفيلسوفها وحاكمها : « وقد ساعد الحكم البريطانى - فى الهند - على اثارة الرجعية الدينية ، ومن الغريب أن بريطانيا التى ادعت المسيحية جعلت كلا من الهندوكية والاسلام فى الهند أكثر تطرفا وشدة ، ومن السهل الى حد بعيد فهم ذلك اذا علمنـــا أن الغزو الخارجى يحاول دائما وضع الدين والثقافة للبـــلد المغزو موضع المدافع عن نفسه باللجوء الى الرجعية ، فلم يكن هدف بريطانيـا الحقيقى تقوية الدين أو التبشير له ، وانمــــا كانت تسعى وراء الكسب المادى ، وكانت حذرة فى عدم تدخلها فى شئون الدين بشكل مفضوح لئلا يتحمس الناس أو يثوروا عليها . وهكذا تحاشت انجلترا حتى مجرد اثارة الشك بأنها تتدخـــل فى شئون الدين فنهبت فى تشجيعه ، أو بالاحرى ، تشجيع المظاهر الخارجية للدين وكثيرا ما نتج عن ذلك بناء ظاهر الدين واختفـاء الجوهر ، ودفع خوف بريطانيا من الشعب المتدين الى التظاهر بأنهــا تقرهم على خطتهم الدينية ، وبهذا أوقفت انجلترا تيار التقدم والاصلاح » .

وكانت بريطانيا فى الصين تعمل كل ذلك ، وتزيد على هذا

بأن تجبر الصينيين على تعاطى الأفيون ولا تبالى ما يصاب به من هلاك ما دام ذلك يعود عليها بالربح الوفير ، ويمكن لها المقام فى أراضيهم . وقد أصمت ملكة بريطانيا (فكتوريا) أذنيها عندما تلقت شكوى من أمبراطور الصين عن الضرر الذى يصيب شعبه من الأفيون الذى يرغم البريطانيون الشعب الصينى على تعاطيه(١) .

وما تصنعه بريطانيا فى الصين والهند تصنعه فى كل بلد تحل فيه ، ليتيسر لها استعباد الشعوب وانتهاب خيراتها . وجميع دول الغرب تسلك هذا المسلك فى كل بلد تكب بالاستعمار .

وان من أفظع صور الرق فى العصر الحديث ما يحدثنا عنه جواهر لال نهرو فى كتابه لمحات من تاريخ العالم تحت عنوان (نظرة أخيرة حول العالم ص ٤٩٥ وما بعدها) .

يقول جواهر لال نهرو لابنته : « دعينا نتوقف قليلا وننظر حول العالم لنرى ما وضعه الآن فى اليوم السابع عشر من شهر أغسطس من سنة ألف وتسعمائة وثلاث وثلاثين .

فى الهند ألقى القبض مرة ثانية على غاندى ، وزج به فى سجن (يرقادا) واستؤنف العصيان المدنى ، ولو على نطاق ضيق وسيق زملاؤنا الى السجون . ولى زميل عزيز شجاع اسمه (خاندرا) أول ما التقيت به فى كمبرج منذ ربع قرن ، وقد تركنا بعد أن توفى فى سجون الحكومة البريطانية . ان الحياة تتساوى مع الموت ، ولكن الأعمال العظيمة التى يقوم بها شعب الهند تجعل حياته ذات قيمة كبيرة مستمرة فى طريقها ، يرقد الآن فى السجون والمعتقلات آلاف عديدة من أبناء وبنات الهند المتوقدين حماسة ووطنية مضحين بشبابهم وحيويتهم فى صراعهم ضد النظام الحاضر الذى يستعبد الهند ، وكان يمكن أن يقضى هذا الشباب وتصرف هذه الحيوية فى الاعمال البنائية . فهناك أشياء كثيرة يجب عملها فى هذا العالم . ولكن قبل أن يبدأ البناء (يجب أن يسبقه هدم حتى يسوى الأرض ليقف عليها البناء الجديد) .

---

(١) راجع صفحة (١٢٥) وما بعدها من كتاب نهرو (لمحات من تاريخ العالم) .

فاننا لن نستطيع أن نبنى بنـــاية جميلة فوق جدران كوخ طينية .. ويمكننا أن نتصور ما هى حالة الهند هـــذه الايام اذا عرفنا أنه فى بعض أقسامها مثل (البنغال) تخضع طريقة لباس الناس لانظمة الحكومة ، وكل من يخالفها يزج به فى السجن . وفى (شتاجرنج) يجب على كل الأولاد وحتى البنات أيضا البالغ عمرهم اثنتى عشرة سنة أو أكثر أن يحملوا بطاقات هوية أينمــا ذهبوا . ولا أدرى ان كان هذا النظام العجيب قد طبـــق فى أى مكان آخر ، فى المانية النازية ، أو فى مناطق الحرب حيث يحتل البلاد جنود الاعداء .. اننا اليوم امة خاضعة للحكم البريطانى ، وعبر حدودنا الشمالية الغربية يقع جيراننا تحت وطأة الغـــارات الجوية التى تقوم بها الطائرات البريطانية .

أما الهنود فى البلاد الأخرى فقلما يحترمون أو يرحب بهم أحد ، وليس هذا غريبا اذ كيف يحترمون فى الخارج فى الوقت الذى لا يحترمون فى بلادهم (١)؟ انهم يطردون الآن من جنوبى افريقيا حيث ولدوا وعاشوا ، وحيث عمروا وبنوا بعرق جباههـم بعض أجزاء البلاد مثل « ناتال » .

ان التفريق بينهم وبين الآخرين بسبب اللون ، يضاف اليه الكراهية العنصرية والصراع الاقتصادى قد اجتمعت جميعها لتجعل من هؤلاء الهنود فى جنوبى أفريقيـــا منبوذين . لا بيت لهـم ولا مأوى .

وتصر حكومة جنوب أفريقيا(٢) على أن هؤلاء يجب أن يرحلوا الى اى مكان آخر مثل غينيا البريطانية أو الهند ، وهذا يعنى موتهم جوعا بالتأكيد . ولا يهم هذه الحـــكومة الا أن يرحلوا لا أكثر ولا أقل .

وفى شرقى أفريقيا ، لعب الهنود دورا عظيما فى بناء كينيا وما يحيط بها من أقطار ، ولكنهم لم يعودوا مرغوبا فيهم هناك .

---

(١) وهذا شأن كل شعب يخضع لحكم الطواغيت .

(٢) حـكومة جنـــوبى أفريقيـــا حكومة متفرعة عن العنصر الانجليزى . وهى ضمن الدومنيون الانجليزى .

لا لأن الافريقيين يعارضون فى بقائهم بل لأن حفنة من الاوربيين لايريدونهم . وقد استولى هؤلاء على أحسن المناطق . ومنعوا الافريقيين والهنود من امتلاك اية أراض فيها . أما حالة الافريقيين تعيسة للغاية . منهم الذين كانوا فى الاصل يملكون هذه الاراضى ومنها يستمدون دخلهم . وقد صادرت الحكومة مساحات شاسعة واقطعتها مجانا للمستعمرين الاوربيين ، فأصبح هؤلاء اقطاعيين كبارا ، لا يطلب منهم دفع ضريبة دخل أو أيه ضرائب أخرى . ولكن عبء هذه الضرائب يقع بكل ثقله على الافريقيين المساكين(١) ولم يكن من السهل أبدا فرض ضرائب على الافريقى لأنه لم يكن يملك أى شيء ، ولذلك فرضت الحكومة ضرائب غير مباشرة على الحاجيات الضرورية التى لا يستغنى عنها مثل الطحين والملابس . فاذا اشترى هذه الأشياء دفع ضريبة كقسم من ثمنها . ولكن أغرب ضريبة فرضت عليه هى ضريبة الرءوس على كل ذكر تجاوز عمره ست عشرة سنة ، وعلى جميع أفراد عائلته بما فيهم وأنت تعرفين (يخاطب ابنته) ان المبدأ الاساسى فى فرض الضرائب على الناس يستند الى ما يكسبون أو ما يملكون . ولما لم يكن الافريقى يكسب أو يملك شيئا فقد فرضت الضريبة على جسده ولكن كيف يتمكن من دفع هذه الضريبة وقدرها اثنا عشر شلنا عن كل شخص فى كل سنة فى الوقت الذى لا يملك فيه أى مال ؟ هنا تكمن قذارة القانون وتحايله فهو يجبر الافريقى أن يكسب بعض المال بأن يعمل فى مزارع الاوربيين ، وهى طريقة لا لكسب النقود فقط ، وانما لاستخدام العمال بأجور مخفضة . وهكذا كان يضطر هؤلاء الافريقيون التعساء أن يسيروا مسافات طويلة قد تبلغ سبعمائة أو ثمانمائة ميل من داخل مناطقهم الى الساحل حيث توجد هذه المزارع (لا توجد سكك حديدية فى الداخل البتة . ولكنها توجد لمسافات قصيرة قرب الساحل) .

---

(١) هذا نظام رسل الحضارة فى العصر الحديث .. يغتصبون أرض الناس ويعطونها للدخلاء . ويفرضون الضرائب على المساكين أهل البلاد الذين اغتصبت أراضيهم ثم يتوقحون ويقولون الاسلام دين رجعى لا يصلح لتطور الزمن . وقد رأينا كيف كان حكم الارض فى الاسلام . وبيناه فى كتابنا هذا فليرجع اليه من أراد .

وليكسبوا مالا يدفعونه ضرائب عن أشخاصهم وعائلاتهم

هنالك أشياء كثيرة يمكن التحدث بها عن هؤلاء الافريقيين المستغلين الفقراء الذين لا يعرفون حتى كيف يسمعون أصــــواتهم للعالم الخارجى ٠

ان قصة شقائهم الطويلة ، وهم يقضون كل حياتهم بتعاسة وصمت ٠ انهم طردوا من أحسن أراضيهم ويعودون الآن ليعملوا فيها أجراءعند الأوربيين الذين أخذوا الارض منهم بالمجان ٠

ويؤلف هؤلاء الاوربيون طبقة شبه اقطاعية فيخمــــدون كل حركة لايريدونها ٠ ولا يحق للافريقيين أن يؤلفوا أية جمعية حتى ولو كانت أغراضها اصلاحية ، كما لايحق لهم أن يجمعوا فيما بينهم أية نقود ٠

وبلغ السخف بالاوربيين انهم سنوا قانونا منعــــوا فيه الافريقيين من الرقص لان هؤلاء يقلدونهم بهزء وسخرية فى بعض الاحيان ٠ والفلاحون فقراء جدا ولا يحق لهم زراعة البن ،أوالشاى لانهم بذلك ينافسون المزارعين الاوربيين ٠

اعلنت الحكومة البريطانية بشكل رسمى قبل ثلاث سنوات إن الانجليز أوصياء على الافريقيين ، وأنهم لن يسلبوهم أراضيهــم فى المستقبل ، ولكن لسوء حظ الأفريقيين اكتشف الذهب فى كينيا فى السنة الماضية ،فنسى الانجليز وعدهم وأسرعوا بالاستيلاء على الاراضى التى اكتشف فيها الذهب،وطردوا أصحابها الأفريقيين منها ، وبدءوا ينقبون عن الذهب ٠

وهكذا تدون ماهى الوعود الانجليزية ؟ انهم يقولون لنــا : ان كل ماعملوه هو لمصلحة الافريقيين ٠ وان هؤلاء سعداء جــدا بضياع أراضيهم ٠

ان هذا الاسلوب الرأسمالى فى استغلال منطقة غنية بالذهب لاسلوب عجيب ٠ فبموجبه يهرع الناس من كل مكان نحو تلك المنطقة ، ويبدأ كل منهم فى التنقيب فاذا عثر على شىء كان من نصيبه٠٠ هذا الاسلوبهو نموذج للرأسمالية ، لان الطريقةالمعقولة لاستغلال حقل الذهب هو أن تكون بواسطة الحكومة التى يجب أن

تسيطر عليه ، وتستغله لمنفعة الشعب بأسره ، وهذا نفسه هو ما يعمله الاتحاد السوفيتي الآن فى حقول الذهب فى تاجكستان وغيرها من الاماكن (١) . »

انتهى كلام نهرو .

وهو قليل من كثير مما تحدث به نهرو فى كتابه (لمحات من تاريخ العالم) .

فهل نجد رقا أفظع من هذا الرق ؟ ومتى ؟ فى القرن العشرين ، وممن ؟ من الذين يزعمون أنهم رسل الحضارة وأنصار الحرية والعدل والرحماء بالانسانية ! من هؤلاء الاوربيين الوقحاء .

ان بريطانيا اغتصبت البوريمى لتستولى على حقول البترول بنفس الاسلوب التى استولت به على حقول الذهب فى أفريقيا . وهى نفسها القائمة الآن بضرب اليمن وعمان بالطائرات لتسترق الشعب العربى فيهما وتنهب ثروته .

ان الرق ضربة لازب للنظام الرأسمالى الغربى القائم الآن . ولذلك فان نظام الرق لايمكن أن يزول مادامت أوربا متمسكـة بنظامها الاقتصادى الفاسد . وماذا يفيد العالم اذا كان الشعب الانجليزى أو الشعب الفرنسى أو الشعب الهولندى أو البلجيكى مستمتعا بعدالة اجتماعية ومستوى معيشى لا بأس به ؟ انهم انما يبنون مثل هذه العدالة على ظلم واستبداد واسترقاق لشعوب اخرى تنتزع حريتها وتنتهب أرزاقها وتموت جوعا لتعيش أوربا فى رفاهية من العيش . أهذه انسانية ؟

ألا بئست الانسانية وبئست الحضارة اذا كانت ترفع من قدر انسان على حساب انسان آخر .

---

(١) ان الاتحاد السوفيتى لم يأت بجديد . فقد قرر الاسلام ذلك لا فى حقول الذهب فقط . ولكن فى جميع أنواع الثروات سواء اكانت ذهبا أو فضة أو حديدا أو نحاسا أو بترولا أو ملحا أو قصديرا أو كبريتا أو غيره ، وقد أبنا فى كتابنا هـذا ما امـر به الاسلام فى مثل هذه الثروات فليراجع فى موضعه من هذا الكتاب .

لا يرى البعير سنامه

مثل عربي يقال لمن يعيب غيره ، وفيه نفس العيب .

ذكرنا بهذا المثل القديم الدارج على ألسنة الحجازيين ماكتبته جريدة المساء المصرية الصادرة بتاريخ ٩ من ربيع أول سنة ١٣٧٩هـ الموافق ١١ من أكتوبر سنة ١٩٥٩ في عدد (١٠٨٨) تحت عنوان لورد انجليزي يفضح اتجار فرنسا بالرقيق الاسود في غرب افريقيا .

فالانجليز الذين يرتكبون الفظائع التي نقلناها عن نهرو يعيبون على فرنسا اتجارها بالرقيق .

وهذا شأن اللصوص اذا تنازعوا على الغنيمة فان تنازعهم يظهر فضائحهم ومخازيهم . وهاهم أولاء رسل الحضارة وأنصار الانسانية يرتكبون أفظع مما كان يرتكبه الانسان البدائي في عصور الظلام والقسوة والهمجية ، في هذا العصر الذي أخذ الانسان يطمح لسكنى الكواكب ، ويحاول أن يصل اليها .

والى القراء ماترتكبه فرنسا التي تزعم أن ثورتها كانت ثورة لتقرير حقوق الانسان في كل مكان - اننا ننقل ماكتبته جريدة المساء نقلا عما نشرته صحيفة بريطانية .

تقول المساء :

اذا تحدثنا عن تجارة فرنسا في الرقيق الابيض .. فلن نستثير دهشة القراء لانهم جميعا يعلمون أن هذه هي طبيعة فرنسا من القديم . . فقد بنى تاريخها على هذه التجارة التي مازالت رائجة لدرجة أن «جي موليه» يعمل مستشارا قانونيا لاحدى المؤسسات التي تتجر في الرقيق الأبيض .

ولكننا سنتحدث عن مأساة خطيرة جدا تتعلق بنا .. بمصير

شباب ونساء غرب افريقيا ... التى نكبت بالاستعمار الفرنسى الذى يطبق مبـــادئه القذرة بحذافيرها عليها فى وقت تتطلع فيه للحرية والاستقلال والحياة الكريمة .

لورد انجليزى يكتب :

ان ما اسوقه فى هذا الصدد لم أكتبه أنا ، وانما كتبه لورد بريطانى ونشرته صحيفة بريطانيـة ... كشفت به عن الفضـــائح المروعة والارهاب الوحشى الذى يعيش فيه سكان تلك البـلاد وراء ستار حديدى فرضه الاستعمار الغاشم ...

وقـد ذكر اللورد الانجليزى كيف يشـترى الرجـــل بـ ٣٨ جنيها ... وكيف تشترى المرأة بـ ١٥ جنيها ... وكيف يشترى الطفل بجنيهين اثنين !!

انها صورة حية واقعية عن العملة التى تتعامل بهـــا الدول الاستعمارية مع تجار الرقيق الاسود ...

لقد استطاع اللورد « موجام » الدخول فى غرب أفريقيـــا ، والتسلل الى معسكرات الرقيق الاسود ، والتحقيق فى التجـــارة التى اتسعت بصورة خطيرة... بل استطاع شراء عبد بـ٣٧ جنيها وعشر شلنات ليطلق سراحه ...

ان لورد « موجام » سيروى القصة كاملة بعد أن ســمحت له السلطات الفرنسية بدخول غرب أفريقيا لانه من اللوردات الذين يمثلون الطبقة الاستعمارية فى بلاده ...

القطعان البشرية :

وتقرير اللورد بعنوان «القطعان البشرية» ، وهو يثير الضمير الانسانى بعد أن يكشف النقاب عن تجارة الرقيق والنخاسة خلال عام ١٩٥٩ .

وقد بدأ اللورد تقريره بقوله :

فى عصر الذرة والتقدم العلمى الكبير مازال ملايين الافريقيين

يعيشون حياة قطعان الماشية ، يعيشون عبيدا أذلاء لطائفة من المستعمرين وعملائهم ، فيملكهم السيد الابيض روحا وجسدا ، ويحرمهم من كل حقوق الانسان ، ويعرضهم فى السوق مثل الماشية والاغنام تماما ...

هذا ما اكتشفه لورد « موجام » فى الصحراء الكبرى عبر أفريقيا الغربية ...

واستطرد اللورد فى تقريره يقول :

ان السخرة وتجارة الرقيق وسوق العبيد ما زالت قائمة تحت اشراف السلطات الفرنسية .. فقد ألغت فرنسا السخرة وتجارة الرقيق اسما ، وأطلقت للمستعمرين العنان فى ممارسة الاتجار بالسود فى الصحراء لاستخدامهم فى المشاريع التى بدأت تنفذها بالتعاون مع الدول الاستعمارية الاخرى التى تستغل رؤوس أموالها فى غرب افريقيا ..

ان هذه الحقائق تعد نقطة سوداء بل عارا يطارد الحكومات الاستعمارية الى الابد .

فى « داكار » :

واضاف اللورد :

«وسألت ضابطا فرنسيا فى مدينة «دكار» عن النخاسة فنفاها ، ولكنه اعترف بعد ذلك بوجودها بل وباتساع نطاقها ، وفهمت من حديثه أن هذه المدينة بالذات هى مفتاح هذه التجارة كلها ...» .

«واستأجرت صحفيا ودليلا وعددا من الجمال والخيل لاقوم بأكبر مغامرة فى الصحراء .. مغامرة استغرقت شهرين كاملين نفذت خلالهما الى داخل الستار الحديدى الذى ضربه المستعمرون والسادة البيض حول مئات الآلاف من السود رجالا ونساء وأطفالا حتى وصلت الى«تومباكتو » التى تعتبر مفتاح الصحراء كلها .. والتى تضم سرا رهيبا ... لايعرفه سوى الاوربيين فقط»

«أن الحياة رخيصة جدا فى معسكرات الصحراء ... والسيد الابيض الاوربى وعملاؤه لايرحمون ولا يحجمون عن قتل من يقترب من معسكراتهم محاولا الاتصال بقطعان البشر المحجوزة وراء جدران المعسكرات . »

من وراء المعسكرات :

وأضاف اللورد الى ذلك :

«واستطاع دليل العثور على شاب حديث السن من السود الذين اطلق سراحهم من أحد المعسكرات بعد أن اشترى حريته بفضل أحد السياح الذين زاروا «تومباكتو» ..

وروى لنا هذا الشاب قصة العبيد والسخرة فى الصحراء كاملة .

وسألته عن الاسباب التى تحول دون الاتصال بالسلطات لاطلاق سراحهم ، فقال فى ألم : ان السلطات الغت تجارة الرقيق الاسود رسميا ، ولكنها للاسف الشديد تمارسها علنا بالتعاون مع تجار الرقيق بقصد تسخير الزنوج فى مشاريعها القائمة بقلب الصحراء » .

وأضاف الشباب : « ان الوسيلة الوحيدة لانقاذ العبد من معسكرات السخرة هى أن يشترى حريته بدفع أربعين جنيها ليشترى نفسه من سيده ، فيطلق سراحه وحده ويستبقى أسرته ليعمل هو حتى يحصل على المبالغ التى يشترى بها باقى أفراد أسرته .. وقد حدث هذا له شخصيا عندما استطاع والده دفع دية الاسرة كلها بفضل مساعدة أحد السياح ...» .

واستطرد اللورد يقول :

«استطاع» «سابا» وهو الشاب الذى تحدثنا اليه .. أن يقدم لنا «عسل زيد» العبد البالغ من العمر ٤٤ عاما وان كان مظهره يدل على أنه تجاوز الخامسة والسبعين ..

قصة دامية :

وقال « عسل » انه اشترى حريته بمبلغ ٤٠ جنيها ٠

وقلت له : « ان السلطات الفرنسية ألغت تجارة الرقيق منذ ٦٥ عاما ٠٠٠ فقال : ان الالغاء اجراء رسمى محض ولم ينفذ فى أى وقت أو أى مكان ٠ وقد قصد به تغطية ما يدبر لنا فى الخفاء »٠

وقال«عسل» :« ان العمل شاق جدا فى مشاريع الصحراء التى بدأت منذ ٣٠ عاما تقريبا ، ولا يحصل العبد خلال عمله الا على كميات ضئيلة من الطعام ، الامر الذى تسبب فى موت مئات الآلاف ، وعرض عشرات الآلاف للأمراض الخطيرة ٠٠» ٠

وقال بعد ذلك :« ان عقاب كل متمرد على هذا الظلم هو الضرب بالسياط والطعن بالخناجر » وكشف عن ظهره وصدره فشاهدت ما أثار اشمئزازى ونفورى ، وسألته عن سبب ذلك فقال فى مرارة : « لانى تطاولت بشرب بعض اللبن المخصص لأسيادنا !!» ٠

«هذه قصة أحد العبيد ٠٠ وهى صورة واقعية لما يدور بالمعسكرات فى الخفاء ٠٠ المعسكرات التى ضربت حولها حراسة شديدة ومنع الاجانب من الاقتراب منها ٠٠

هذه قصة «عسل» أحد السود الذين عاشوا معظم حياتهم فى معسكرات السخرة وتبادله اكثر من صيد من البيض المستعمرين ٠»

الدعارة :

«والآن ننتقل الى قصة أخرى ٠٠ قصة جديدة ٠٠ بطلتها الطفلة «تيجولود» التى تبلغ من العمر ١٦ عاما ٠٠ أمضت ست سنوات منها كبغى للسادة البيض الذين يتبادلونها كالذئاب الوحشية ٠٠ وهى تروى قصتها فتقول :

«بدأت الأنوثة تدب فى جسدى بعد العاشرة وظهرت أولى

علاماتها فى جسمى ‥ وبدأ سيدى يراقبنى ويمنعنى من الخروج لأى سبب من السخرة ‥ وفى أمسية طرحنى على الارض فقاومت دون جدوى ‥ وتركنى بعد أن أصبحت امرأة ‥ ثم اخذ يزورنى يوميا ليغتصبنى ، وبعد ذلك اصطحب شقيقه معه فى أثناء زيارتى، وأخذ عدد من يصطحبهم يزداد كل يوم عن سابقه حتى أصبحت لا أستطيع الوقوف على قدمى ‥ وأغمى على مرات ثم مرات ‥ ومرضت جدا . فتركنى سيدى وأمر بطردى من المعسكر ‥ والتقطنى عبد اشترى حريته وعالجنى حتى شفيت وتزوجنى ‥ وفجأة وجدت سيدى فى دارى يريد الاعتداء على أمام زوجى ‥ولم نجد بدا من الهجرة الى المدن البعيدة حتى يتوقف عن مطاردتى » .

هذه قصة من آلاف القصص لما يعانيه الزنوج والسود على أيدى المستعمر من اذلال وسخرة واعتداء وحشى وحرمان من كافة حقوق الانسان ، قصة قطعان البشر التى تباع وتشترى فى أفريقيا بمعاونة واشراف سلطات الاستعمار .

الوباء الابيض :

اما فى الكونغو فانه يطلق على البلجيكى (الوباء الابيض) من شدة ما يلقاه الوطنيون من فتك وهمجية يرتكبها البلجيكيون بدون ما شفقة ولا رحمة .

وان الحيوان ليجد من العطف والمعاملة الحسنة ما يحسدهم عليه الكونغوليون .

ان القصص الدامية التى ترتكب فى كل مكان من المستعمرين، تخرجهم من حظيرة الانسانية وتدخلهم فى عداد الوحوش المفترسة. ومع ذلك فان الاوربيين يزعمون أنهم رسل الحضارة فأين هذه الصفحات المظلمة الملوثة بالدماء ونكران الحقوق والجحود بالانسانية التى يمتلىء بها تاريخ الأوربيين فى كل مكان وطئوه وفى نفس العصر الذى نعيش فيه وهو القرن العشرين ؟ وأين هذه الحضارة التى تقوم

على القرصنة واللصـــوصية والنخاسية والعدوان بكل الوانه ، من الحضارة التى اقامها القرآن ونشرها المسلمون ؟

ان المسلمين – مهما كان انحرافهم عن قرآنهم – لم يكونوا قساة ولا جاحدين لحقوق الانسان ، لأنهم يدينون بالقرآن . فليس لديهم لون مميز على لون ولا جنس مميز عـلى جنس . فالكل في نظرهم آدميون ، ولكل آدمي الحق في الحرية والحياة والرزق . وليس لأى آدمى الحق فى استلاب آدمى آخر ، أو استعباده أو التحكم فى بلاده ، وانتهاب خيراتها ، أو الحجر على حريته التى منحها له الله .

الكلمة الختامية

تلك صحائف الاسلام الصحيح قد تحدثنا عنها كما نوهنا عن المسلمين المنحرفين تنويها يكفى للدلالة عليهم ، وهـــذه صفحات الغربيين ماثلة أمام أعيننا ، يشــــاهدها أهل الدنيا بأجمعهم ، ويشهدون عليها ٠

فليس من حق أحد أن يتهم الاســـلام بأنه يستعبد الناس ، أو يستبيح استرقاقهم ٠ أو يشرع الرق فى تشريعاته، وليس لاحد أيضا أن يقول : انه دين قد استنفد أغراضه ٠ ان العالم ما زال ـ ولن يزال ـ محتاجا الى رحمة القرآن وعدله ، وما زالت الدنيا فى حاجة ملحة لأن تستضىء بهديه ٠

وعلى المسلمين أن يفيئوا الى كتابهم ويستضيئوا بهديه ، وألا يدعوا هـذا الـكتاب الذى بين أيديهم يشكو الى منزله من اهمـاله والصدوف عنه ٠

وعلى علماء المسلمين المستنيرين أن يهيبـــوا بالمسلمين على تفهم القرآن وتصفية هذهالتفاسير الموروثة وأقوال الرجال المغرضين الذين تصدوا لحشوها بما لا يتفق وروح القرآن ٠

ان عصور الظلمةوالركود انحرفت كثيرا عنالمعانى الصحيحة والنصوص الصريحـة التى للقرآن وللأحاديث النبـــوية المؤكد ورودها عن صاحب الرسالة ٠ وان على المستنيرين من أبناء هذه الامة أن ينهضوا للتصفية والغربلة ، وتقديم تعاليم القرآن ورسول القرآن تقديما نقيا صافيا منزها من كل انحرافات تلك العصور ٠ وعليهم أن يقفوا وقفة مخلصة لدفع كل هوى أو انحراف أو غرض يبعد المسلمين عن حقيقة دينهــم ٠ ذلك هو واجب المسلمين وفى مقدمتهم العلماء والحـكام ٠ هذا اذا أرادوا أن يكونوا الأمة الوسط والشهداء على الناس ٠

ولكن مع الأسف أخذ المسلمون من القرآن حد القطع ٠ ولم

يأخذوا من القرآن التشريع الاقتصادى الذى اذا طبق تطبيقا كاملا فحينذاك يكون القطع لمن يسرق ٠

ان الشباب وغير الشباب فى بلادنا استهوتهم حضارة الغرب وفلسفته وعلومه ٠ فاصبحوا متجهين اليها ، ومن أراد ردهم أو توجيههم الى حضارتهم وقرآنهم وما فى هذا القرآن من توجيه سديد رشيد سخروا منه وأعرضوا عنه ٠ واتهموه بالرجعية والجمود ٠

واذا أردنا أن نقول كلمة الحق فى ذلك لا يسعنا الا أن نقول: انهم معذورون ٠ لأنهم لم يجدوا فى واقعهم ما يغريهم على ذلك ٠

لقد تحدثت الى كثير من الشبان المثقفين ومن مختلف الجنسيات المسلمة ، فوجدت فى أقوال كثير منهم كثيرا من وجاهة ما يقولون ٠

انهم يقولون : ان الاسلام يبيح الرقيق ٠ فالمسلمون يسترقون ويبيحون تجارة الرقيق فى بلادهم حتى اليوم ٠ فاذا قلت : لا يبيح الاسلام الرق ٠ أجابوا : هذا هو واقع العلماء والحكام المسلمين أفأنت تفهم الاسلام أكثر منهم ؟

ويقولون : ان الاسلام يقطع يد السارق٠ وتلك قسوة وفظاظة فاذا قلت لهم ان للاسلام نظاما اجتماعيا واقتصاديا لو طبق كما هو فى القرآن وفى أحاديث الرسول لما سرق أحد ، ولما أجرم أحد ، ولو تبينتم نظامه لما وجدتم فى القطع الا منتهى العدل ٠ قالوا : ذلك هو الواقع افأنت تفهم النظام الاقتصادى والاجتماعى فى القرآن أكثر من هؤلاء العلماء والحكام الذين يقومون فى بلادهم بتنفيذ ذلك ؟

ويقولون : ان القرآن رأسمالى يحتكر الارزاق والحكم ، ويجعلهما من نصيب الأفراد أما الجماهير فليس لهم حساب فى تشريعاته ٠

فاذا قلت لهم : ان للقرآن نظاما لا يرضى بالشيوعية ولا يرضى بالرأسمالية الغربية ، وله نظام خاص به ٠ وخير ما يسمى به نظامه فى عصرنا هو هذا النظام الاشتراكى التعاونى ، الذى

لا يسمح للفرد بأن يحتكر الرزق ولا مصادره ، ولن يدع للفرد الاستبداد بالحكم ، فهو يمنع الاحتكار والاكتناز فى الاموال ويدعو الى الشورى فى الحكم · قالوا : ولكن هذا هو واقع المسلمين فى عصور الأمويين والعباسيين والفاطميين وكل الدول التى قامت فى كل بلد اسلامى حتى اليوم · أفأنت تفهم الاسلام أكثر من كل أولئك ؟ وممن تريدنا أن نفهم الاسلام ؟ أليس من المسلمين أنفسهم ، وهذه هى حال المسلمين فى تاريخهم الطويل وفى واقعهم الحاضر الا فى بعض البلاد التى أدخلت على نظمها ما اقتبسته من نظم الغرب ·

أما الذين يقولون : ان الاسلام قد استنفد أغراضه ولم يعد أحد بحاجة الى الرجوع اليه · فيقررون أنه دين لفترة من الزمن كانت الظروف العالمية فى حاجة الى التنظيم على أساسه · وقد قام بأداء الدور خير قيام · وانتهى دوره · وتطور العالم ونشأت فيه فلسفات ومذاهب عديدة · وبينها الآن صراع محتدم وستكون الغلبة للمذهب الاصلح والفلسفة الاصح ·· وليس فى الاسلام القدرة على الدخول فى هذا الصراع القائم لانه يحمل عناصر رجعية يلفظها العصر الذى نعيش فيه · ولست أدرى ماذا أقول لهؤلاء لأنهم دللوا على انهم لم يقرءوا حرفا واحدا من القرآن أو قرءوا ولكنهم لم يفهموا ، أو فهموا ما علق بالتفاسير المختلفة المنحدرة الينا من عصور الظلمة التى مرت بها أمة المسلمين · ولم تنهض فى العصر الذى نعيش فيه حكومة من المسلمين تستطيع أن تتجرد من كل تقليد ومن كل أثر رجعى وتنظر الى القرآن نظرة مجردة عن الأقاويل والتعلقات والتفاسير المختلفة الا ما كان صالحا منها ، وكذلك تنظر الى السنة نظرة مجردة عن كل ما شابها وشاب رواياتها · وتجلو لنا تعاليم القرآن وتشريعاته وما جاء من السنة الصحيحة ، وما ثبت صدوره من اجلاء الصحابة وفقهائهم ، وتستعين بما جد فى العالم من معان وفلسفات ومذاهب وتطورات فى كل شىء · وتجعل المصلحة العامة وتقدم الوعى وتطور العالم نصب عينيها فيما تأخذ وما تدع ·

وبمثل هذه الحكومة ــ لو نهضت فى بلادنا ــ يستطيع الشباب الافاءة الى دينه وحضارة قومه ، وما نبع من بلاده ، وما نزل من

سمائه من حضارة ورقى وسمو بالانسانية لم تأت به حضارة من الحضارات ، ولم تصل اليه فلسفة من الفلسفات .

ان فى ديننا ما يرضى الوجدان والروح والفكر ، انه يرضى عالم الروح وعالم المادة ، ويجعل بينهما ميزانا قويما عادلا بحيث لا يطغى جانب على الجوانب الاخرى فيعطلها .

فهل نجد فى عقلاء أمتنا ومفكريها وقادتها من يملأ قلبه الايمان ، وتشيع فى أطرافه الحماسة للقيام بهذا العمل العظيم ؟؟

اعتراض ورد :

اعترض أحدهم على فى تسمية الكتاب . وقال لو اسميته (لارق فى الاسلام) لكان ذلك أشمل ، لان الاسلام جامع للقرآن والسنة وعمل الاسلاف الصالحين .

ولكن فات هــذا المعترض أن فى القرآن ما يدل على السنة اذ يقول الله تبارك وتعالى : (ما أتاكم الرســول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) . ويقول عن النبى صلى الله عليه وسلم : « وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى » . فأقوال النبى صلى الله عليه وسلم ان لم تكن من القرآن نصا فهى من القرآن روحا ومعنى .

المراجع

القرآن الكريم
صحيح البخارى
فى ظلال القرآن لسيد قطب
العدالة الاجتماعية لسيد قطب
تفسير النسفى
تفسير الخازن
تفسير ابن كثير
تفسير فريد وجدى
تفسير (عم) للامام محمد عبده
انسان العيون « السيرة الحلبية
اسمى الرسالات للسيد عبد الحميد الخطيب
بلوغ المرام للعسقلانى
سبل السلام للصنعانى
المحلى للامام على بن حزم
الوحى المحمدى للسيد رشيد رضا
مختارات الاحاديث النبوية لعبد الوهاب عبد اللطيف
خاتم النبيين لمحمد خالد
رياض الصالحين
الاسلام دين الفطرة للشيخ عبد العزيز جاويش
الاسلام دين الانسانية الخالد لمحمد عبد المنعم خفاجه
المجتمع الاسلامى كما تصوره سورة النساء لمحمد محمد المدنى
الاسلام المظلوم لابراهيم أبو الخشب

حقوق الانسان فى الاسلام للدكتور على عبد الواحد وافى
قصة الملكية فى العالم للدكتور وافى والدكتور سعفان
حقائق الاسلام وأباطيل خصومه لعباس محمود العقاد
المرأة فى القرآن الكريم لعباس محمود العقاد
الملكية فى الاسلام للسيد أبى النصر احمد الحسينى
شبهات حول الاسلام لمحمد قطب
بين الدين والحرية لعبد المنعم حسن عزيز
الرسالة الخالدة لعبد الرحمن عزام
محرر الرقيق لمحمد حسن عواد
جمهورية افلاطون ترجمة حنا خباز
حضارة الهند لغوستاف لوبون ترجمة (عادل زعيتر)
ماذا حدث فى التاريخ تأليف (جوردن تشايلد)(ترجمةجورج حداد)
سر احتلال الانجليز لمصر تأليف (بلنت) من كتب اخترنا لك
لمحات من تاريخ العالم لجواهر لال نهرو (مترجم للعربية)
الرق فى الاسلام لأحمد شفيق باشا . ترجمة أحمد زكى باشا . عن الأفرنسية
دائرة معارف البستانى
صحيفة المساء سنة ١٠٨٨

المعاجم

المعجم المفسر
القاموس المحيط
المنجد .

تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٩	٧	لتشريف	لتشريع
١٥	٢١	جلبكم	جبلكم
٢٣	٢٠	أن	الذى
٢٩	٧	عنده	عبده
٤٠	٢٦	أنهم	انهم
٤١	١٥	المميتة	الميمنة
٤٣	٦	ويثبت	ويثيب
٤٣	٢٣	فلك	فك
٤٨	١	أمر	أمير
٤٨	٢	التى مسميات	التى لامسميات
٤٩	٥	نرزقكم واياهم	نرزقهم واياكم
٥٣	٤	للحضارة البادية	للحاضرة والبادية
٥٣	٦	ابناه	أبناءه
٥٣	١٣	والتقى	والتلقى
٦٩	١	هدر	هدرا
٩١	٣١	المكتنزيين	المكتنزين
٩٩	٤	لم	الم
١١٧	٢٨	للماليك	للمماليك
١٢٥	١	أرد	أراد
١٣٠	١٧	ويكسونهم	ويكسوهم
١٣٥	٢١	لاول الأمر	لأولى الأمر
١٣٧	٣	دولى	قولى
١٤٠	٢٩	ويتبغى	وينعى

لارق فى القرآن

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٤٥	٢	فى قلوبهم	فى قلوبكم
١٤٨	٨	ليبيعوا	ليبيعوهن
١٥٦	٢١	فانكوحهن	فانكحوهن
١٨٢	٢٣	هاذلا	هازلا
١٨٦	٢٥	نكثوا	وان نكثوا
١٨٦	٢٥	تقاتلو الكفر	فقاتلوا أئمة الكفر
١٨٨	٦	يستطر	يستطرد
١٩٣	٩	فلا تستبقى	فلا تسبق
١٩٦	١٧	أن يكون	ان يكونوا
٢٠١	٥	ويكلمه	ويكمله
٢٠٤	٨	الممثلين الذين	المثلين اللذين
٢٠٦	١٦	يقع	يقطع
٢٠٧	١٧	حسن	حس
٢٠٧	٢٠	الطابة	للطاعة
٢٠٨	٣	بان	بالا
٢٠٨	١٤	يحدث	يحث
٢٠٩	٣٠	تخيفف	تخفيف
٢٢٥	١٤	بما فيهم	بما فيهم من النساء
٢٢٧	١١	التى	الذى
٢٣٣	٣٦	العشرين	العشرون

الدار القومية للطباعة والنشر

هيئة قناة السويس

حركة الناقلات خلال شهر سبتمبر سنة ١٩٦٢

عبرت القناة خلال الشهر الحالى ٨٧٣ ناقلة مقابل ٧٤٦ ناقلة خلال نفس الشهر من العام الماضى بزيادة قدرها ١٢٧ ناقلة اى بنسبة ١٧٪ ، أما الحمولة الصافية فقد سجلت زيادة قدرها ٠٠٠ر٠٩٧ر٢ طن اى بنسبة ٩ر١٨ ٪ (٠٠٠ر١٩٥ر١٣ طن مقابل ٠٠٠ر٠٩٨ر١١ طن) وهذا دليل على التطور الكبير فى احجام الناقلات التى تعبر القناة فى الوقت الحاضر .

وبالنسبة لمتوسط الحمولة الصافية للناقلة فقد بلغ ١٥١١٥ طنا فى سبتمبر الحالى مقابل ١٤٨٧٧ طنا فى سبتمبر من العام الماضى .

وبلغ متوسط كميات المواد البترولية على كل ناقلةمحملة ٢٧٠٥٢ طنا مقابل ٢٦٩٠٤ طنا فى سبتمبر ١٩٦١ .

وتمثل الحمولة الصافية للناقلات نسبة قدرها ٧٥٪ من مجموع الحمولة الصافية للسفن التى عبرت القناة خلال هذا الشهر بينما كانت هذه النسبة ٧٤٪ فى سبتمبر الماضى

وبالنسبة لاتجاه العبور فقد عبرت القناة من الشمال الى الجنوب ٤٣٨ ناقلة فى سبتمبر ١٩٦٢ مقابل ٣٧٥ ناقلة فى نفس الشهر من العام الماضى ، بزيادة قدرها ٦٣ ناقلة منها ٤٦ ناقلة فارغة (٣٩٩ مقابل ٣٥٣) و ١٧ ناقلةمحملة (٣٩ مقابل ٣٢) .

وزادت الناقلات العابرة شمالا بمقدار ٦٤ ناقلة (٤٣٥ مقابل ٣٧١) وبينما زادت الناقلات المحملة بمقدار ٦٧ ناقلة (٤٢٠ مقابل ٣٥٣) نقصت الناقلات الفارغة بمقدار ثلاث ناقلات (١٥ مقابل ١٨) .

الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد – روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ – ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ – ٤٠٨١٤



العدد ٢١٢ الثمن ١٢